

مُقتطفات من صحيح السيرة النبوية

د. غسان إسماعيل طاهر

الأستاذ في قسم السنة النبوية بكلية الدراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية بولاية منيسوتا الأمريكية

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت

التراث الذهبي

الرياض

مُقتطفات
مِنْ صَحِيحِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ



الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م



❊ الفرع الرئيسي : حولي ـ شارع المثنى ـ مجمع البدري

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

❊ فرع حولي : حولي ـ شارع الحسن البصري ت ٢٢٦١٥٠٤٦

❊ فرع المصاحف : حولي ـ مجمع البدري ت ٢٢٦٢٩٠٧٨

❊ فرع الفحيحيل : البرج الأخضر ـ شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ ـ ٩٥٥٥٨٦٠٧

❊ فرع الجهراء : الناصر مول ـ ت ٩٥٥٥٨٦٠٨

❊ فرع الرياض : المملكة العربية السعودية ـ التراث الذهبي: ٥٥٧٧٦٥١٣٨ ٠٠٩٦٦

ص. ب: ١٠٧٥٠ الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩ ٠٠٩٦٥

E-mail: z.zahby74@yahoo.com imamzahby



الدكتور

غسان إسماعيل طاهر

الأستاذ في قسم السنة النبوية بكلية الدراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية بولاية منيسوتا الأمريكية



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن مدار السنة النبوية على الإسناد، فالسيرة النبوية هي جزء من السنة النبوية، وتعجب اليوم ممن يقول: إن البحث عن صحة روايات السيرة بدعة!!

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٠٢).
(٢) سورة النساء: آية (١).
(٣) سورة الأحزاب: آية (٧٠-٧١).

فهل أصبح الإسناد بدعة؟

قال ابن المبارك: «الإسناد من الدين لولا الإسناد إذاً لقال من شاء ما شاء»[١].

نعم؛ قد تسامح الناس في رواية بعض أخبار السيرة النبوية استناداً لما شاع عن بعض كبار الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل حيث يقول: ابن إسحاق رجل تكتب عنه هذه الأحاديث -يعني: المغازي ونحوها- وإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا، وقبض أصابع يديه الأربعة[٢].

ومن هنا نادى كثير من المحققين قديماً وحديثاً بضرورة تنقيح السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصفة عامة، وإخضاعها إلى معايير النقد، وموازين الجرح والتعديل عند أهل الحديث، فيثبت ما كان مقبولاً لدى المحدثين، وينفى ما عداه من ضعيف أو موضوع.

قال الكافيجي[٣]: «ينبغي أن يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من العقل والضبط والإسلام والعدالة، ليكون كل واحد منهما معتمداً في أمر الدين، وأميناً فيه، وليزداد الرغبة في تاريخه، وللاحتراز عن المجازفة، فيحصل له الأمن من الوقوع في الضلالة والإضلال، ولابد له -يعني: المؤرخ- من مستند في تاريخه، فإن قلت: فما المستند؟

قلت: هو ما يصح له من أصله أن يروى مما رواه، ويقبل منه، فإن لم يحصل له ما فيه مستند لم يجز له شيء من ذلك شرعاً»[٤].

---

(١) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٢/ ١٦).
(٢) انظر: عيون الأثر لابن سيد الناس (١/ ١٢).
(٣) هو: محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الكافيجي الإمام المحقق علامة وقته، أستاذ الدنيا في المعقولات، وصاحب المصنفات، (ت٨٧٩هـ). حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٥٤٩)، والضوء اللامع (٧/ ٢٥٩).
(٤) مختصر علم التاريخ للكافيجي ص (٣٣٦).

وبين ذلك أيضـاً ابن خلدون حيث قال: «وكثيراً ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمّة النّقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرّد النّقل غثّا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النّظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيّما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنّة الكذب ومطيّة الهذر ولا بدّ من ردّها إلى الأصول وعرضها على القواعد»(١).

وقال التاج السبكي نقلاً عن والده: «يشترط في المؤرخ:

١- الصدق.

٢- وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى.

٣- وألا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك.

٤- وأن يسمى المنقول عنه»(٢).

وأيضـاً السخاوي جعل العدالة والضبط شرطـاً في المؤرخ، فقال: «وأما شرط المعتني به -يعني: التاريخ- فالعدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد الاتقان والتحري، سيما فيما يراه في كلام كثير من جهلة المتعنتين بسير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-»(٣).

وهكذا نجد هؤلاء الأئمة ينادون بكتابة التاريخ العام، والسيرة النبوية جزء منه على ضوء القواعد المعروفة عند علماء الحديث، لكنهم أطلقوا الأمر

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٧).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (٢/ ٢٣).
(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص (٦٣).

فحتموا كتابة جميع ما يتعلق بالتاريخ على ضوء تلك القواعد وإخضاعها لقوانين المحدثين.

لكن يفرق بين ما يتعلق به حكم شرعي مثل كيفية تقسيم الغنيمة، وكيف يوزع الخمس، وكيف يعامل الأسرى، وعلى ذمة من ينزل العدو وبين ما لا يؤخذ منه حكم شرعي، ولا طائل تحته كعدد من رجع مع عبدالله بن أبي يوم أحد، ونحو ذلك، فيجب إخضاع النوع الأول لقوانين المحدثين، وأما النوع الثاني فلا داعي لوزنه وتحقيقه لأنه تعب ليس وراءه أرب.

فإذا عرف ذلك فخير ما يتعلمه المسلمون سيرة خير البشر محمد ﷺ فمن خلال سيرته نعرف شخصيته وأعماله وأقواله وتقريراته، ويكسب المسلم محبته ويتعرف على حياة الصحابة رضي الله عنهم.

ودراسة السيرة النبوية العطرة تفيدنا في معرفة حقيقة الأوامر والنواهي في السنة النبوية، فقد يرد الأمر أو النهي في السنة النبوية، ولا نعلم هل هذا الأمر على الوجوب أو الاستحباب أو هو منسوخٌ؟ ولا نعلم النهي هل على التحريم أو التنزيه أو هو منسوخ؟ فتأتي السيرة النبوية لتبين لنا الحكم الدقيق في المسألة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[(١)].

كان لكم قدوة في النبي ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله، والاسوة القدوة، والاسوة ما يتأسى به، أي يتعزى به.

---

(١) سورة الأحزاب: آية (٢١).

فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، وقُتِل عمه حمزة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، وجاع بطنه، ولم يكن إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الافعال.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه[1].

السيرة النبوية العطرة هي الواقع العملي التطبيقي لكل ما بُعث به النبي ﷺ وقد كُتب في السيرة النبوية كتابات كثيرة، فرأيتُ أن أكتب فيها بصورةٍ مختلفة، وذلك بسرد الصحيح على ما وقفتُ عليه، لأن سيرته ﷺ تعد رسماً لطريقه التي سلكها، وقد أمرنا الله تعالى باتباع هديه، فكان لابد من توثيق وإثبات كل ما ينسب إلى سيرة النبي ﷺ لأن ذلك أصل من أصول الدين، والنظرة الشمولية للسيرة تجعلك تفهم السيرة النبوية الفهم الصحيح.

السيرة النبوية جمعت بين السنة والتاريخ، فهي من حيث النقل عن حال النبي ﷺ وأيامه وحياته وصفاته سنة؛ ومن حيث السرد للأحداث وما يتصل به تاريخ.

وقد تنوعت مصادر السيرة، فأول مصادرها القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً وتفسره السنة ويفسره الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، ولأهل الحديث في باب التوثيق فضل ومزية؛ لأنهم استوعبوا جل المصنفات، فكانت كتبهم حقاً المنبع الثري لمادة السيرة ومستودعها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٥٥-١٥٦).

وفي السيرة: العقيدة ودلائل النبوة والفقه والأنساب والشعر والنحو، وهذا ليس من الأمر السهل لتحليل مروياتها وفهمها فهماً صحيحاً، فالواجب التعامل مع السيرة بعلم ودقة ومنهجية صحيحة.

وأما قول الإمام أحمد في المغازي: «ثلاثة ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير».

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة ومنقطعة فإذا كان الشيء مشهوراً عند أهل الفن قد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره»[١].

وأول من ألف في السيرة النبوية الأمير الصالح والفقيه أبان بن عثمان بن عفان (ت١٠٥هـ)، وكان أميراً في المدينة النبوية، وكان من مجالسه سيرة النبي ﷺ وهذا الأمر الذي دفع أبان أن يكتب في السيرة.

ثم جاء من بعده إمام السيرة محمد بن إسحاق بن يسار المدني (ت١٥١هـ)، كتب كتاباً في السيرة بطلب من الخليفة أبي جعفر المنصور، والأصل مفقود، ويوجد من كتابه قطعاً مختلفة.

ثم هذبها علامة أهل مصر عبدالملك بن هشام الذهلي (ت٢١٨هـ)، وعُرِفَ كتابه بسيرة ابن هشام، قال الحافظ الذهبي: «هذب السيرة النبوية وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق وخفف من أشعارها»[٢].

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة، ابن تيمية (١/ ٧٦).
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٠/ ٤٢٩).

وكتاب ابن هشام تلقته الأمة بالقبول، وهذا من حيث الجملة، قال العلامة عبدالعزيز ابن باز رحمه الله في السيرة النبوية لابن هشام: «كتاب جيد ومفيد؛ لكن في أخباره ما هو صحيح وما هو ضعيف»(١).

ومن الأمور المهمة في السيرة النبوية الترجيح بين الروايات، إذا تعددت في الحادثة الواحدة، فإذا أمكن الجمع جمع بينها وإلا رجح بينها بتقديم الأصح رواية؛ أي إسناداً، فما كان أصح إسناداً فإنه يقدم، وهذا يحتاج إلى المعرفة بحال الإسناد.

والأخبار في كتب السيرة لابد أن تكون مما هي معلومة من الشريعة، فلا تكون الأخبار التي في كتب السيرة هي الحجة بمفردها، فالأخبار في كتب السيرة تُحكى على أنها حجة في الاستدلال والنظر، والأخبار في كتب السيرة على ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان موافقـاً للشريعة فهذا يقبل.

الثاني: ما كان مخالفـاً لشريعة فلا يقبل.

الثالث: ما كان مسكوتـاً عنه، فهذا تجوز روايته والاستدلال به.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد في القول والعمل.

وكتبه
د. غسان طاهر
دولة الكويت – إشبيلية
Gassanc44@gamil.com

---

(١) موقع العلامة ابن باز.

القطفة الأولى: مولده ﷺ

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي ﷺ الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[(١)].

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره ﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

---

(١) سورة التوبة: آية (١٢٨-١٢٩).

أولاً: ولادته ﷺ.

وقد صح أن مولد النبي ﷺ كان في عام الفيل، وحادثة الفيل ثابتة الوقوع بنص القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[1].

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ يوم مولده وشهره، فذهب محمد بن إسحاق إلى أنه ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وذهب الواقدي إلى أنه ولد لعشر ليال من شهر ربيع الأول، وابن إسحاق أوثق.

وأم النبي ﷺ حين وضعته رأت نوراً خرج منها أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام.

عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال قلتُ يا نبيَّ الله ما كان أَوَّلُ بَدءِ أَمركَ قال ﷺ: «**دعوةُ أَبي إِبراهِيمَ وبُشرَى عيسى ورأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخرُجُ منهَا نُورٌ أَضاءَتْ منها قُصُورُ الشَّامِ**»[2].

---

(١) سورة الفيل: آية (١-٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٦١)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

ثانيـًا: نسبه ﷺ.

فرسولنا ﷺ هو أولى الأنبياء بكلِّ فضيلةٍ؛ فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة. والله تبارك وتعالى اصطفى النبي ﷺ من بني هاشم، واصطفى هاشم من قريش، واصطفى قريش من كنانة، فقد أخرج الإمام مسلم من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»(٢).

فنسبه ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١- جزء اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب، وهو الجزء الذي يبدأ منه ﷺ وينتهي إلى عدنان.

لهذا قال الإمام البخاري في صحيحه تحت باب مبعث النبي ﷺ: «محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَرَ بن نِزار بن مَعَدِّ بن عدنان»(٣).

٢- وجزء آخر كثر فيه الاختلاف، وهو الجزء الذي يبدأ بعد عدنان وينتهي إلى إبراهيم ﷺ ألا أن الجميع متفقون على أن عدنان من صريح ولد إسماعيل ﷺ.

٣- أما الجزء الثالث فهو يبدأ من بعد إبراهيم ﷺ وينتهي إلى آدم ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).
(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ.

«محمد» ﷺ أن عبدالمطلب لما ولد النبي ﷺ عمل له مأدبة، فلما أكلوا سألوا ما سميته؟ قال محمداً، قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: «أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض»[(١)].

«عبدالله» وأما والد النبي ﷺ، وهو عبدالله، فلم يختلف في اسمه، واختلف في مقدار عمر النبي ﷺ لما مات أبوه، الراجح أنه دون السنة[(٢)].

«عبدالمطلب» واسمه شيبة الحمد، وسمي عبدالمطلب واشتهر بها لأن أباه لما مات بغزة كان خرج إليها تاجراً فترك أم عبدالمطلب بالمدينة، فأقامت عند أهلها من الخزرج فكبر عبدالمطلب، فجاء عمه المطلب فأخذه ودخل به مكة فرآه الناس مردفه فقالوا: هذا عبدالمطلب، فغلبت عليه[(٣)].

«هاشم» اسمه عمرو، وقيل له: هاشم لأنه أول من هشم الثريد لأهل الموسم ولقومه في سنة المجاعة، وفيه يقول الشاعر:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف[(٤)].

«عبد مناف» اسمه المغيرة، قال الإمام أحمد بن حنبل: «سمعت الشافعي يقول: اسم عبدالمطلب شيبة الحمد، واسم هاشم عمرو، واسم عبد مناف المغيرة، واسم قصي زيد»[(٥)].

«ابن قصي» زيد.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٤٠)، قال الحافظ ابن حجر إسناده مرسل، انظر: فتح الباري (٧/ ١٣٩).
(٢) وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٣٩).
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ١٣٩).
(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ١٧٤).
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ١٣٩).

«كلاب» وذكر ابن سعد أن اسمه المهذب، وقيل عروة وأنه لقب كلاباً لمحبته كلاب الصيد وكان يجمعها فمن مرت به فسأل عنها قيل له: هذه كلاب ابن مرة فلقب كلاباً.

«ابن مرة» قال السهيلي: منقول من وصف الحنظلة، أو الهاء للمبالغة والمراد أنه قوي.

«كعب» قال السهيلي: قيل بذلك لستره على قومه ولين جانبه لهم، منقول من كعب القدم[1].

ذكر المطرزي سبب تسمية قريش بهذا الاسم، فقال: سميت قريش بدابة في البحر هي سيدة الدواب البحرية، وكذلك قريش سادة الناس، قال الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك ... فيه لذي جناحين ريشا

هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم والخموشا[2].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ١٣٩).
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٤٤٥).

ثالثًا: أسمائه ﷺ.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لي أسماءً، وأنا محمدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشرُ الذي يُحشرُ النَّاسُ على قدمي، وأنا العاقبُ الذي ليس بعده أحد**»[(١)].

فهذه بعض الأسماء التي تسمى بها النبي ﷺ فاسم محمد هو المشهور، وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم في أربعة مواضع:

١- قال تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾** ﴾[(٢)].

٢- وقال تعالى: ﴿ **مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾** ﴾[(٣)].

٣- وقال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾** ﴾[(٤)].

٤- وقال تعالى: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾** ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) سورة آل عمران: آية (١٤٤).

(٣) سورة الأحزاب: آية (٤٠).

(٤) سورة محمد: آية (٢).

(٥) سورة الفتح: آية (٢٩).

وأما اسم أحمد، فقد ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾[1].

وأما اسم الماحي، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾[2]، فأخرج الله به الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام والتوحيد.

وأما اسم العاقب، فقد فسره ﷺ بأنه ليس بعده أحد، فقال تعالى مبيناً أنه خاتم النبيين: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾[3].

وقال ﷺ لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين خرج إلى تبوك وخلفه على المدينة: «ألا ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي»[4].

---

(١) سورة الصف: آية (٦).
(٢) سورة إبراهيم: آية (١).
(٣) سورة الأحزاب: آية (٤٠).
(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

القطفة الثانية: الواجب اتجاه النبي ﷺ

أولاً: محبة النبي ﷺ.

عن أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[١].

وعن عبدالله بن هشام قال كنا مع النبي ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بنِ الخطَّابِ فقال له عمر يا رسولَ الله لأَنتَ أَحبُّ إليَّ من كُلِّ شَيءٍ إلاَّ من نفسِي، فقال النَّبي ﷺ: «**لا والذي نفسِي بيَدِهِ حتَّى أَكُونَ أَحبَّ إليكَ من نفسِكَ**». فقالَ لهُ عمرُ فإنَّهُ الآنَ واللهِ لأَنتَ أَحبُّ إليَّ من نفسِي، فقالَ النَّبي ﷺ: «**الآنَ يا عمرُ**»[٢]. فمعنى لا يؤمن أي: كمال الإيمان، كما ذكر ذلك شراح الحديث، فمحبته ﷺ من الإيمان، وبذلك يحصل لك حلاوة الإيمان.

١ – محبته ﷺ سبب لزيادة الإيمان.

عن أَنَس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيهِ وجدَ حلاوةَ الإيمانِ أَن يكُونَ اللهُ ورسُولُهُ أَحبَّ إليهِ ممَّا سِواهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وأَن يكرهَ أَن يعودَ في الكفرِ كما يكرهُ أَن يُقْذَفَ في النَّارِ**»[٣].

عن أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجُلاً سأَلَ النَّبي ﷺ عن السَّاعَةِ، فقال: متى السَّاعةُ، قال: «وماذَا أَعدَدْتَ لَهَا». قال لا شيءَ إلاَّ أَنِّي أُحبُّ اللهَ ورسولَهُ ﷺ فقال: «أَنت مع من أَحبَبْتَ»، قال أَنسٌ فما فرحنَا بشيءٍ فرحنا بقولِ النبيِّ ﷺ «أَنت مع من

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، (٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).
(٣) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

أَحبَبْتَ»، قال أَنسٌ فأَنا أُحِبُّ النبي ﷺ وأَبا بكر وعمر، وأَرجُو أَن أَكونَ معهُم بحُبِّي إِيَّاهُم، وإِن لم أَعملْ بِمِثْلِ أَعمالِهِم(١).

٢- محبته ﷺ تقتضي اتباعه والتأسي به وبسنته.

ومحبته ﷺ تتمثل في اتباعه والتأسي به والتمسك بسنته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(٢).

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

٣- محبته ﷺ تقتضي تصديقه وطاعته.

ومقتضى محبته ﷺ تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر به، والانتهاء فيما نهى عنه وزجر.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) سورة آل عمران: آية (٣١).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾[1].

أي: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ شَٰهِدًا ﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل.

ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم.

﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي: تسبحوا الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

هذه هي المحبة الشرعية الصادقة لرسول الله ﷺ وأما الذين غلوا في محبته فرفعوه من منزلته إلى منزلة الألوهية؛ فدعوه من دون الله، واستغاثوا به فقد ضلوا

---

(١) سورة الفتح: آية (٨-٩).

ضلالاً مبينـًا، وأما الذين جفوا في محبته ﷺ فقدموا محبة الأولياء والصالحين على محبته، ولم يستجيبوا لأمره ونهيه ولم يسلكوا سبيله فقد ضلوا أيضـًا.

ثانيـًا: الصلاة على النبي ﷺ.

١- معنى الصلاة على النبي ﷺ.

قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء[١]. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[٢].

وهذا فيه تنبيه على كمال رسول اللّه ﷺ ورفعة درجته، وعلو منزلته عند اللّه وعند خلقه، ورفع ذكره. و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ﴾ عليه، أي: يثني اللّه عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى، لمحبته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ اقتداء باللّه وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم وأفضل هيئات الصلاة عليه ﷺ، ما علم به أصحابه: «**اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة[٣].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقـًا في تفسير سورة الأحزاب.
(٢) سورة الأحزاب: آية (٥٦).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص (٧١٠).

٢- كثرة الصلاة على النبي ﷺ سبب لذهاب الهمّ ومغفرة الذنوب.

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهب ثُلُثَا اللَّيلِ قام فقال: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الموتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الموتُ بِمَا فِيهِ**»، قال أُبَيٌّ: قلتُ: يا رسولَ الله إِنِّي أُكثِرُ الصلاةَ عليكَ فكم أَجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**مَا شِئْتَ**». قال: قلتُ: الرُّبُعَ، قال: «**مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قلت: النِّصف، قال: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قال: قلت: فالثُّلُثَيْنِ، قال: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قلت: أَجعل لك صلاتي كلها قال: «**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**»[(١)].

ثالثـًا: حكم الاحتفال في مولده ﷺ.

إن إقامة الموالد تعظيمـًا للمولود من البدع التي لم تَرِد عن النبي ﷺ سواء كانت تتعلق بالنبي ﷺ أو بغيره من العلماء أو من العُبَّاد. فإقامة الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ليس مشروعـًا، فهل أنتم أيها المقيمون للاحتفال أشد حبـًا لرسول الله من صحابة رسول الله؟! إن قالوا: نعم. قلنا: كذبتم!

وإن قالوا: لا. الصحابة أشد حبـًا.

فهل أقمتم هذا حبـًا للرسول أم لا؟! إن قالوا: حبـًا للرسول، قلنا: لماذا لم يُقِمْه مَن هو أشد حبـًا منكم للرسول؟! أهم في غفلة من هذا، أم في تساهل، أم في جهل؟!

كل هذا لم يكن، فإن قالوا: نقيم ذلك لذكرى رسول الله ﷺ قلنا: سبحان الله! هل أنتم تستدركون على الإسلام؟! إن قالوا: نعم. فالمسألة خطيرة وكبيرة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، والحديث حسنه الترمذي، والشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٤).

ومعنى ذلك: أن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] ليس بصحيح؛ لأنهم بهذا استدركوا على الإسلام.

وإن قالوا: لم نستدرك على الإسلام، قلنا: إذاً في ذكرى رسول الله ﷺ بما شرعه الإسلام كفاية.

رسول الله ﷺ يُذكر في كل عبادة بلسان الحال أو بلسان المقال، فأنت تذكر الرسول بلسان الحال وبلسان المقال.

الأول: بلسان الحال: كل عابد لله يعبد الله عزَّ وجلَّ إخلاصاً له واتباعاً لرسوله. إذاً: أنا أشعر حينما أفعل العبادة أنني متبع للرسول، هذه ذكرى أم غير ذكرى؟! الجواب: ذكرى.

الثاني: أو بلسان المقال: ننظر إلى الوضوء: إذا فرغ الإنسان من وضوئه ماذا يقول؟! الجواب: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وفي الصلاة: فرض علينا أن نقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أين هذا الفرض؟! الجواب: في التشهُّد.

وفي النداء للصلاة: مفروضٌ علينا أن نقول: أشهد أن محمداً رسول الله. إذاً: ما شرعه الله ورسوله مما يكون فيه ذكرى رسول الله ﷺ خير مما ابتدعه هؤلاء.

وبهذا نعرف أن الاحتفال بمولد الرسول ﷺ بدعة، وكل بدعة ضلالة، لا سيما وأن هذا الاحتفال لا يخلو من طوام؛ إذْ يقال لنا: إنه يكون فيه اجتماع واختلاط بين الرجال والنساء، والله المستعان.

---

(١) سورة المائدة: آية (٣).

القطفة الثالثة: النبي ﷺ قبل المبعث

أولاً: هل خُتِنَ ﷺ؟.

ولد ﷺ في جوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وهذا لا خلاف فيه، وقد شاع في كتب السيرة أنه ولد مختونـًا، وأنه خُتن ﷺ يوم شقَّ قلبه الملائكة، وقد رد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال الحافظ ابن كثير: «قلت: قد رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية مسألة في ذلك، فردَّ هذه السياقات كلها وجعل بعضها موضوعـًا، قال: والصحيح أنه إنما خُتِن كما تُختَن الغلمان، ختنه جدُّه عبدالمطلب وعمل له دعوة جمع عليها قريشـًا، والله أعلم»[١].

ثانيـًا: يتمه ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾[٢]، أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفله جده عبدالمطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين.

فقد ترك يُتم النبي ﷺ في نفسه أعمق الأثر، ففي طفولته فقد أمه في السابعة من عمره، وتوفت أمه وهي راجعة من عندي أخواله من المدينة في طريقها إلى مكة في منطقة يقال لها الأبواء، وكان قد ولد يتيم الأب، وقد بيّن الزهري أن جده عبدالمطلب كفله ورعاه، ويذكر الواقدي أن جده حين توفي أوصى أبا طالب عمه به.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٣٨٨).
(٢) سورة الضحى: آية (٦).

وكان رسول الله ﷺ في الثامنة من العمر، ولاشك أنه أحس بفقدان جده لما كان يَحبُوه به من العطف والرعاية.

ثالثـًا: مرضعاته وحواضنه ﷺ.

فمن مرضعاته: ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته أيامـًا معه أبا سلمة عبدالله بن عبدالأسد المخزومي بلبن ابنها مسروح، وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبدالمطلب.

ثم أرضعته حليمة السعدية بلبن ابنها عبدالله أخي أنيسة وجدامة –وهي الشيماء– أولاد الحارث بن عبدالعزى بن رفاعة السعدي.

وأرضعت معه ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، ثم أسلم عام الفتح وحسن إسلامه.

وكان عمُّه حمزة مسترضعـًا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمُّه رسول الله ﷺ يومـًا وهو عند أمِّه حليمة، فكان حمزة رضيع النبي ﷺ من وجهين: من جهة ثويبة، ومن جهة السعدية[1].

وكانت حاضنته ﷺ أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، عن أنس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها ما يبكيك؟

ما عند الله خير لرسوله ﷺ فقالت ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[2].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (١/ ٦٨-٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٤).

أ- بركة النبي ﷺ على السيدة حليمة: فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثدييها وغزارة حليبها.

ب- اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره والرضا به، ولا يندم على ما مضى وما لم يقدره الله تعالى.

ج- أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول.

رابعـًا: شق الصدر.

وقعت أحداث شق صدر النبي ﷺ وغسله ولأَمِهِ، مرتين، الأولى عندما كان طفلاً في الرابعة من عمره، يلعب في بادية بني سعد، فقد أخرج الإمام مسلم حادثة الشق الأولى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني: ظئره) فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[1].

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثمـًا ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

أما المرة الثانية التي وقع فيها شق صدره ﷺ فكانت ليلة الإسراء والمعراج.

لقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة الرسول إلى أمه آمنة وجده عبدالمطلب، لأن حليمة خافت عليه ورغبت في إنهاء مسئوليتها عنه رغم حبِّها له وتعلقها به.

خامسًا: صيانة الله له قبل المبعث.

إن الله تبارك وتعالى قد حفظ نبيه ﷺ قبل المبعث من كل إشكال الكفر والشرك والمعاصي، فقد كان يطوف بالبيت العتيق.

١- فلم يمس صنم، وقد طاف معه مولاه زيد بن حارثة مرة، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم عاد زيد للمسها ليتأكد من الأمر، فنهاه ثانية فانتهى حتى كانت البعثة، وقد حلف زيد بن حارثة بأن رسول الله ﷺ: ما مس منها صنمًا حتى أكرمه الله بالوحي[1].

٢- ولم يأكل من ذبائح المشركين، فعن عبدالله بنِ عمر رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ لقىَ زيدَ بن عمرو بن نُفَيْلٍ بأَسفلِ بلدح، قبل أَن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقُدِّمَت إلى النبي ﷺ سفرةٌ، فأَبى أَن يأكل منها ثُمَّ قال زيدٌ: إني لستُ آكلُ ممَّا تذبَحُونَ على أَنصابكم، ولاَ آكُلُ إلاَّ ما ذُكِرَ اسم الله عليه.

وأَنَّ زيدَ بن عمرو كانَ يعيبُ على قريش ذبائحهُم، ويقولُ الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وأَنزلَ لها من السَّمَاءِ الماءَ، وأَنبتَ لها من الأَرضِ، ثُمَّ تذبَحُونها على غيرِ اسمِ اللهِ إنكارًا لذلكَ وإِعظامًا له[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٨٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٦-٢١٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣)، والحديث حسنه الذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٦).

وبهذه المناسبة ذكر شراح الحديث أن النبي ﷺ ما كان يأكل ما يذبح على النُصُب.

٣- ولم يتعرى، من ذلك ما جاء في حديث جابر بن عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لما بُنِيَتِ الكعبةُ ذهب النَّبي ﷺ وعبَّاسٌ ينقُلان الحجارةَ فقالَ العبَّاسُ: للنبي ﷺ اجعل إِزاركَ على رقبتكَ، فخرَّ إِلى الأَرضِ، وطمحت عيْناهُ إِلى السَّمَاءِ فقالَ: «**أَرِنِي إِزَارِي**»، فَشَدَّهُ عَلَيهِ[١].

سادسًا: الراهب بحيرى.

خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك، فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعامـًا، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٢).

مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه[١].

سابعـًا: شهوده حلف الفضول.

إن قريشـًا تحالفوا بعد موت قصي وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار من السقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة ونازعهم فيه بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت فسموا المطيبين.

فقد ثبت أن النبي ﷺ شهد حلف المطيبين وأثنى عليه قائلاً: منْ حديث عبدالرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال «**شَهِدْتُ حِلفَ المطَيَّبِينَ مع عُمُومَتِي وأَنَا غُلَامٌ فما أُحِبُّ أَنَّ لي حُمرَ النَّعَمِ وأَنِّي أَنْكُثُهُ**»[٢].

وهذا الحلف كان بين بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم، وكان في دار عبدالله بني جدعان، وهو تحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ورد الفضول على أهلها، وقد سمى الحلف بحلف الفضول.

وأما حرب الفجار: وهي بين قريش وكنانة من ناحية، وقيس وعيلان من ناحية أخرى، فلم يثبت بطريق صحيح أن النبي ﷺ شارك فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٢٠)، قال الترمذي: حديث جسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والرواية صححها الشيخ الألباني فقال: «صحيح لكن ذكر بلال فيه منكر كما قيل».

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٠٠).

ويؤخذ من حلف الفضول: جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، وفيه قوله ﷺ: «**ما أحب أن لي به حمر النعم**» لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم.

وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًا فاعلاً، لا أن يكون رقمًا من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي ﷺ محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين وتهفو إليه قلوب الرجال والنساء على السواء بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه ﷺ وما زال يزكو وينمو حتى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو كان ذلك في المجتمع المنحرف.

ثامنًا: تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين.

١- بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين:

فأما المرة الأولى منها: فهي التي قام بها إبراهيم عليه السلام يعينه ابنه إسماعيل عليه السلام.

والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة، واشترك في بنائها النبي ﷺ.

والثالثة: عندما احترق البيت من رميه بالمنجنيق في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار الذي ضربه الحصين السكوني، على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بناءها.

(١) سورة المائدة: آية (٢).

وأما الرابعة: في زمن عبدالملك بن مروان بعدما قتل ابن الزبير، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النبي ﷺ لأن ابن الزبير باشر في رفع بناء البيت، وزاد فيه الأذرع الستة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، وإنما جرأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهُدِمَ، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم**»[1].

٢- طريقة فض التنازع كانت موفقة وعادلة، ورضي بها الجميع وحقنت دماء كثيرة، وأوقفت حروبًا طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضيت به جميع القبائل، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون الأخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله ﷺ وتسديده قبل البعثة، إن دخول رسول الله ﷺ من باب الصفا كان قدرًا من الله، لحل هذه الأزمة المستعصية، التي حُلت نفسيًّا قبل أن تحل على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد ﷺ، فهو الأمين الذي لا يظلم وهو الأمين الذي لا يحابي ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء.

٣- إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي، وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلها ﷺ وذلك معلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣)، واللفظ للبخاري.

القطفة الرابعة: نبوته ﷺ

أولاً: بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[١].

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولاً مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أممهم، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد عُلِمَ أن محمداً ﷺ هو خاتمهم.

قال علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه[٢].

عن جابر بن عبدالله أَنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم أَتى النبي ﷺ بكتاب أَصابهُ من بعض أَهلِ الكُتُبِ فقرأَهُ النبي ﷺ فغضبَ فقالَ أَمُتهَوِّكُونَ فيها يا ابنَ الخطاب والذِي نفسي بِيَدِهِ لقد جِئْتُكُم بها بيضَاءَ نَقِيَّةً لا تسأَلُوهُم عن شيءٍ فيخبرُوكُمْ

---

(١) سورة آل عمران: آية (٨١).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤٠).

بحقٍّ فتكذِّبُوا به أَو ببَاطِلٍ فتُصدِّقُوا به والذي نفسي بيده لو أَنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان حيًّا ما وسعهُ إِلا أَن يتَّبعني»[1].

لقد بشر الأنبياء بنبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[2].

وبشر به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم»[4].

ثم قال: «ثم العلم بأن الانبياء قبله بشروا به يُعلم من وجوه: أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم وممن لم يسلم بما وجدوه من ذكره بها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يُخبرون بمبعثه وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (١٧٧).
(٢) سورة الأعراف: آية (١٥٧).
(٣) سورة الصف: آية (٦).
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية (١/ ٣٤٠).

أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه.

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[١].

ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة.

والوجه الثالث: نفس إخباره في القرآن الكريم مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم»[٢].

وقال: «وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ما ليس في أخرى»[٣].

ثانيـًا: بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته.

لقد أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه الطويلة أن راهب النصارى في عمورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: أي بني والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن

---

(١) سورة البقرة: آية (٨٩).
(٢) الجواب الصحيح، ابن تيمية (١/ ٣٤٠).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٧).

فيه علامات لا تخفى بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه.

وكذلك فإن يهود المدينة كانوا يعرفون أن زمان بعثة النبي قد اقترب، وكانوا يزعمون أنه منهم، ويتوعدون به العرب، وقد بيّن الله تعالى أنهم يعرفونه بصفاته التي ذكرت في كتبهم كما يعرفون أبنائهم، وإنما أنكروا نبوته بعد ظهوره.

وقال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ: وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم.

ثالثًا: إرهاصات نبوته.

ومن إرهاصات نبوته تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فقد أخرج مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»[١].

ومنها: الرؤيا الصادقة وهي أول ما بديء به من الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

وقد حبب إليه العزلة والتحنث (التعبد) فكان يعتزل قومه في غار حراء، وهو في جبل حراء، ويطل الغار على الكعبة، ويحتاج صعوده إلى جهد ويستغرق الصعود نصف ساعة، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء[٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فيقول الله عز وجل في سورة الإنعام والأنبياء مواسياً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى في سورة هود بحق سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

ويقول رب العالمين في سورة الحجر مدافعاً عن نبيه ومصطفاه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[3].

(١) سورة الأنعام: آية (١٠).
(٢) سورة هود: آية (٣٨).
(٣) سورة الحجر: آية (٩٥).

القطفة الخامسة: صفة النبي ﷺ الخلقية والخُلُقية ورويته في المنام

أولاً: صفة النبي ﷺ الخُلقية والخَلقية.

١- أما صفته ﷺ الخُلقية.

يقول الله تعالى في خُلق النبي ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[١]؛ أي: عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقد أخرج أحمد في مسنده من حديث سعد بن هشام قال سألت عائشة فقلت أخبريني عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن»[٢].

كذلك وصف سبحانه الشمس والقمر، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ ﴾[٣].

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ النور والحرارة وهو الشمس، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ فيه النور لا الحرارة وهذا من أدلة عظمته.

وأما في رسوله وحبيبه ﷺ فجمع الله له بين الوصفين: «الشمس والقمر»، فيقول سبحانه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ ﴾[٤].

كونه ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: أرسله اللّه، يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها.

---

(١) سورة القلم: آية (٤).
(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٠٢).
(٣) سورة الفرقان: آية (٦١).
(٤) سورة الأحزاب: آية (٤٦).

كونه ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ فجمع له بين الوصفين، وهو وصف الشمس والقمر، وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور، يهتدى به في ظلماتها، ولا علم، يستدل به في جهالاتها حتى جاء اللّه بهذا النبي الكريم، فأضاء اللّه به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم.

٢- وأما صفته ﷺ الخَلقية.

فقد وصفه لنا الصحابة الكرام رضي الله عنهم أدق وصف: عن أَبي إسحاقَ، قالَ: سأَلَ رجلٌ البراءَ: أَكانَ وجهُ رسُولِ الله ﷺ مِثلَ السَّيفِ؟ قال: لا مِثلَ القَمرِ[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ بالطويل ولا بالقصيرِ شَثْنَ الكَفَّينِ والقدمين، ضَخْمَ الرَّأس، ضَخمَ الكَرَادِيس طَويلَ الْمَسْرُبَةِ، إذا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كأَنَّمَا يَنحَطُّ من صَبَبٍ لَم أَرَ قَبلَهُ وَلاَ بَعدَهُ مثلهُ ﷺ[٢].

«شثن» أي: غليظ الأصابع والراحة.

ضخم الكراديس: أي ضخم رؤوس العظام أو ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين.

وكان ﷺ ربعة من الرجال، يعني: مربوعـاً وهو ما بين الطويل والقصير.

وعن أَنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائِنِ، ولا بالقَصِيرِ، وليسَ بالأَبيَضِ الأَمهَقِ، وليس بِالآدَمِ، وليسَ بِالْجَعدِ القَطَطِ، ولا بالسَّبطِ، بَعَثَهُ اللهُ على رأسِ أَربعينَ سَنَةً، فأَقَام بمكَةَ عشر سنين، وبالمدينة عشر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في مختصر في الشمائل ص (١٥).

سنين، وتوفَّاهُ اللهُ على رأس ستِّين سنةً، وليس في رأسه ولحيته عشرُونَ شَعَرَةً بيضاءَ[١].

قوله: «وليس بالجعد القطط ولا بالسبط» أي أن شعره كان بين الجعودة والسبوطة.

وقوله: «وليس في لحيته عشرون شعرة بيضاء».

وعن أنس «كان شعر النبي ﷺ إلى أنصاف أذنيه»[٢].

وعن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ما مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلاَ دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِي ﷺ[٣].

أيضـاً من صفاته ﷺ أنه: بعيد ما بين المنكبين، ولا بالأبيض الأمهق ولا الآدم.

والمعنى أنه ليس كريه البياض كلون الجص ولا شديد السمرة ولكن هو بين ذلك، أزهر اللون، مشربـاً بحمرة في بياض ساطع كأن وجهه القمر حسنـاً.

أدعج العينين: أي شديد سواد العينين.

حسن الأنف، وكان كث اللحية واسعها.

٣- وأما صفته ﷺ المعنوية.

فمن خلال دراسة سيرته ﷺ يظهر أمامنا صور التواضع المقترن بالمهابة، والحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها،

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٣).

وعدم التطلع إليها عند إدبارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، وقوة العقل، وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير، ولين الجانب ورقة المشاعر وحب الصفح والعفو عن المسيء والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة.

ثانيـًا: رؤية النبي ﷺ في المنام.

وهذه بعض الأحاديث في رؤيته ﷺ في المنام.

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي**».

قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ -أي: البخاري-: قَالَ ابْنُ سِيرِينَ «إِذَا رَآهُ فِي صُورَتِهِ»[1].

قال: «كان محمد -يعني ابن سيرين- إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صف لي الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره». وسنده صحيح[2].

وجاء ما يؤيده: عن كليب قال: قلت لابن عباس رأيت النبي ﷺ في المنام قال: صفه لي، قال: ذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: «قد رأيته»[3].

٢- وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَام فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يتمثلُ بِي وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ»[4].

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٣).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٨٤).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، قال ابن حجر: «وسنده جيد» فتح الباري (١٢/ ٣٨٤).
(٤) أخرجه البخاري (٦٩٩٤).

٣- وعن أبي قتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنْ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنْ الشَّيْطَانِ. فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفِثْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلاَثًا وَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَرَاءَى بِي»(١).

٤- وعن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمع النبِي ﷺ يقول: «مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَكَوَّنُنِي»(٢).

وأما قوله: «فقد رأى الحق»، فتفسيره قوله: «إن الشيطان لا يتمثل بي».

ثالثًا: الأصول المتبعة في رؤيا النبي ﷺ في المنام.

من نظر إلى الأحاديث وجد أنها جاءت بعدة أمور:

الأمر الأول: ثبوت رؤيا النبي ﷺ في المنام فإذا جاء إليك أحد فقال لك أنه رأى النبي ﷺ لا تكذبه.

الأمر الثاني: أن الشيطان لا يمكنه أن يتشبه بالنبي ﷺ وهذا من تمام حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ.

الأمر الثالث: أنه ينبغي معرفة صفة النبي ﷺ الخَلْقية لكي تعرف هل هو أم لا؟ لأن الشيطان يستطيع أن يكذب، ولكنه لا يستطيع أن يتمثل بالنبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٩٧).

رابعـًا: معنى قوله: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة».

أنه يحمل على وجهين:

الأول: إن كان في زمانه ﷺ، وهو لم ير النبي ﷺ ثم رآه في المنام فإنه قد ييسر الله له أن يراه ثم يرى أن ما رآه في المنام مطابق بما رآه في اليقظة، وهذا فيه فضيلة زمانه ﷺ.

الثاني: يمكن أن يراه بعد الموت ويراه في الدار الآخرة وتكون رؤية حق، وهو باحتمال أن يراه رؤية خاصة من القرب منه والشفاعة له بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة، قاله القاضي عياض[١].

خامسـًا: هل يرى ﷺ في اليقظة؟

وقد نقل عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي ﷺ في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك. وهذا مشكل جداً ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، وهذا من الكذب والافتراء على رسول الله ﷺ.

وقد اشتد إنكار القرطبي على من قال من رآه في المنام فقد رأى حقيقته ثم يراها كذلك في اليقظة[٢].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٢/ ٣٨٥).
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٢/ ٣٨٥).

القطفة السادسة: البلد الحرام أسماءه وحدوده وفضائله

إن لمكة المكرمة في نفوس المسلمين مكانة بارزة، فإليها تتجه أفئدة الناس، ويقصدونها للحج والعمرة.

أولاً: أسماء البلد الحرام.

بلد الله الحرام، الذي حرمه وشرفه وقدسه، تعددت أسمائه تشريفاً للمسمى، ومن أسمائه التي وردت في القرآن الكريم:

١- مكة: وهو أشهر أسمائه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[١].

٢- بكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٢].

٣- أم القرى، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾[٣]، وأم القرى هي مكة باتفاق المفسرين، وسميت بذلك لأنها أشرف وأفضل من سائر البلاد وأحبها إلى الله وإلى رسول الله ﷺ.

٤- البلد الأمين، قال تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾[٤]، والبلد الأمين هو مكة بلا خلاف.

---

(١) سورة الفتح: آية (٢٤).
(٢) سورة آل عمران: آية (٩٦).
(٣) سورة الشورى: آية (٧).
(٤) سورة التين: آية (١-٣).

ثانيـًا: حدود البلد الحرام.

لأهمية هذا الأمر وما يتعلق به من أحكام شرعية كثيرة شرعها الله تعالى لحرمه كان تحديد الحرم بوحي من الله، فأمر الله تعالى نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يضع للبيت حدود، فوضع علامات للبيت ليعرف حدوده، وقد جددت أنصاب الحرم على زمن رسول الله ﷺ، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وضعها يريه إيَّاها جبريل[(١)].

قال الإمام النووي: «وأعلم أن معرفة حدود الحرم من أهم ما ينبغي أن يعتنى به، فإنه يتعلق به أحكام كثيرة»[(٢)].

وللحرم علامات مبنية في جوانبه الأربع، وما زالت موجودة إلى اليوم، تجدد في كل عصر عند حدوث تلف فيها، وهذه العلامات يطلق عليها العلماء أنصاب الحرم.

ثالثـًا: فضائل البلد الحرام.

ونأخذ بعض فضائل هذا البيت:

١ - حرمة مكة بلد الله الحرام.

إن الله تعالى اصطفى هذه البقعة وحرمها منذ خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[(٣)]، وأيضـًا جاء في الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٨٠رقم٨١٦)، قال ابن حجر: إسناده جيد. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ١٨٣).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات، النووي (٣/ ٨٢).

(٣) سورة النمل: آية (٩١).

رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «**لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا، فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

٢- دعوة إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها.

إن إبراهيم عليه السلام بعد أن أسكن ولده إسماعيل وزوجه هاجر -عليهما الصلاة والسلام- دعا لأهل هذا البلد وساكنيه، فدعا أن يجعله بلداً آمناً، وأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، ودعا أن يجعل قلوب المسلمين تميل وتهفو إليهم وإلى بلدهم، ودعا أن يرزقهم من الثمرات، ودعا أن يبعث فيهم نبياً منهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

وقد استجاب الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[3].

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، (٤٤٥).

(٢) سورة إبراهيم: آية (٣٥-٣٧).

(٣) سورة القصص: آية (٥٧).

وقوله: ﴿ **فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴿٣٧﴾ ﴾، يقول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: «لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: «من الناس» فاختص له المسلمون[1].

وقوله: ﴿ **وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴿٣٧﴾ ﴾، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تُجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

٣- أحب البلاد إلى الله.

لقد وردت النصوص الشرعية المثبتة أن هذا البلد الحرام هو أفضل البلاد وأحبها عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، فعن عبدالله بن عديٍّ رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على الحزورة فقال: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[2]. والحزورة: تل صغير.

«ولولا أني أخرجت منك»، أي: بأمر من الله «ما خرجت» فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يخرج منها حقيقة أو حكمًا وهو الضرورة الدينية أو الدنيوية.

٤- لا يدخلها الدجال.

لقد أكرم الله تعالى بلده الأمين مكة وبلد رسوله صلى الله عليه وسلم المدينة بأن لا يدخلها الدجال، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ**

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٦)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وصححه الشيخ الألباني في المشكاة (٢٧٢٥).

سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ، يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»[(١)].

٥- مأرز الإيمان.

ففي الحديث عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها**»[(٢)].

قال علي القاري: والمراد أن أهل الإيمان يفرون بإيمانهم إلى المدينة وقاية بها عليه أو لأنها وطنه الذي ظهر وقوي بها، وهذا إخبار عن آخر الزمان حين يقل الإسلام[(٣)].

٦- مضاعفة أجر الصلاة في المسجد الحرام.

فلما كان المسجد الحرام أول بيت وضع للناس، أكرم الله تعالى المصلين فيه بمضاعفة الصلوات فيه إلى أضعاف كثيرة، ففي الحديث عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨١).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٦).
(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري (١/ ٢٤٣).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (٤/ ١٤٦).

٧- تحريم الصيد وقطع الشجر وأخذ اللقطة في الحرم.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْقَتْلَ -أَوِ الْفِيلَ شَكَّ أَبُو عَبْدِ اللهِ- وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَلاَ وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي أَلاَ وَإِنَّهَا حَلَّتْ لي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلاَ وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ، لاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ، فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ، وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ الْقَتِيلِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥).

القطفة السابعة: المواقع المعظمة في البلد الحرام

أولاً: الكعبة.

وهي بيت الله الحرام في وسط المسجد الحرام، وله أحكام.

أ- لم يأذن الله تعالى لأحد بالطواف على بنيان غير الكعبة بيته الحرام، وجعل ذلك من أفضل الأعمال فأمر به في كتابه الكريم، فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[١].

وفي الحديث الذي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من طاف سبعًا فهو كعدل رقبة**»[٢].

ب- الكعبة قبلة المسلمين أحياء وأمواتًا.

قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٣].

ج- النهي عن استقبال الكعبة واستدبارها عند قضاء الحاجة.

ومن تعظيم حرمة الكعبة بيت الله الحرام نهى النبي ﷺ عن استقبال الكعبة وجهتها واستدبارها عند قضاء الحاجة، ففي الحديث عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا**»[٤].

---

(١) سورة الحج: آية (٢٩).
(٢) أخرجه النسائي (٢٩١٩)، وصححه الشيخ الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ١٠٢).
(٣) سورة البقرة: آية (١٤٤).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٤)، ومسلم (٢٦٤).

ثانيـًا: الحجر الأسود.

فبه يبدأ بالطواف، فالحجر الأسود من الجنة، فجاء في الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ**»[1].

يقول شراح الحديث: أن الحجر لما فيه من الشرف والكرامة واليمن والبركة شارك جواهر الجنة فكأنه نزل منها وأن خطايا بني آدم تكاد تؤثر في الجماد فتجعل المبيض منه أسود فكيف بقلوبهم أو لأنه من حيث أنه مكفر للخطايا محاء للذنوب كأنه من الجنة ومن كثرة تحمله أوزار بني آدم صار كأنه ذو بياض شديد فسودته الخطايا ومما يؤيد هذا أنه كان فيه نقط بيض ثم لا زال السواد يتراكم عليها حتى عمها[2].

فيسن تقبيله واستلامه، ففي الحديث عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله[3].

وعن أَسلم قال: رأَيتُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبَّلَ الْحَجَرَ وَقَالَ لَوْلاَ أَنِّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ[4].

فجاء في الحديث: «إن مسحهما يحطان الخطيئة»[5].

(١) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦١٨).
(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٩٠)، وتحفة الأحوذي (٣/ ٥٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٦١١).
(٤) أخرجه البخاري (١٦١٠).
(٥) أخرجه النسائي (٢٩١٩)، وصححه الشيخ الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ١٢٠).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَأْتِي هَذَا الْحَجَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ»**(١).

ثالثـًا: الركن اليماني.

وهو ركن الكعبة الغربي الجنوبي: والسنة استلامه دون تقبيله، فعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: لم أرى رسول الله ﷺ يمسح من البيت إلا الركنين اليمانيين(٢).

رابعـًا: الملتزم.

وهو مكان الالتزام من الكعبة، وحده فيما بين بابها والحجر الأسود كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه قال: هذا الملتزم بين الركن والباب(٣).

عن محمد بن عبدالله بن عمرو قال: طُفْتُ مَعَ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ السَّبْعِ رَكَعْنَا فِي دُبُرِ الْكَعْبَةِ فَقُلْتُ أَلَا نَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْ النَّارِ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ النَّارِ قَالَ ثُمَّ مَضَى فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ ثُمَّ قَامَ بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْبَابِ فَأَلْصَقَ صَدْرَهُ وَيَدَيْهِ وَخَدَّهُ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن أَحبَّ أَن يأتي الملتزم وهو ما بين الحجر الأَسود والباب فيضعُ عليه صدرهُ ووجههُ وذراعَيهِ وكَفَّيهِ ويدعُوَ ويسأَلَ الله تعالى حاجَتَهُ فَعَلَ ذلك وله أَن يفعل ذلك قبل طواف الوداع فإِنَّ هذا الالتزامُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٦١)، وابن ماجه (٢٩٤٤)، وأحمد (٢٢١٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في المشكاة (٢٥٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٢٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٦).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٦٢)، وحسنه الشيخ الألباني.

لا فرق بين أَن يكون حال الوداعِ أَو غيره والصَّحابَةُ كانُوا يفعلُون ذلك حين يدخُلُونَ مكَّةَ»[١].

خامسًا: الحِجر.

وهو الجزء الواقع شمال الكعبة على شكل نصف دائرة، وهو جزء من الكعبة، وذلك أن قريشًا حين بنت الكعبة قصرت بها النفقة، ولم يحصل البناء على قواعد إبراهيم كاملة، وحجرت على مواضع أساس إبراهيم، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: «**إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه**»، فأراها قريبًا من سبعة أذرع[٢].

والصلاة فيه كالصلاة داخل الكعبة لأنه جزء منها، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني في الحجر فقال: «**صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت، فإن قومك اقتصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت**»[٣].

ومن الإخطاء الشائعة تسميته، بـ(حجر إسماعيل) فهذه التسمية غير صحيحة، وأكبر منها ظن بعض العوام أن إسماعيل عليه السلام مدفون فيه، أو غيره من الأنبياء.

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٦/ ١٤٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٣)، (٤٠٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٢٨)، والترمذي (٨٧٦)، وقال: «حسن صحيح».

سادسًا: مقام إبراهيم عليه السلام.

عن ابن عباس رضي الله عنه في الحديث الطويل ثم قال: فجعلَ إسماعيلُ يأتي بِالحجارةِ، وإبراهيمُ يبنِي، حتَّى إذا ارتفعَ البناءُ جاءَ بهذَا الحجرِ فوضعهُ لهُ، فقامَ عليهِ وهوَ يبنِي، وإسماعيلُ يناولُهُ الحجارَةَ، وهُمَا يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾[1].

ومما ورد في فضل المقام ما يلي:

أ- أمر الله باتخاذه مصلى لمن طاف بيته الحرام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2].

والصلاة خلف المقام بعد الطواف سنة رسول الله ﷺ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قَدِمَ النَّبي ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، وَطَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[3].

ب- المقام مكان نداء إبراهيم بالحج.

إن من فضيلة مقام إبراهيم عليه السلام أن إبراهيم الخليل بعد أن أتم بناء البيت أمره ربه عز وجل أن يؤذن في الناس بالحج، ليفدوا إلى البيت ربهم ملبين بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾[4]، فقام خليل الرحمن على المقام، وأذن في الناس كما أمره الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة: آية (١٢٧).
أخرجه البخاري (٣٣٦٤).
(٢) سورة البقرة: آية (١٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٥)، ومسلم (١٢٣٤)، (١٨٩).
(٤) سورة الحج: آية (٢٧).

سابعـًا: زمزم.

عن ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِي ﷺ: فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ -أي: أم إسماعيل- سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَه. تُرِيدَ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هي بِالْمَلَك، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ -أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ- حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهْوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاس قَالَ النَّبِي ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**». قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا[1].

ولقد وردت النصوص الشرعية الدالة على فضل هذا الماء المبارك، ومن ذلك:

أ- غسل صدر النبي ﷺ بماء زمزم.

أخرج البخاري من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا... الحديث**»[2].

ب- زمزم طعام طعم وشفاء سقم.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، (٢٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٩٨رقم١١١٦٧)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٥٦).

ثامنًا: عرفات، منى، مزدلفة.

من المواقع المعظمة في البلد الحرام وحوله المناسك المكانية التي أمر الشرع بقصدها في أداء فريضة الحج، وهي: «عرفات، منى، مزدلفة» إلا أن عرفة ليست من الحرم، وقد جاءت النصوص الشرعية الكثيرة التي تذكر هذه المواقع أو تشير إليها مبينة فضلها، وما يشرع فيها من الأعمال والعبادات والمناسك، ومن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩ ﴾[١].

ففي هذه الآيات تصريح بذكر عرفات وإشارة إليها في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ وفيها إشارة إلى مزدلفة في قوله: ﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣ ﴾[٢]، وهي أيام التشريق بمنى.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**كل عرفة موقف وكل منى منحر وكل المزدلفة موقف وكل فجاج مكة طريق ومنحر**»[٣].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٩٨-١٩٩).
(٢) سورة البقرة: آية (٢٠٣).
(٣) أخرجه أبو داود (١٩٣٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٢٢٥).

القطفة الثامنة: البعثة المحمدية

أولاً: مقدمات الوحي.

رسولنا ﷺ يقترب سنه من الأربعين سنة، وكان قبل أن يبعث حصلت له عدة أمور:

١- يسلم عليه الحجر والشجر والجبال.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[١].

وعن علي رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله[٢].

٢- حب الخلوة والعزلة والانفراد والتعبد لله سبحانه.

لما يراه من قومه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، فكان رسول الله ﷺ يخلو في غار حراء، ولا نعلم كيف كان تعبده في حراء قبل البعثة، ولا نعلم متى حبب إليه الخلاء بالغار على وجه التحديد، ولكن ذلك كان قبيل البعثة، كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٢٣٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٥٦)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وصححه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، (٢٥٢).

٣- الرؤيا الصالحة في النوم.

ففي الحديث عن عائشة أُمِّ المؤمنين أنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فكان لا يرى رُؤْيَا إلاَّ جاءتْ مثل فَلَقِ الصُّبْحِ[١].
أي جاءت مجيئًا مثل فلق الصبح، والمراد بفلق الصبح: ضياؤه.

ورؤيا الأنبياء وحي، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[٢].

وأما رؤيا المؤمن، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَنَا أَقُولُ هَذِهِ قَالَ وَكَانَ يُقَالُ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ حَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ، وَبُشْرَى مِنَ الله، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلا يَقُصُّهُ عَلَى أَحَدٍ، وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ. قَالَ وَكَانَ يُكْرَهُ الْغُلُّ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ يُعْجِبُهُمُ الْقَيْدُ، وَيُقَالُ الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، (٢٥٢).
(٢) سورة الصافات: آية (١٠٠-١١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠١٧).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن أن تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا والرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله والرؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس»(١).

فرؤيا المؤمن أما أن تكون بشرى من الله، وإما أن تكون عتابـًا، وإما أن تكون تحذيراً.

ثانيـًا: متى بعث؟

بعث رسول الله ﷺ وعمره أربعون سنة، وقد شذت رواية تفيد أن عمره ثلاث وأربعون، ولكنها رواية مرسلة عن الشعبي، والمرسل لا يصلح للاحتجاج به لإرساله، وتفرده، ثم أنه مخالف لما جاء في صحيح البخاري، فعن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ(٢).

ونزل الوحي على رسولنا ﷺ أول ما نزل يوم الأثنين، فقد سئل ﷺ عن صوم الأثنين فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم أنزل عليّ فيه**»(٣).

في شهر رمضان، فعن واثلة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع عشرة خلت من رمضان**»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠١٩)، والترمذي (٢٢٧٠)، وأحمد (١٠٥٩٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٢).
(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢).
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥رقم١٨٥).

ثالثًا: كيف جاءه الوحي؟

تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تتمة الحديث: فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ﴾»[(١)]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي».

فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ -وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِي، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ- فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِى نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

---

(١) سورة العلق: آية (١-٣).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**أَوَ مُخْرِجِي هُمْ**».

قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ[١].

وأما قول جبريل: (اقرأ)، فقال: «ما أنا بقارئ» فالصحيح أن قوله: «ما أنا بقارئ» نفي أي: لست ممن يحسن القراءة، وممن رجحه النووي وقبله الشيخ أبو شامة.

ومن قال: إنها استفهامية. فقوله بعيد لأن الباء لا تزاد في الإثبات.

وقوله: «حتى بلغ مني الجهد»: يروى بضم الجيم وفتحها وبالنصب وبالرفع وفعل به ثلاثـًا، قال الخطابي: «ليبلوا صبره ويحسن تأديبه فيرتاض لاحتمال ما كلفه به من أعباء النبوة»[٢]، ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم وتأخذه.

وقال غيره: إنما فعل ذلك لأمور: منها: أن يستيقظ لعظمة ما يلقى إليه بعد هذا الصنيع المشق على النفوس كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾[٣]، ولهذا كان ﷺ إذا جاءه الوحي يحمر وجهه ويغط، ويتفصد جبينه عرقـًا في اليوم الشديد البرد.

وقوله: «لقد خشيت على نفسي» وذلك لأنه شاهد أمراً لم يعهده قبل ذلك ولا كان في خلده ولهذا قالت خديجة: كلا أبشر والله لا يخزيك الله أبداً. قيل: من الخزي، وقيل: من الحزن وهذا لعلمها بما أجرى الله به جميل العوائد في خلقه أن من كان متصفـًا بصفات الخير لا يخزى في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، (٢٥٢).
(٢) أعلام الحديث، الخطابي (١/ ١٢٢).
(٣) سورة المزمل: آية (٥).

ثم ذكرت له من صفاته الجليلة ما كان من سجاياه الحسنة. فقالت: (إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث). وقد كان مشهوراً بذلك صلوات الله وسلامه عليه عند الموافق والمفارق.

(وتحمل الكل) أي: عن غيرك تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤونة عياله.

(وتكسب المعدوم) أي: تسبق إلى فعل الخير فتبادر إلى إعطاء الفقير فتكسب حسنته قبل غيرك ويسمى الفقير معدوماً لأن حياته ناقصة فوجوده وعدمه سواء.

(وتقري الضيف) أي: تكرمه في تقديم قراه وإحسان مأواه.

(وتعين على نوائب الحق) أي: إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها وقمت مع صاحبها حتى يجد سداداً من عيش أو قواماً من عيش.

وقوله: (ثم لم ينشب ورقة أن توفي) أي: توفي بعد هذه القصة بقليل رحمه الله ورضي عنه فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد وإيمان بما حصل من الوحي ونية صالحة للمستقبل.

عن عائشة: أن خديجة سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل؟ فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٦٧)، حسنه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (٩٣).

القطفة التاسعة: مرحلة الدعوة إلى الله (١)

مرحلة الدعوة السرية:

أولاً: بماذا جاء الوحي؟

بعد أن عرفنا كيف جاءه الوحي وكيف كان موقفه ﷺ وأن الأمر كان عظيم وكبير، فرجع بها إلى زوجه، وفتر الوحي: أي تأخر مدة من الزمان، ولا يعلم على وجه التحديد كم دامت مدة انقطاع الوحي، ولكن جاء عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً[١].

وتأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ليذهب عنه ما كان وجده من الروع وليحصل له التشوق إلى العود، فلما حصل له ذلك، وأخذ يترقب مجيء الوحي، جاءه جبريل للمرة الثانية، فعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْىِ فَقَالَ في حَدِيثِهِ «**بَيْنَا أَنَا أَمْشِى إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِى فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾[٢]، **فَحَمِىَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ**»[٣].

أي: حمي الوحي وتتابع في النزول على رسول الله ﷺ.

المرة الأولى جاء الوحي بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣﴾[٤]، ثبتت النبوة لرسولنا ﷺ.

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٢٦).
(٢) سورة المدثر: آية (١-٥).
(٣) أخرجه البخاري (٤).
(٤) سورة العلق: آية (١-٣).

والمرة الثانية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ ﴾ ثبتت الرسالة لرسولنا ﷺ.

ثانيـًا: بماذا بدأ رسولنا بالدعوة إلى الله؟

وهنا أسئلة تدور في الذهن:

من أين يبدأ رسول الله ﷺ دعوته؟

وكيف يبدأ رسول الله ﷺ دعوته؟

وإلام يدعو رسول الله ﷺ الناس؟

هل يبدأ رسول الله ﷺ دعوته بقلب نظام الحكم في مكة ثم بعد ذلك يدعو الناس إلى الله تعالى.

أم يبدأ بالبحث عن الوصول إلى المناصب العليا في مكة ثم يقوم من خلالها بدعوة الناس إلى الله تعالى؟ أو أنه يحاول أن يسيطر على اقتصاد مكة ليستطيع من خلاله أن يدعو الناس إلى الله تعالى؟ أم يبدأ بتحريض الناس على ولاة الأمر؟

الجواب: بدأ رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد، والتحذير من الشرك كما بدأ الأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1].

هذا على وجه الإجمال أما على وجه التفصيل فقد جاء جميع الأنبياء بهذا فهذا هود عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: آية (٣٦).

(٢) سورة هود: آية (٥٠).

وقال تعالى في صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[1].

وقال تعالى في شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[2].

فعلى الدعاة أن يدعو الناس إلى عبادة الله وإلى عقيدة التوحيد كما بدأ رسول الله ﷺ فكثير من الناس يصلي وهو يشرك بالله، وكثير من الناس يصلي وهو يذهب إلى السحرة والمشعوذين، وكثير من الناس يصلي وهو يخاف ويعتقد أن السحرة والمشعوذين يضرون وينفعون وهذا شرك.

وعلى الداعية أن يكون قدوة أمام الناس، فيعمل بهذا العلم، ويتأسى برسول الله ﷺ وأن يخلص لله تعالى، ولا يطلب الأجر من الناس، فأجره على الله تعالى، وأن يبدأ بما بدأ رسول الله ﷺ بالعقيدة والتوحيد.

فالله سبحانه لم يخلق الخلق إلا لعبادته وأن يفردوه بالعبادة، فتوحيد الله تعالى بالعبادة فيها الأمن والهداية، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ. إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[4]»[5].

---

(١) سورة هود: آية (٦١).
(٢) سورة هود: آية (٨٤).
(٣) سورة الأنعام: آية (٨٢).
(٤) سورة لقمان: آية (١٣).
(٥) أخرجه البخاري (٦٩٣٧).

ثالثًا: هل الدعوة إلى الله توقيفية أم اجتهادية؟

معنى توقيفية أي: لا يحل لأحد الزيادة على ما ثبت عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام فيها.

أم أنها اجتهادية أي: موكولة إلى نظر الداعي يزيد فيها ما يراه مناسبًا لزمانه ومكانه في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة بالدعوة.

فالدعوة إلى الله تعالى عبادة عظيمة أمر الله بها وحث عليها، وجعل أهلها احسن الناس قولاً، وأفضلهم عملاً فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[١].

فإذا علم العبد أن الدعوة إلى الله عبادة: فإن قبول أي: عبادة لله تعالى يتوقف على اجتماع أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص لله تعالى.

الأمر الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

والعمل الجامع لهذين الأمرين: هو العمل الصالح، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[٢].

قال الفضيل بن عياض: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[٣] أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟.

---

(١) سورة فصلت: آية (٣٣).

(٢) سورة الكهف: آية (١١٠).

(٣) سورة الملك: آية (٢).

قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً».

فالاعتصام بالمتابعة نجاة، فقد تكفل الله تعالى لمن تمسك بالكتاب ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

فالدليل على أن وسائل الدعوة توقيفية:

١- أن الله تعالى أكمل الدين، وأتمّ نعمته على عباده، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

قال الإمام مالك: «من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3].

٢- أن الله تعالى أوجب طاعة الرسول ﷺ، وعلق سعادة العبد بها، ونهى عن معصيته، ورتب شقاوة العبد عليها.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[4].

ما من نبي أرسل إلى قومه إلا قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، فبدأ رسولنا ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك،

(١) سورة طه: آية (١٢٣).
(٢) سورة المائدة: آية (٣).
(٣) الاعتصام، الشاطبي (٢/ ٣٢٠).
(٤) سورة النساء: آية (٦٩).

وكانت الدعوة سراً، فآمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد، واستمر على مخالفته كل جبار عنيد، فكان أول من بادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الغلمان علي بن أبي طالب، ومن النساء خديجة بنت خويلد زوجته، ومن الموالي مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنهم.

وممن أسلم من الأوائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فعنه: أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا.

قال: مكثت ثلاثـًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآ ﴾[1].

والحادثة تدل على صلابة موقف المؤمنين الأوائل أمام الفتن المتنوعة التي تعرضوا لها.

(١) سورة العنكبوت: آية (٨).
أخرجه مسلم (١٧٤٨).

القطفة العاشرة: مرحلة الدعوة إلى الله (٢)

الدعوة الجهرية:

ويرجع سبب الانحراف في السيرة النبوية إلى أمرين:

الأول: عدم أخذهم واستدلالهم بالسيرة النبوية.

الثاني: والذين أخذوا بها كانوا على قسمين:

القسم الأول: أخذوا الصحيح والضعيف ولم ينظرون في أسانيدها.

والقسم الثاني: عدم فهم السيرة فهماً صحيحاً.

أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس في مكة إلى الله سراً، لا يصطدم بكفار مكة ولا يتدخل في آلهتهم.

ومن هذه الأمثلة: إسلام عمرو بن عنبسة السلمي، يقول: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جراء[1] عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت؟ قال أنا نبي فقلت وما نبي؟

قال أرسلني الله فقلت وبأي شيء أرسلك؟ قال أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء قلت له فمن معك على هذا؟ قال حر وعبد -قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به- فقلت إني متبعك قال إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس؟

---

(١) قال النوويّ: هكذا هو في جميع الأصول «جُرَآء» بالجيم المضمومة، جمع جَرِيء بالهمز من الجرأة، وهي الإقدام والتسلّط، وهذا هو سرّ استخفائه. شرح صحيح مسلم (٦/ ١١٥).

ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني قال فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار واسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم على نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك[١].

أما اليوم فكثير من الجماعات التي سلكت طريقاً غير طريق المصطفى ﷺ يبدأون دعوتهم المنحرفة سراً ويظنون أنهم بذلك يتأسون برسول الله ﷺ.

نقول لهم: لا، أنتم تعيشون في مجتمع مسلم تستطيعون أن تقولوا: «لا إله إلا الله» وتحافظون على الصلاة، وتعلموا الناس دينهم، وتدعون الناس إلى التوحيد لا يمنعكم أحد من ذلك.

ثم بدأت الدعوة الجهرية، فعن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[٢] صَعِدَ النَّبِي ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِى: «يَا بَنِى فِهْرٍ، يَا بَنِى عَدِىٍّ».

لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ». قَالُوا نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢)، (٢٩٤).
(٢) سورة الشعراء: آية (٢١٤).
(٣) سورة المسد: آية (١-٢).
أخرجه البخاري (٤٧٧٠).

والتب هو: الهلاك والخسران.

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِالْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالي لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[١].

فهذه الدعوة جهرية من رسول الله ﷺ للجميع أن يؤمنوا بالله تبارك وتعالى وحده.

ومضى رسولنا ﷺ يبلغ رسالة ربه جهراً، وأخذ ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله في كل مكان، وبدأ يجهر بصلاته وقراءة القرآن أمام الكفار، وأخذ الضعفاء والمساكين يؤمنون بالله تعالى ويتبعون رسول الله ﷺ على هذا الدين الذي بعثه الله به، وأخذوا يزدادون يوماً بعد يوم.

فلا مجال للسرية والكتمان والخفاء في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بعد أن أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»[٢].

كيف لا والله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[٣].

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣).
(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٥١).
(٣) سورة يوسف: آية (١٠٨).

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ كذلك يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره.

وممن أسلم في مرحلة الدعوة الجهرية في مكة أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على ما سيأتي.

اجتمع كفار مكة من أجل التشاور في كيفية صرف الناس عن هذا الدين الجديد، وفي كيفية صرف محمد ﷺ نفسه عن هذه الدعوة الجديدة، فمرة يسخروا ويستهزؤون، ومرة يثيرون الشكوك والشبهات، ومرة يتهمونه بالسحر والكذب والشعر والكهانة، ومرة يتهمونه بأنه مجنون.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن ضماداً قدم مكة كان من أزد شنوءة[١] وكان يرقي من هذه الريح فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد**».

قال: فقال أعد علي كلماتك هؤلاء فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلمات هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، قال: فقال هات يدك

(١) شنوءة: قبيلة معروفة قال الجوهري الشنوءة التفزز وهو التباعد من الأدناس ومنه أزد شنوءة وهم حي من اليمن. شرح صحيح مسلم، النووي (٢/ ٢٢٦).

أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي، قال فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال: صاحب السرية للجيش هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال: رجل من القوم أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد[١].

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨).

القطفة الحادية عشرة: إسلام أبي ذر والطفيل

أولاً: إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

عن عبدالله بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أنيس وأمنا، فنزلنا على خال لنا، فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومه فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس، فجاء خالنا فنثا علينا الذي قيل له، فقلت: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته، ولا جماع لك فيما بعد، فقربنا صرمتنا، فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا ثوبه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها، فأتيا الكاهن، فخير أنيسا، فأتانا أنيس بصرمتنا ومثلها معها.

قال: وقد صليت، يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، قلت: لمن؟

قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء، حتى تعلوني الشمس.

فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني، فانطلق أنيس حتى أتى مكة، فراث علي، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟

قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء.

قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي، أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

قال: قلت: فاكفني حتى أذهب فأنظر، قال فأتيت مكة فتضعفت رجلا منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟

فأشار إلي، فقال: الصابئ، فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم، حتى خررت مغشيا علي، قال: فارتفعت حين ارتفعت، كأني نصب أحمر[١]، قال: فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء: وشربت من مائها، ولقد لبثت، يا ابن أخي ثلاثين، بين ليلة ويوم، ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكن بطني[٢]، وما وجدت على كبدي سخفة جوع.

قال فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إضحيان[٣]، إذ ضرب على أسمختهم[٤]، فما يطوف بالبيت أحد. وامرأتان منهم تدعوان إسافا، ونائلة، قال: فأتتا علي في طوافهما فقلت: أنكحا أحدهما الأخرى، قال: فما تناهتا عن قولهما قال: فأتتا علي فقلت: هن مثل الخشبة[٥]، غير أني لا أكني فانطلقتا تولولان، وتقولان: لو كان هاهنا أحد من أنفارنا قال فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر، وهما هابطان، قال: «ما لكما؟» قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها، قال: «ما قال لكما؟» قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأ الفم.

وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت هو وصاحبه.

ثم صلى فلما قضى صلاته -قال أبو ذر- فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام، قال فقلت: السلام عليك يا رسول الله فقال: «وعليك ورحمة الله».

---

(١) يعني من كثرة الدماء التي سالت مني بضربهم.

(٢) جمع عكنة وهو الطي في البطن من السمن معنى تكسرت أي انثنت وانطوت طاقات لحم بطنه.

(٣) أي مضيئة منورة يقال ليلة إضحيان وإضحيانة وضحياء ويوم أضحيان.

(٤) وهو الخرق الذي في الأذن يفضي إلى الرأس يقال صماخ.

(٥) أراد بذلك سب إساف ونائلة وغيظ الكفار بذلك.

ثم قال «من أنت؟» قال قلت: من غفار، قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار، فذهبت آخذ بيده، فقدعني صاحبه[١]، وكان أعلم به مني، ثم رفع رأسه.

ثم قال: «متى كنت هاهنا؟» قال قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم، قال: «فمن كان يطعمك؟» قال قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما أجد على كبدي سخفة جوع، قال: «إنها مباركة، إنها طعام طعم» فقال أبو بكر: يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلة، فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر بابـًا، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف وكان ذلك أول طعام أكلته بها.

ثم غبرت ما غبرت، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فقال: «إنه قد وجهت لي أرض ذات نخل، لا أراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك؟ عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم» فأتيت أنيسا فقال: ما صنعت؟

قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدقت، قال: ما بي رغبة عن دينك، فإني قد أسلمت وصدقت، فأتينا أمنا، فقالت: ما بي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدقت، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا، فأسلم نصفهم وكان يؤمهم أيماء بن رحضة الغفاري وكان سيدهم.

وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفهم الباقي وجاءت أسلم، فقالوا: يا رسول الله إخوتنا، نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»[٢].

---

(١) أي كفني يقال قدعه وأقدعه إذا كفه ومنعه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧٣).

ثانيـًا: إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان سيداً مطاعـًا شريفـًا في دوس، وكان قد قدم مكة فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه.

قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفـًا فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله.

قال: فسمعت كلامـًا حسنـًا، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا. للذي قالوا.

قال: فو الله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولا حسنا، فاعرض علي أمرك. قال: فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه.

قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم إليه.

قال فقال: اللهم اجعل له آية. قال فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع بين عيني نور مثل المصباح.

قال: فقلت: اللهم في غير وجهى فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي.

قال: فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في رأس سوطي كالقنديل المعلق وأنا أنهبط عليهم من الثنية، حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخا كبيرا، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني. قال: ولم يا بني؟ قال: قلت أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ. قال: إي بنى فدينك دينى. فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني. قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي. قال: قلت: فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ. قالت: فدينى دينك. قال: فقلت فاذهبي إلى حمى ذي الشرى فتطهري منه.

وكان ذو الشرى صنماً لدوس، وكان الحمى حمى حموه حوله، به وشل من ماء يهبط من جبل. قالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ قلت: لا، أنا ضامن لذلك. قال: فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.

ثم دعوت دوسـاً إلى الاسلام فأبطأوا علي، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة. فقلت: يا رسول الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم.

قال: «اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»[١].

قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس، فلحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين[٢].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٢٣٨).
وفي البخاري (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤): «اللهم اهد دوسـاً وائت بهم».
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٢/ ٧٢-٧٤).

القطفة الثانية عشرة: أذى المشركين لرسول الله ﷺ

أخذ رسولنا ﷺ في مكة يدعو الناس إلى دين الله تعالى، وإلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، فاجتمع كفار قريش للتشاور في كيفية صرف الناس عن هذا الدين الجديد، فانتقل كفار قريش إلى أسلوب جديد ألا وهو الاعتداء على رسول الله ﷺ بالقول والسب والشتم والفعل والقتل.

أولاً: فمن تلك الصور التي أتبعتها قريش في أذية رسولنا.

١- الشتم والسب.

عن ربيعةُ بن عباد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأَيت النبي ﷺ في الجاهلية فِي سُوقِ ذِي المجاز وهو يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا لِي هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[1].

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول: مذممٌ أبينا ودينه قَلَينا وأمره عصينا، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنـًا ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله: قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال وقرأ: ﴿ وَإِذَا

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٠٤)، والحديث حسن. انظر: صحيح السيرة النبوية، الشيخ الألباني ص (١٤٣).

قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾(١)، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال لا ورب هذا البيت ما هجاك، قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها(٢).

وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً، فعن أَبِى هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلاَ تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ**»(٣).

٢- أذاهم لرسولنا ﷺ بالفعل.

عن عبدالله بن مسعود ﵁ قال بينما رسول اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلاَنٍ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاَهَا فَيَجِيءُ بِهِ.

ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ ﵂ وَهْي جُوَيْرِيَةٌ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ.

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلاَةَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ -ثُمَّ سَمَّى- اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ**

---

(١) سورة الإسراء: آية (٤٥).

(٢) أخرجه الحميدي (٣٢٣)، وأبو يعلى (٥٣)، والحاكم (٢/ ٣٦١)، وصححه، والحديث حسن لشواهده.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٣).

رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ».

قَالَ عَبْدُاللهِ: فَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً**»[1].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الفرث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة رسولنا ﷺ، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة.

عن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ قَالَ فَقِيلَ نَعَمْ. فَقَالَ وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ -قَالَ- فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّى زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ -قَالَ- فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ -قَالَ- فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ، فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِى وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**».

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لاَ نَدْرِى فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَىْءٌ بَلَغَهُ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾[2] -يَعْنِى أَبَا جَهْلٍ- ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٠).
(٢) سورة العلق: آية (٦-١٣).
(٣) سورة العلق: آية (١٤-١٩).
أخرجه مسلم (٢٧٩٧)، (٣٨).

لقد لقي رسولنا ﷺ من مشركي قريش أشد الأذى فهذا عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يقول: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ فَتَعَاهَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ قَالَ فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَبْكِي حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِيهَا.

فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِكَ فِي الْحِجْرِ قَدْ تَعَاهَدُوا أَنْ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ، قَالَ: يَا بُنَيَّةُ أَدْنِي وَضُوءًا فَتَوَضَّأَ.

ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا هُوَ هَذَا فَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ وَعُقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ رَجُلٌ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَحَصَبَهُمْ بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتْ الْوُجُوهُ»، قَالَ: فَمَا أَصَابَتْ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاةٌ إِلَّا قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا[2].

لقد حزن النبي ﷺ حزنـاً شديداً؛ لما يفعله كفار مكة من الاعتداءات عليه، فما كان الله تعالى ليتركه حزينـًا، بل أراه من الآيات وخوارق العادات ما ربط على قلبه وثبته.

---

(١) سورة غافر: آية (٢٨).
أخرجه البخاري (٣٨٥٦).
(٢) أخرجه أحمد (٣٤٨٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٢٤).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذات يوم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جالس حَزِينٌ قَدْ خُضِّبَ بِالدِّمَاءِ قَدْ ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: مَا لَكَ، قَالَ: «فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وَفَعَلُوا»، قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً، قَالَ: «نَعَمْ» أَرِنِي فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي قَالَ: ادْعُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: قُلْ لَهَا فَلْتَرْجِعْ، فَقَالَ لَهَا: فَرَجَعَتْ حَتَّى عَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبِي[1].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2].

(يوم العقبة) هو اليوم الذي وقف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند العقبة التي بمنى داعيـًا الناس إلى الإسلام فما أجابوه وآذوه وذلك اليوم صار معروفـًا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٨)، وأحمد (١٢١١٢)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(فلم أستفق إلا بقرن الثعالب) أي لم أفطن لنفسي وأنتبه لحالي وللموضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عمد قرن الثعالب لكثرة همي الذي كنت فيه.

(الأخشبين) هما: جبلا مكة أبو قبيس والجبل الذي يقابله.

الله أكبر، إنها أخلاق النبوة، إنه العفو والصفح، فهكذا يا عباد الله نتعلم من رسولنا ﷺ الصبر والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثانيـًا: هل بعث ﷺ للأنس أم للأنس والجن؟

فقد دل القرآن والسنة على أن النبي ﷺ بعث للإنس والجن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا مالكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة: (وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر).

فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ

يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف: آية (٢٩-٣٢).
أخرجه مسلم (٤٤٩)، (١٤٩).

القطفة الثالثة عشرة: اضطهاد قريش للمسلمين

اضطهد المشركون ممن أسلم مع نبينا ﷺ واتبعوا أساليب شتى لصدهم عن الإسلام.

أولاً: صور من تعذيب مشركي قريش للمسلمين.

فالمشركون لم يقتصر أذاهم على رسولنا، بل تصاعد إلى ذروة العنف وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين، وهو أسلوب جديد اتبعه مشركي قريش لصد أصحاب رسول الله ﷺ عن دينهم، فتعالوا بنا نسمع من أصحاب رسولنا كيف كان يتعامل معهم مشركي قريش.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال والمقداد.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد[١].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر فإنَّ موعدكم الجنَّة**»[٢].

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٣٨٣٢)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (١٥٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٠٨)، والحاكم (٥٦٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (١٥٤).

وعن خباب بن الأَرتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا له أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لنا أَلا تدعو الله لنا قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[١].

ولكن الله تعالى جعل لهذه الأمة الرخصة عند الإكراه قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[٢].

أن رسول الله ﷺ لقي عمار بن ياسر وهو يبكي فجعل يمسح الدموع عنه ويقول: «**أخذك المشركون فغطوك في الماء حتى قلت لهم كذا، إن عادوا فعد**»[٣].

ولا شك أن المسلمين على ضعفهم كانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا رسول الله إنا كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).
(٢) سورة النحل: آية (١٠٦).
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٢/ ٣١٢).
(٤) سورة النساء: آية (٧٧).
أخرجه النسائي (٣٠٨٦).

ثانيـًا: ما سبب الانتكاسات الحاصلة لهذه الأمة.

فالله سبحانه قد سلط علينا اليهود ولم نرجع إلى ديننا، ثم سلط علينا الصليبيون ولم نرجع إلى ديننا، ثم سلط علينا أخبث خلق الله تعالى أهل الشرك ولم نرجع إلى ديننا.

فاليهود والصليبيون والمشركون يفعلون بالمسلمين ما يشتهون من قتل وتهجير وسلب للأموال واستباحة الأعراض. وقد أخبر ﷺ عن حال الأمة الإسلامية قبل أكثر من ١٤٠٠ عامـًا، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[١].

قال الطيبي: ما يحمله السيل من زبد ووسخ شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم وخفة[٢].

ما نحن فيه هو عقوبة من الله سبحانه وتعالى: قال الفضيل بن عياض: أوحى الله إلى بعض الانبياء: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٥٨).
(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري (١٥/ ٣٠٩).
(٣) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص (٣١).

ثالثًا: متى ينتصر الإسلام على أعداءه؟

لقد جربنا كل شيء الحزبيات والقوميات والشعارات والتنظيمات والتجمعات والمظاهرات، وهذه كلها ليست من دين الله تعالى في شيء، وكل شيء إلا دين الله لم نطبقه ولم نرجع إلى هذا الدين الذي أكرم الله به هذه الأمة.

فالرجوع إلى دين الله فيه الرفعة والتمكين في الأرض، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»(٢).

متى يأتي هذا اليوم؟ متى ما رجعنا إلى ديننا، فالشجر والحجر؟ ماذا يقول: يا مسلم يا عبدالله، لم يقل يا نجدي، أو يا شامي، أو يا حجازي، ولكنه يقول: يا مسلم.

فمتى يرجع المسلمون إلى دينهم سخر الله الكون كله معهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٣)، فمتى رجعنا إلى ديننا حررنا المسجد الأقصى من إخوان القردة والخنازير، وحررنا أراضينا التي سلبت منا.

اليهود شعب مجرم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢٢)، (٨٢).
(٣) سورة المدثر: آية (٣١).

وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[١]، فقد وصل بهم الحال أن يتكلمون في الله سبحانه.

وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾[٢].

فمشركوا زماننا لا يقلون خطراً على المسلمين، بل أشد خطراً، ويشهد لهذا التاريخ، فهذا المعز الفاطمي باني القاهرة معد بن إسماعيل بن سعيد بن عبدالله أبو تميم المدعي أنه فاطمي، فلما كان في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وقد أحضر بين يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقي أبو بكر النابلسي، فقال له المعز: بلغني عنك أنك قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بسهم، فقال: ما قلت هذا، فظن أنه رجع عن قوله فقال: كيف قلت؟ قال: قلت ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرميهم بالعاشر.

قال: ولم؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة وقتلتم الصالحين وأطفأتم نور الالهية، وادعيتم ما ليس لكم.

فأمر بإشهاره في أول يوم ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضرباً شديداً مبرحًا ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجئ بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات رحمه الله[٣].

---

(١) سورة المائدة: آية (٦٤).
(٢) سورة المائدة: آية (٨٢).
(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١١/ ٣٢٢).

وكذلك يفعلون بالمسلمين اليوم من قتل وتهجير وألوان من العذاب.

فقوة اليهود والمشركين في ضعفنا قوتهم في تفرقنا قوتهم في بعدنا عن ديننا.

القطفة الرابعة عشرة: لجوء قريش إلى المفاوضات وطلب المعجزات

بعد أن فشل كفار مكة في صد الناس عن دين الله بأساليب الاضطهاد والتعذيب، انتقلوا إلى أسلوب آخر، ألا وهو المفاوضات وطلب المعجزات.

أولاً: مفاوضة رسولنا ﷺ.

أرسال كفار قريش عتبة بن ربيعة لكي يتفاوض مع رسول الله ﷺ، فعن جابر بن عبدالله قال: قال أبو جهل والملأ من قريش لقد انتشر علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر، فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه فلما أتاه قال له عتبة: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبدالمطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فلم يجبه قال: فيم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾[1].

(١) سورة فصلت: آية (١-١٣).

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه فأتوه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة، ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً. قال: ولقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته فقص عليهم القصة: فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ حتى بلغ، فقال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال: شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[١].

ثانياً: محاولة ثانية مقاربة الأديان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يضعون مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجونه ما أراد من النساء ويطأون عقبه -أي: يسوده- فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بشر فإن بغضت فإنا نفرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح قال: وما هي، قال: تعبد إلهنا سنة اللات والعزى ونعبد إلهك سنة قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله عز وجل من اللوح المحفوظ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[٢].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥٠٨)، وانظر: صحيح السيرة النبوية، الألباني ص (١٥٩-١٦٢).

(٢) سورة الكافرون: آية (١-٦).

وأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

ثالثاً: المحاولة الثالثة: طلب المعجزات.

أخذ عناد المشركين يشتد، وقد أرادوا إخراج رسولنا وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: بل باب التوبة والرحمة[2].

فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾[3].

فطلبوا من رسولنا على أن يريهم آية، فلم يكن ذلك لكي أن يؤمنوا وإنما فعلوا ذلك حيلة واستكباراً، ودليل ذلك، فعن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ[4].

---

(١) سورة الزمر: آية (٦٤-٦٦).
أخرجه الطبراني في الصغير (٧٥١)، وانظر: صحيح السيرة النبوية، الألباني ص (٢٠٥-٢٠٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٨).
(٣) سورة الإسراء: آية (٥٩).
أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٩٠)، وأحمد (٢٣٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٨).
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

وعن عبدالله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْهَدُوا**»(١).

وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انشق القمر على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد فقال بعضهم لئن كان سحرانا ما يستطيع أني يسحر الناس كلهم(٢).

كيف ترجو الخير من أناس يقولون: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾(٣)، ولو كانوا صادقين لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

رابعـًا: محاولة رابعة.

ألا وهي الذهاب إلى عمه أبي طالب، فعن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا. فقال: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد، فانطلقت إليه فاستخرجته من كبس أو قال: من حفش يقول: بيت صغير فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم فحلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببصره إلى السماء، فقال: «**أترون هذه الشمس؟**» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة»، فقال أبو طالب: والله ما كذبت ابن أخي قط فارجعوا(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٩)، وصححه الشيخ الألباني.
(٣) سورة الأنفال: آية (٣٢).
(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٩٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (١٤٤).

والمعنى: ما أقدر أن أترك دين الله الذي أمرني بتبليغه كما أنكم لا تقدرون أن تأتوا من الشمس بشعلة تشتعلون بها.

فعلى المسلم أن لا يترك دعوته أبداً في مقابل عرض من أعراض الدنيا، فرسولنا عندما عُرض عليه المال والجاه والسلطان لم يناقشهم فيها، فهي أسقط وأذل من أن تناقش.

المساومة والمفاوضة لا تقبل أبداً في أخطر قضية، ألا وهي قضية التوحيد، فلا يجوز للإنسان أن يداهن في قضية التوحيد.

وعلى المسلم الثبات على دينه والرجوع إليه، فعلى المسلم أن يثبت في المحن والشدائد ولا يهتز أمام التهديدات والمساومات نعم ربما يتاثر المؤمن بالبلاء لكن هذا البلاء يزيد من نقائه صلابته في الحق ويرفع منزلته.

وقد كثر فينا قطع الأرحام فالأخ لا يتكلم مع أخيه ولا يكلم أخته، بل وصل الحال بعقوق الوالدين ومنهم من يضرب أباه وأمه، وأكل الحرام وأكل الربا ومال اليتيم، والذهاب إلى السحرة والمشعوذين، والجار ولا يكلم جاره كأننا نعيش في صحراء، فعَنْ أَبِى شُرَيْحٍ ﷺ أَنَّ النَّبِي ﷺ قال: «**وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ**». **قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ**: «**الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ**»[1].

ونرى كثيراً من المسلمين لا يصلون الصلاة المكتوبة في المساجد، ولا يصلون الفجر جماعة، بل ولا يصلونها إلا بعد شروق الشمس، فعَنْ عَبْدِاللهِ ﷺ قَالَ ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ **رَجُلٌ فَقِيلَ مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَقَالَ** «**بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ**»[2]. أن الشيطان استولى عليه واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول، إذ من عادة المستخف بالشيء أن يبول عليه.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦).
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤)، (٢٠٥).

القطفة الخامسة عشرة: مجادلة قريش لرسول الله ﷺ

سلك المشركون طريقة الجدال لدحض الحق، فمن تلك الأمور التي جادل فيها المشركون رسولنا ﷺ.

أولاً: عبادة غير الله تعالى.

قال ابن إسحاق: وجلس الرسول ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[(١)].

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزِّبَعْرَى السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم.

فقال عبدالله بن الزِّبَعْرَى: أما -والله- لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من يعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزِّبَعْرَى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ...

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[(٢)].

(١) سورة الأنبياء: آية (٩٨-١٠٠).
(٢) سورة الأنبياء: آية (١٠١-١٠٢).

أي: عيسى ابن مريم وعزيراً ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزِّبَعْرَى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2].

وهذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل فقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾: إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور ولا المسيح ولا عزيراً ولا أحداً من الصالحين لأن الآية لا تتناولهم لا لفظاً ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾. ثم قال: ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: عيسى؟ ﴿ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي: بنبوتنا؟ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أي: دليلاً على تمام قدرتنا على ما نشاء حيث خلقناه من أنثى بلا ذكر، وقد خلقنا حواء من ذكر بلا أنثى وخلقنا

---

(١) سورة الأنبياء: آية (٢٦-٢٩).
(٢) سورة الزخرف: آية (٥٧-٥٨).

آدم لا من هذا ولا من هذا وخلقنا سائر بني آدم من ذكر وأنثى كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[١]؛ أي: أمارة ودليلًا على قدرتنا الباهرة؟ ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ نرحم بها من نشاء[٢].

وهذا القياس الفاسد من قريش من تشبيه الأنبياء المكرمين بالأصنام المعبودة غير العاقلة اقتضى الرد عليه.

ثانيًا: البعث بعد الموت.

عندما دعا رسولنا ﷺ الناس إلى التوحيد وإفراد الله سبحانه بالعبادة، وإلى الإيمان بالبعث بعد الموت، أنكر المشركون ذلك، وجادلوا في عقيدة البعث فأكثروا فيها الجدل، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[٣].

قال ابن إسحاق: مشى أُبي بن خلف بعظم بال قد أرم.

فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم، ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ.

فقال: نعم! أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ثم يدخلك النار.

وأنزل الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ

---

(١) سورة مريم: آية (٢١).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص (١٩٨-١٩٩).

(٣) سورة المؤمنون: آية (٨٢).

لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

فذكر الله سبحانه وتعالى ستة أدلة على ذلك:

١- ﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور.

٢- ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ صفة من صفات اللّه تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء اللّه الموتى من قبورهم.

٣- ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما، فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

٤- ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم ﴾ أي: أن يعيدهم بأعيانهم. ﴿ بَلَىٰ ﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

---

(١) سورة يس: آية (٧٨-٨٣).
انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٦٨)، وصحيح السيرة النبوية، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص (٢٠١).

٥- ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

٦- ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ من غير امتراء ولا شك، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور[١].

لهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في الريح في البحر فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه به أحد قال ففعلوا ذلك به فقال للأرض أدي ما أخذت فإذا هو قائم فقال له ما حملك على ما صنعت؟ فقال خشيتك يا رب -أو قال- مخافتك فغفر له بذلك**»[٢].

فهو لم ينكر البعث، وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله[٣].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن السعدي ص (٧٤١-٧٤٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٤٣٥).

ثالثًا: الاحتجاج بالقدر.

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**».

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[1].

فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلا وشرعا. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال كان النَّبِي ﷺ في جَنازَةٍ فَأَخذَ شَيْئًا فَجعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**».

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: آية (١٤٨-١٤٩).
(٢) سورة الليل: آية (٥-١٠).
أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

رابعـًا: الروح.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالت قريش ليهود أعطونا شيئـًا نسأل هذا الرجل فقال: سلوه عن الروح قال فسألوه عن الروح فأنزل الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[(١)].

قالوا أوتينا علمـًا كثيراً التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فأنزلت: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[(٢)].

وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي ﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه[(٣)].

---

(١) سورة الإسراء: آية (٨٥).
(٢) سورة الكهف: آية (١٠٩).
أخرجه الترمذي (٣١٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٥٩٥).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن السعدي ص (٤٧٤).

القطفة السادسة عشرة: الهجرة إلى الحبشة

بعدما أن فشلت قريش في جميع الأساليب، لجأت مرةً أخرى إلى أسلوب الخنق والتضييق والاضطهاد والتعذيب للمسلمين، مما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

عن الحارث بن الفضيل قال: فخرجوا متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبيء رسول الله ﷺ وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً قالوا: وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذي ولا نسمع شيئا نكرهه[1].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**».

فخرجنا إليها أرسالاً -أي: أفواجًا- حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار وإلى خير جار، آمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلمـًا، فلما رأت قريش أنا قد أصبنا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٤)، وفي إسناده رجل مجهول.

داراً وأمنـاً، اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا هيئوا له هدية على حدة، قالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا، فقدما علينا فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته وكلموه، فقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل فقالوا: نفعل.

ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم -وهو ما يؤكل مع الخبز أي شيء كان-، فلما ادخلوا عليه هداياه قالوا له: أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلاهم عينا، فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عينا. فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب، ثم قال: لا لعمرو الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظر ما أمرهم.

قوم لجئوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم ولم أنعمهم عينا.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم، فلما جاءهم رسول النجاشي،

اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول؟ نقول والله ما نعرف، وما نحن عليه من أمر ديننا وما جاءنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية، ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال: جعفر أيها الملك: «كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء، وغيرها، لا نحل شيئاً، ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره».

قال: فقال: فهل معك شيء مما جاء به، وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلم فاتل علي ما جاء به.

فقرأ عليه صدراً من كهيعص: ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ

ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ ﴾[(١)]، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينا.

نعم هذا القلب لا يكون فيه كلمان إما كلام الرحمن وكلام الشيطان لا يمكن، هذا الكتاب الذي فيه السعادة في الدنيا والآخرة وفيه الشفاء من السقام والأمراض، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾[(٢)].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات.

فبعد أن تركنا ديننا في بلادنا المسلمة وعرضنا أنفسنا إلى المخاطر ذهبنا نلوذ ببلاد الغرب ونطلب منهم اللجوء والعف والرحمة وهم سبب لخراب بلادننا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾[(٣)].

فيجب على العبد المسلم أن يهاجر من البلد التي لم يتمكن فيها من عبادة ربه، إلى بلد آخر يتمكن فيها من عبادة ربه، فقد هاجر أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة عندما ضيق عليهم إلى الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، وقد هاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق من مكة وهي أفضل بلاد الله ليتمكن هو وأصحابه من عبادة الله تعالى.

---

(١) سورة مريم: آية (١-١١).
(٢) سورة لقمان: آية (٦).
(٣) سورة هود: آية (١١٣).

عن نافع قال سمع ابن عمر مزماراً قال: فوضع اصبعيه على اذنيه ونأى عن الطريق وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئًا قال فقلت: لا قال: فرفع اصبعيه من اذنيه، وقال: كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا[1].

فخرجنا من عنده وكان أبقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم -أي: سوادهم- فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى ابن مريم عبد فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحمًا ولهم حق. فقال: والله لأفعلن.

فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما، فأرسل إليهم فاسألهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مثلها فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى؟ إن هو سألكم عنه، فقال: نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه.

فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول: عبدالله، ورسوله، وكلمته، وروحه، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فدلى النجاشي يده إلى الأرض وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا -أي: ما تجاوز- عيسى ابن مريم ما قلت هذا العويد، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن تناخرتم والله.

اذهبوا فأنتم سيوم -أي: الآمنون- في أرضي من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم -ثلاثـًا- ما أحب أن لي دبرا وأني آذيت رجلاً منكم،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤)، وصححه الشيخ الألباني.

والدبر بلسانهم الذهب، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها فاخرجا من بلادي، فرجعا مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به. فأقمنا مع خير جار وفي خير دار[١].

أن من صدق نجا فعندما صدق جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه مع النجاشي ولم يكتموا شيئًا من عقيدتهم، فكانت العاقبة أحسن العواقب وأحمدها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[٢].

وقد روى الصحابة أعاجيب ما رأوا في الحبشة، فعن جابر قال لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ قَالَ: «**أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ**».

قَالَ: فِتْيَةٌ مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتْ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَدَقَتْ صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٩٦)، والحديث حسن، وانظر: صحيح السيرة النبوية، الألباني ص (١٧٠)، والصحيحة (٣١٩٠).
(٢) سورة التوبة: آية (١١٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠)، وابن حبان (٥٠٥٨)، وحسنه الشيخ الألباني في مختصر العلو.

تحريم الظلم: فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**»[١].

وعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[٣].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟**». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).
(٣) سورة إبراهيم: آية (٤٢-٤٤).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

القطفة السابعة عشرة: نصرة أبي طالب للنبي ﷺ

وأما أبو طالب فكان في غاية الشفقة والحنو الطبيعي كما سيظهر من صنائعه وسجاياه، واعتماده فيما يحامي به عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

قال عقيل بن أبي طالب: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد.

فانطلقت فاستخرجته من كنس، أو قال خنس، يقول: بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر.

فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء.

فقال: «ترون هذه الشمس؟» قالوا نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة». فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا[١].

ثم قال أبو طالب في ذلك:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فامضي لأمرك ما عليك غضاضة أبشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي فلقد صدقت وكنت قدم أمينا

وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٦٨)، انظر: صحيح السيرة النبوية للشيخ الألباني، ص (١٤٤).

وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى عصمه بعمه مع خلافه إياه في دينه، وقد كان يعصمه حيث لا يكون عمه بما شاء، لا معقب لحكمه[١].

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوته، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له فيما بلغني: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش، وأجمله فخذه، فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامها، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا[٢].

قال: فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا. فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك.

أو كما قال، فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، ونادى بعضهم بعضا، فقال أبو طالب عند ذلك، يعرض بالمطعم بن عدي ويعم من خذله من بني عبد مناف، ومن عاداه من قبائل قريش، ويذكر ما سألوه وما تباعد من أمرهم:

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ١٠٧).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام، ص (٥٦)، والبداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ١٢٣).

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظي من حياطتكم بكر

من الخور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر

تخلف خلف الورد ليس بلاحق ... إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

بلى لهما أمر ولكن تجرجما ... كما جرجمت من رأس ذي علق الصخر

أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثل ما نبذ الجمر

هما أغمزا للقوم في أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهما صفر[1]

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ١٢٣).

القطفة الثامنة عشرة: إسلام حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه

حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه. وأمه هالة بنت وهب. وهو عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعه أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب. وكان رضي الله عنه أسن من رسول الله بسنتين، وهو سيد الشهداء وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة. أسلم سنة ست من النبوة وكنيته أبو عمارة.

لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «**يا أبا بكر، إنا قليل**»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس.

فكان أول خطيباً دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين؛ فضربوا في نواحي المسجد ضربًا شديد، ووطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ثم رجعت بنو تيم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم أخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه، فلما دخلت به ألحت عليه؟ وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك.

فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم.

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا. فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله علي ألا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا، أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتا، حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى

الله؛ فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرًا، وهم تسعة وثلاثون رجلًا، وقد كان حمزة ابن عبدالمطلب أسلم يوم ضرب أبو بكر (وكان إسلام حمزة رضي الله عنه حمية، وكان يخرج فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش، فأقبل من رميه ذات يوم، فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة ماذا لقي ابن أخيك من أبى جهل بن هشام؟ شتمه وتناوله وفعل وفعل، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها رأس أبي جهل. ثم قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله).

عن محمَّد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه حَمِيَّةً، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مر بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم، فلقيته امرأة فقالت: يا أبا عمارة، ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام! شتمه، وتناوله، وعمل وفعل. فقال: هل رآه أحد؟ قالت: أي والله، لقد رآه ناس.

فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم. فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس، فضرب بها بين أذني أبي جهل فوق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف: وأشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله.

قالوا: يا أبا عمارة إنه سبَّ آلهتنا، وإن كنت أنت، وأنت أفضل منه، ما أقررناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشًا»[١].

وقد جاء من حديث ابن إسحاق عن رجل من أسلم، فذكر القصة أطول مما ذكرت هنا[٢].

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٧)، رواه الطبراني مرسلاً، ورجاله رجال الصحيح، وقد جاء بنحوه عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق حليف بني زهرة، وقال الهيثمي (٩/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٢-١٩٣)، وابن كثير في السيرة (١/ ٤٤٥-٤٤٦)، وقال: وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق فذكره.

القطفة التاسعة عشرة: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال عنه ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»[١].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**»[٢].

وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ**»[٣].

عن عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مَا خَلاَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، لاَ تُخْبِرْهُمَا يَا عَلِيُّ**»[٤].

وفي لفظ ابن ماجه: «لا تخبرهما يا علي ما داما حيين»[٥].

وكان عمر رجلاً قويـاً مهيبـاً، وكان يؤذي المسلمين ويشتد عليهم، ولكن هذه الشدة الظاهرة تكمن خلفها رحمة ورقة، فعن أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف علي وهو على شركه، فقالت: وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال إنه الانطلاق يا أم عبد الله، قلت نعم! والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذا آذيتمونا وقهرتمونا؟ حتى يجعل الله لنا مخرجـاً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن وغريب وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٩١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٤٩٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٦٦).
(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٢٤).

قالت فقال صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرى- خروجنا.

قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه قالت قلت: نعم! قال لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأسا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الاسلام[1].

أولاً: سبب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهم مستخفون بإسلامهم من عمر، خرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ قال أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا؟

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٦٠)، وصحيح السيرة للشيخ الألباني ص (١٨٩).

أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قال: وأي أهل بيتي، قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمدا ﷺ على دينه، فعليك بهما فرجع عمر.

عائداً إلى أخته فاطمة، وعندها خباب بن الارت معه صحيفة فيها طه يقريها إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم -أو في بعض البيت- وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خباب عليها: فلما دخل قال ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له ما سمعت شيئا.

قال بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا، فقالا له: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، فقال لاخته أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤن آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمدا؟

وكان عمر كاتباً فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها، قال لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت يا أخي إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا المطهرون فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه:

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[1]، فقرأها فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

---

(١) سورة طه: آية (١-٨).

فلما سمع ذلك خباب بن الارت رضي الله عنه خرج إليه فقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام -أو بعمر بن الخطاب- فالله الله يا عمر».

فقال له عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فإذا هو بعمر متوشح بالسيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، فقال حمزة، فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «**ايذن له**» فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة فقال ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأُومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فعرف أهل البيت أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم[١].

لما قضى صديق أحمد نحبه ... دفع الخلافة للإمام الثاني

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٦٠-٦١)، وهذا ما رجحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٧٦).

أعني به الفاروق فرق عنوة ... بالسيف بين الكفر والإيمان

هو أظهر الإسلام بعد خفائه ... ومحا الظلام وباح بالكتمان[١].

ثانيـًا: إذاعة خبر إسلامه.

عن ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: لما أسلم عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي فغدا عليه، قال عبدالله بن عمر وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل -وأنا غلام أعقل كما رأيت- حتى جاءه فقال له: اعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قال فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر، واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلا صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن ابن الخطاب قد صبا. قال يقول عمر من خلفه كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم؟ فقالوا صبأ عمر، قال فمه؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل[٢].

(١) من نونية القحطاني.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي». البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٦٢).

ثالثاً: الصدع بالحق.

فقام عمر فقال: يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق، ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: «يا عمر إنا قليل قد رأيت ما لقينا».

فقال عمر: فو الذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الايمان. ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مر بقريش وهي تنتظره، فقال أبو جهل بن هشام: يزعم فلان أنك صبأت؟ فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

فوثب المشركون إليه، ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل إصبعه في عينه، فجعل عتبة يصيح، فتنحى الناس، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممن دنا منه، حتى أعجز الناس، واتبع المجالس التي كان يجالس فيها فيظهر الايمان.

ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم، قال: ما عليك، بأبي وأمي، والله ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الايمان غير هائب ولا خائف، فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبدالمطلب، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤمناً، ثم انصرف إلى دار الارقم ومعه عمر، ثم انصرف عمر وحده، ثم انصرف النبي ﷺ [١].

وأما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة وعمر مستخفٍ بأستارها، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اطلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه، فلم يثبت

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ١٧).

شيء من هذه القصص من طريق صحيحة[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن إسلام عمر كان فتحـاً وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتل قريشـاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[٢].

أين نحن من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكم نحن بحاجة لرجل كعمر لقد عجزت أرحام النساء أن تلد رجل كعمر.

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري (١/ ١٨٠).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٦٢رقم٨٨٠٦). انظر: صحيح السيرة النبوية للشيخ الألباني ص (١٨٨).

القطفة العشرون: المقاطعة العامة ورحلة النبي ﷺ إلى الطائف

بعد أن ظهرت في مكة علامات النصر، فأسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما فشق ذلك على كفار قريش بإسلام هذين الرجلين البطلين والأسدين.

بدأت قريش تفكر باستئصال الدعوة وهو بقتل النبي ﷺ وتسرب الخبر إلى أبي طالب عم النبي ﷺ فما كان منه إلا أن جمع بني هاشم وبني عبدالمطلب وأخبرهم الخبر أن قريش قررت قتل محمد ﷺ ما الحل؟

فأجمع بنو هاشم وبنو عبدالمطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويحموه فيه، فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم، -ما عدا عبدالعزى أبو لهب- وأجمع المشركون على كتابة الصحيفة وأبرز ما فيها: (أن لا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله للقتل)، وكتبوا في ذلك صحيفة ووضعوها في جوف الكعبة حتى لا يتنازل عنها أحد لأن للكعبة عندهم قدسية.

وعلقت الصحيفة وبدأ الحصار الجائر، وتمضي الأيام فلا يجد المسلمون لقمة واحدة ليقوموا بها حياتهم حتى وصل بهم الأمر أن كانوا يأكلون الخبط وهو أكل ورق الشجر مع الماء.

والشعب: طريق بين جبلين وادي يكون مغلقاً من جميع الجهات مفتوحاً من جهة واحدة.

أولاً: ذكر ما أصاب المؤمنون في الشعب.

مَا أَصَابَ الْمُؤْمنونَ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِي الشّعْبِ مِنْ ضِيقِ الْحِصَارِ لَا يُبَايَعُونَ وَلَا يُنَاكَحُونَ وَفِي الصّحِيحِ أَنّهُمْ جَهِدُوا حَتّى كَانُوا يَأْكُلُونَ الْخَبَطَ وَوَرَقَ السّمَرِ حَتّى إنّ أَحَدَهُمْ لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشّاةُ وَكَانَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ.

قال سعد بن أبي وقاص لَقَدْ جُعْت، حَتّى إنّي وَطِئْت ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَى شَيْءٍ رَطْبٍ فَوَضَعْته فِي فَمِي وَبَلَعْته، وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ إلَى الْآنَ.

وقَالَ: خَرَجْت ذَاتَ لَيْلَةٍ لِأَبُولَ فَسَمِعْت قَعْقَعَةً تَحْتَ الْبَوْلِ فَإِذَا قِطْعَةٌ مِنْ جِلْدِ بَعِيرٍ يَابِسَةٍ فَأَخَذْتهَا وَغَسَلْتهَا، ثُمّ أَحْرَقْتهَا ثُمّ رَضَضْتهَا، وَسَفِفْتهَا بِالْمَاءِ فَقَوِيت بِهَا ثَلَاثًا.

وَكَانُوا إذَا قَدِمَتْ الْعِيرُ مَكّةَ يَأْتِي أَحَدُهُمْ السّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئًا مِنْ الطّعَامِ لِعِيَالِهِ فَيَقُومُ أَبُو لَهَبٍ عَدُوّ اللّهِ فَيَقُولُ يَا مَعْشَرَ التّجّارِ غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمّدٍ حَتّى لَا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي وَوَفَاءُ ذِمّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا خَسَارَ عَلَيْكُمْ فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السّلْعَةِ قِيمَتُهَا أَضْعَافًا، حَتّى يَرْجِعَ إلَى أَطْفَالِهِ وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنْ الْجَوْعِ وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ وَيَغْدُو التّجّارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ، فَيُرْبِحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنْ الطّعَامِ وَاللّبَاسِ حَتّى جَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ وَمَنْ مَعَهُمْ جَوْعًا وَعُرْيًا.

مع ذلك مات الكثير من المسلمين، ولم يتنازل واحد منهم فغير مبادئه ورضخ لقريش، وانظر كتب التاريخ والسير فلم تجد أحد تراجع منهم من أجل لقمة عيش واحدة.

المقاطعة العامة الحصار الاقتصادي ومطاردة الناس في أرزاقهم، من أخلاق الكفرة من قديم الزمان وإلى يومنا هذا فالكفار يضربون على بلاد المسلمين الحصار الاقتصادي فنقول لهم أرزاق العباد بيد الله وليست بأيديكم، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾[٢].

أيرزق الله الدواب والطيور وينسى الذين يقولون لا إله إلا الله، أيرزق الكفرة الفجرة الذين يحاربون الله ويحاربون دينه وعباده ولا يرزق عباده المطيعون!!

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَا النَّاسَ، فَقَالَ: هَلُمُّوا إِلَيَّ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لاَ تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ[٣].

---

(١) سورة سبأ: آية (٢٤).

(٢) سورة هود: آية (٦).

(٣) أخرجه البزار (٢٩١٤)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

ثانيـاً: نقض الصحيفة.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد والجوع، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على ما حدث وأجمعوا على نقض الصحيفة، وقد أعلمهم رسول الله ﷺ بأنه لم يبقَ سوى كلمات الشرك والظلم(١)، وهكذا انتهت المقاطعة.

قال ابن هشام: أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم يدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفث منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟

قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: قد رضينا فتعاقدوا على ذلك، ثم انظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً(٢).

ثالثـاً: دعاء النبي ﷺ عليهم.

لقد دعا رسول الله ﷺ على قريش فحدثت فيهم مجاعة حتى أكلوا الميتة والجلود، فجاء أبو سفيان يسأل رسول الله أن يدعوا لهم ويناشده الرحم، فقرأ الآية: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ

(١) قال ابن حجر: «وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة فذكروا عكس ذلك أن الأرضة لم تدع اسما لله تعالى إلا أكلته، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة، فالله أعلم». فتح الباري، ابن حجر (٧/ ١٩٢).
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٧٤).

جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[١]، وكان الرجل يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فدعا رسول الله ﷺ ربه فكشف عنهم العذاب، فعادوا إلى الكفر[٢].

رابعـًا: وفاة عمه وزوجته.

وما أن غادر بنو هاشم شعب أبي طالب حتى أصيب رسول الله ﷺ بوفاة عمه أبي طالب –واسمه عبدمناف– وقد كان أبو طالب يحوط النبي ويغضب له، وينصره، وكانت قريش تحترمه، وقد جاء زعماؤها حين حضرة الوفاة، فحرضوا أبا طالب على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ وعرض عليه رسول الله الإسلام قائلاً: قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا ان تعيرني بها قريش يقولون إنما حمله عليها الجزع لاقررتُ بها عينك، فأنزل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٣]، فجليس السوء يضر صاحبه في الحياة الدنيا، وعند الموت، ويوم القيامة، فقد تبين أن جليس السوء وهو أبو جهل قد أضر بصاحبه.

فموت عمه أفقد رسولنا ﷺ سنداً كبيراً، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية لما يصيبهم من أضرار مادية ونفسية، كما تبين من حادثة المقاطعة.

وفي نفس العام فقد النبي ﷺ زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

---

(١) سورة الدخان: آية (١٠–١٥).
(٢) انظر: صحيح البخاري (١٠٠٧).
(٣) سورة القصص: آية (٥٦).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون(١).

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَتَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ(٢).

خامسًا: رحلته إلى الطائف.

إن الرحلة إلى الطائف كانت على أثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، فسعى رسولنا لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف، وما كان منهم إلا أن اعتدى عليه أهل الطائف ورشقوه بالحجارة حتى أدموه.

عن أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ -يعني عقبة الطائف- إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَادَانِي.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٣٥٥)، وأحمد (٢٦٦٨)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٥٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

إنها أخلاق النبوة إنها الرحمة وكان بيده ﷺ أن يتخلص من الكفار، وأن يستريح من شرهم، وأن يمسك هو الحكم، ولكن الأنبياء لم يأتوا لإبادة أهل الأرض، وإنما جاءوا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وفي طريق عودته من الطائف ألقتا بعداس، لما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس وقالا له خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عداس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله « ثم أكل، ثم نظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله ﷺ ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١).

فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي.

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال يقول أبناء ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما جاء عداس قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الارض شئ خير من هذا لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي.

قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[1].

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ١٦٧).

القطفة الحادية والعشرون: الإسراء والمعراج

الإسراء والمعراج مكافأة ربانية لرسولنا ﷺ بعد الحصار الظالم الذي استمر ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وبعد وفاة عمه الناصر الحميم أبي طالب، ووفاة الزوجة الغالية الأمينة خديجة رضي الله عنها، وبعد رحلة الطائف الأليمة.

قال الزهري: عرج برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس وإلى السماء قبل خروجه إلى المدينة بسنة[(١)].

وقال ابن عبدالبر وغيره: كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران[(٢)].

جاءت هذه الرحلة الربانية التي أكرم الله بها نبيه ﷺ ليذهب عنه الآلام والأحزان.

أولاً: حادثة الإسراء والمعراج ثابتة بالكتاب والسنة.

أما في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[(٣)].

وقد اشتملت الآية على عدة أمور:

١- بدأ الآية بـ(سبحان) لأن من قدر على هذا فهو مستحق للتنزيه والتقديس.

٢- في ذكر العبد في هذا المقام تشريف، ولذلك وصف الله رسوله بالعبودية في أشرف المقامات:

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٥٤).
(٢) الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٤٠).
(٣) سورة الإسراء: آية (١).

ففي مقام التنزيل قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[٢].

وفي مقام الدعوة قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾[٣].

وفي مقام التحدي قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[٤].

وفي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾.

وفي ذكر العبد في هذا المقام أيضاً تحذير أن يتخذ الإسراء وسيلة لرفع الرسول ﷺ من مقام العبودية إلى مقام الألوهية، وكان النبي ﷺ ينهى عن الإطراء والغلو حتى لا يقع الناس في الشرك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُطرُوني كما أطرَتِ النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبدالله ورسوله**»[٥].

﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ بمكة وسمي حراماً لحرمته وهو أول بيت وضع في الأرض، ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وسمي بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، وهو ثاني بيت بني لله في الأرض، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله، أي

---

(١) سورة الكهف: آية (١).
(٢) سورة الفرقان: آية (١).
(٣) سورة الجن: آية (١٩).
(٤) سورة البقرة: آية (٢٣).
(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

مسجد وضع في الأرض أول قال: «**المسجد الحرام**». قال قلت ثم أي قال: «**المسجد الأقصى**» قلت كم كان بينهما قال: «**أربعون سنة**»[١].

﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ فالمسجد الأقصى مبارك والأرض التي حوله مباركة، وهي بركات دينية ودنيوية.

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ تلك هي حكمة الإسراء لقد رأى النبي ﷺ في رحلته، ما اذهب عن صدره الآلام والأحزان والروع والخوف، وليربط على قلبه وليثبت فؤاده.

وفي كتاب الله تعالى قصة المعراج قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[٢].

فالإسراء والمعراج، كان بالروح والجسد لقوله تعالى: ﴿ بِعَبۡدِهِۦ ﴾، والعبد لا يكون إلا بالروح والجسد، ولقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، والبصر يكون في الجسد.

وأما في السنة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ قَالَ فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَالَ ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).
(٢) سورة النجم: آية (١٣-١٨).

ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قَالَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾[1].

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عليه السلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عليه السلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

---

(١) سورة مريم: آية (٥٧).

ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ قَالَ فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلَاةً قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ قَالَ فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً قَالَ فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»(١).

فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضراؤهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها وعن البعير الذي يقدمها، فكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً وأبى الظالمون إلا كفوراً(١).

الصلاة لأهميتها فرضها الله على رسوله ﷺ هناك فوق السموات، بعد سدرة المنتهى مباشرة وبدون واسطة، فالصلاة هي عمود الدين الذي لا يقوم إلا به، قال ﷺ لمعاذ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**»(٢).

الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ**»(٣).

الصلاة تجارة رابحة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٤).

الصلاة تمحو الذنوب والخطايا، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾(٥).

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢١٩)، وأحمد (٣٥٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧-٤٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الإرواء (٤١٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥٨).
(٤) سورة فاطر: آية (٢٩).
(٥) سورة هود: آية (١١٤).

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**(١).

الصلاة سبب للتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾** ﴾(٢).

الصلاة سبب لنزول الرحمة على العباد، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾(٣).

الصلاة سبب لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾** ﴾(٤) إلى قول تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾** ﴾(٥)، أولى الصفات الذين هم في صلاتهم خاشعون، وآخر هذه الصفات هو على صلواتهم يحافظون.

أنسي هؤلاء الذين ضيعوا الصلاة أن أول أسباب دخول النار ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾** ﴾(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).
(٢) سورة الحج: آية (٤١).
(٣) سورة التوبة: آية (٧١).
(٤) سورة المؤمنون: آية (١-٢).
(٥) سورة المؤمنون: آية (٩-١١).
(٦) سورة المدثر: آية (٤٢-٤٣).

أنسي الذين تركوا الصلاة قوله ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة**»[١]، وقوله ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[٢].

ثانيًا: أناس شاهدهم رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٣].

الذين يغتابون المسلمين، ويأكلون لحوم الأبرياء في مجالسهم، هذا عذابهم في حياة البرزخ جزاء وفاقـًا، ولا يظلم ربك أحداً، فليتق الله كل منا في لسانه لأن اللسان إذا أُطلق في أعراض المسلمين أدخل صاحبه النار.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ**». قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[٤].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ قَالَ قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ قَالُوا خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٢٢٩٣٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٧٨)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٣٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).
(٥) أخرجه أحمد (١٢٢١١)، والحديث صححه الشيخ الألباني لطرقه (٢٩١).

قال ﷺ: «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

القطفة الثانية والعشرون: أهمية المسجد الأقصى وفضله

أولاً: كفار قريش وخبر الإسراء والمعراج.

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظِعْتُ بِأَمْرِي وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا قَالَ فَمَرَّ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَعَمْ قَالَ مَا هُوَ قَالَ إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ قَالَ إِلَى أَيْنَ قَالَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.**

قَالَ ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَعَمْ فَقَالَ هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ قَالَ فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا قَالَ حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ قَالُوا إِلَى أَيْنَ قُلْتُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالُوا ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا.

قَالَ نَعَمْ قَالَ فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ قَالَ فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ قَالَ وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ فَقَالَ الْقَوْمُ أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨١٩)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٢١).

فرفع الله تعالى المسجد الأقصى من بيت المقدس في فلسطين وجاء به ووضعه في مكة أمام النبي ﷺ ينظر إليه، عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّى اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**»(١).

والله سبحانه على كل شيء قدير، فهذا سليمان ﷺ لما طلب عرش بلقيس أن يأتيه من اليمن إلى بيت المقدس جاءه بطرفة عين، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾(٢).

ثانيـًا: أبو بكر الصديق وخبر الإسراء والمعراج.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى يتحدث الناس بذلك فارتد ناس فمن كان آمنوا به و صدقوه و سمعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس و جاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٠).
(٢) سورة النمل: آية (٣٨-٤٠).
(٣) أخرجه الحاكم (٤٤٠٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٦).

ثالثًا: أهمية المسجد الأقصى في الإسلام.

المسجد الأقصى: هو مسجد بيت المقدس، قيل له الأقصى لبعد المسافة بينه وبين الكعبة، وسمي بيت المقدس: لأنه قُدِّس: أي طُهِّر من الشرك.

المسجد الأقصى هو قبلة المسلمين الأولى، فعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ صَلَّى -أَوْ صَلاَّهَا- صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ قَالَ أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ...[1].

فكان ﷺ يقلب وجهه في السماء يرغب ويسأل ربه أن يحول قبلته إلى المسجد الحرام، فاستجاب الله له، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[2].

وهو ثاني بيت بني لله في الأرض، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول قال: «**المسجد الحرام**». قال قلت ثم أي قال: «**المسجد الأقصى**» قلت كم كان بينهما قال: «**أربعون سنة**»[3].

المسجد الأقصى مسجد مبارك، بارك الله فيه وحوله من بركات الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦).
(٢) سورة البقرة: آية (١٤٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[٢]، والبلاد المباركة المقصود منها، هي بيت المقدس.

رابعـًا: الصلاة في المسجد الأقصى فضل عظيم.

عن عبدالله بن عَمْرٍو رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ مِنْ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ ثَلَاثًا حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ وَمُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَأَلَّا يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ أَحَدٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا اثْنَتَانِ فَقَدْ أُعْطِيَهُمَا وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أُعْطِيَ الثَّالِثَةَ**»[٣].

قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٤].

قال القرطبي: «وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه»[٥].

عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة في بيت المقدس أفضل أو الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فقال: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى في أرض المحشر والمنشر وليأتين على الناس زمان ولقيد سوط أو قال: قوس الرجل حيث يرى منه بيت المقدس خير له أو أحب إليه من الدنيا جميعـًا**»[٦].

(١) سورة الأنبياء: آية (٧١).
(٢) سورة الأنبياء: آية (٨١).
(٣) أخرجه النسائي (٦٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٨).
(٤) سورة الأنبياء: آية (٧٨-٧٩).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٣٠٧).
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٧٩).

فتكون الصلاة في المسجد الأقصى بمئتين وخمسين صلاة، وهذا الحديث أصح ما جاء في فضل الصلاة فيه.

المسجد الأقصى من المساجد التي تشد لها الرحال، فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[١].

قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث فضيلة هذه المساجد ومزيتها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء، ولأن الأول قبلة الناس وإليه حجهم، والثاني كان قبلة الأمم السالفة، والثالث أسس على التقوى»[٢].

خامسًا: كيف ننتصر على اليهود؟

إن المسجد الاقصى هو من مقدسات المسلمين فالواجب على المسلمين جميعًا الدفاع عنه ونصرته، المسجد الاقصى لا يختص ببعض المسلمين دون بعض، فكما أن المسجد الحرام والمسجد النبوي هو لجميع المسلمين، فكذلك المسجد الاقصى هو لجميع المسلمين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٣].

ما الأولى معناها المصائب والمحن، وما الثانية معناها المخالفات، أي: لا نرفع عنكم محنة إلا إذا رفعتم مقابلها مخالفة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).
(٢) فتح الباري، ابن حجر (٣/ ٦٥).
(٣) سورة الرعد: آية (١١).
(٤) سورة محمد: آية (٧).

النبي ﷺ عندما بُعث والمسلمون في انتصار دائم وفي علو مستمر، ولا أعلم غزوة من الغزوات خسرها المسلمون حتى في غزوة أحد، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: مَا نَصَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَوْطِنٍ كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾[1]، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسُّ الْقَتْلُ...[2].

الأمر كان للمسلمين فلما خالفوا أمر النبي ﷺ وقع بهم البلاء كل مصيبة تقع للمرء في مقابلها مخالفة يفعلها العبد.

باختصار أننا لسنا عبيداً لله ما هي علامة أننا لسنا عبيداً لله أنك تؤمر بالأمر فتخالف وليس من حقك أن تخالف أنك لم تخلق لكي تخالف.

لك سيدٌ آمر أمرك أن لا تأكل ربا فلا تأكل الربا، أمرك أن لا تسمع الموسيقى فلا تسمع الموسيقى، أمرك أن لا تزني فلا تزني، أمرك أن لا تقتل فلا تقتل، أمرك أن لا تأتي السحرة والمشعوذين، فلا تأتي السحرة والمشعوذين.

فمتى رجعنا إلى ديننا حررنا المسجد الأقصى من إخوان القردة والخنازير، وحررنا أراضينا التي سلبت منا.

متى ما أقمنا شرع الله وأقمنا حدوده وأمرنا بالمعروف ونهينا على المنكر، وأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وعبدنا الله حق عبادته نصرنا الله.

فسأل الله أن يرزقنا صلاة في المسجد الاقصى وأن ندخله أعزاء فاتحين، غير أذلاء صاغرين.

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٠٩).

القطفة الثالثة والعشرون: بيعة العقبة

رجع رسولنا ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج قرير العين منشرح الصدر مطمئن القلب واثقاً من أن الله ناصره ومظهر دينه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

أولاً: المستقبل للإسلام.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تاما قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ..[2].

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق.

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره، بحيث لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه.

ومن تلك الأحاديث: عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها...»[3].

---

(١) سورة الصف: آية (٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

عن تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر**»[١].

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم ومادياتهم وسلاحهم حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان، وهذا ما يبشرنا به الحديث: عن أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاصي وسئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟

فدعا عبدالله بصندوق له حلق، قال : فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية؟

فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولاً يعني قسطنطينية**»[٢].

ثانيـاً: نبينا ﷺ يعرض نفس على الناس.

فكان رسولنا ﷺ يعرض نفسه على الناس يوم الحج، فعن عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال: «**ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا قد منعوي أن أبلغ كلام ربي**»[٣].

فعرض النبي ﷺ الإسلام على عدة قبائل: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسُليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكّاء، وكِندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحداً[٤].

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣).
(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤).
(٣) أخرجه أ داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٧).
(٤) زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٥٣).

ثالثًا: يعرض نفسه ﷺ على الأوس والخزرج.

ولما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.

قال: فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك وأصحاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالت اليهود: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض: يا قوم اعلموا والله أن هذا النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لما دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا[١].

لهذا كان اليهود يسكنون المدينة ويعرفون أن زمانه هذا وكان ينتظرونه ولكنهم كانوا يظنون أنه منهم، ولم يؤمنوا حسداً من عند أنفسهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[٢].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦٩٨)، وحسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة ص (١٤٥).
(٢) أخرجه أحمد (٨٥٥٥)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ١٩٤).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه ليلة العقبة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه». قال فبايعته على ذلك[1].

لما عزم القوم على العودة إلى المدينة بعث معهم رسولنا صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

فقام مصعب بمهمته خير قيام يدعو الناس إلى عبادة الله بالحكمة والموعظة الحسنة متذرعًا بالحلم والصبر الذي تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر الإسلام في المدينة على يديه رضي الله عنه.

الإخلاص هو سر النجاح، فإن أرادت الأمة أن تنجح في دعوتها لهذا الدين فعليها بالإخلاص لله تبارك وتعالى، فها هو مصعب بن عمير كان مخلصًا ضرب لنا مثلاً أعلى في ذلك، فاستجاب لأمر رسولنا صلى الله عليه وسلم وذهب إلى المدينة يدعو لهذا الدين بالليل والنهار، فكان يجلس في المكان يدعو لهذا الدين يأتيه الرجل من المدينة يحمل حربته يريد أن يقتله فما أن يجلس ويسمع الكلام منه ودعوته بالحلم واللين إلا وهو يقوم وقد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إنها الحكمة والحلم في الدعوة والصبر على الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩).

الإخلاص شرط من شروط العبادة فلا تقبل إلا بالإخلاص، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2].

كما أن الله تعالى يخرج اللبن صافياً من بين الفرث والدم، فكذلك يريد من العبادة أن تكون خالصة له سبحانه.

وتمت البيعة وبايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب لذلك سماها عبادة بن الصامت رضي الله عنه: بيعة الحرب، وممن حضر هذه البيعة كعب بن مالك الأنصاري وهو أحد المبايعين في بيعة العقبة الثانية، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه خرجنا في حجاج قومنا من المشركين..

فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا..

فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائهم..

فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه يومئذ عمه العباس بن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلسنا كان العباس بن عبدالمطلب أول متكلم فقال يا معشر الخزرج.

(١) سورة الكهف: آية (١١٠).
(٢) سورة النحل: آية (٦٦).

قال وكانت العرب مما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه وهو في عز من قومه ومنعة في بلده قال فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال فتكلم رسول الله ﷺ فتلا ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله ﷺ فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها يعني العهود فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا قال فتبسم رسول الله ﷺ.

ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقد قال رسول الله ﷺ أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس..

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط يا أهل الجباجب والجباجب المنازل هل لكم في مذمم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم..

قال فقال له العباس بن عبادة بن نضلة والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا قال فقال رسول الله ﷺ لم أومر بذلك قال فرجعنا

فنمنا حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا والله إنه ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم قال فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وقد صدقوا لم يعلموا ما كان منا قال فبعضنا ينظر إلى بعض[١].

رابعـًا: وأهم بنود البيعة.

على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم وتمنعوني مما تمنعون أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

خامسـًا: العزة لله جميعـًا.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فلو ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله»[٢].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، وابن حبان (٧٠١١)، وصححه الشيخ الألباني في فقه السيرة.
(٢) أخرجه الحاكم (٢٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٣).
(٣) سورة النساء: آية (١٣٩).
(٤) سورة فاطر: آية (١٠).

والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

العزة بالإسلام لا بالأنساب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل يسلك طريقا يطلب فيه علما إلا سهل الله له به طريق الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[١].

وكانوا رضي الله عنهم إذا قيل لأحدهم انسب نفسك يقول أنا ابن الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٧١٥).

القطفة الرابعة والعشرون: هجرة الصحابة إلى المدينة

وبعدما علم ﷺ مكان هجرته وبايع الأنصار على النصرة والتأييد واطمأنت نفسه على وجود بلد آمن يستطيع فيه هو وأصحابه رضي الله عنهم أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وتوحيده عند ذلك أذن صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة إلى طيبة الطيبة.

والهجرة كانت بوحي من الله تعالى، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**رأيت في المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب**»[1].

وهلي: وهمي واعتقادي، وهجر: مدينة معروفة وهي قاعدة البحرين. ويثرب: هو اسمها في الجاهلية فسماها الله تعالى المدينة وسماها رسول الله ﷺ طيبة وطابة.

عندما أذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، طاروا إليها يحثهم إلى أمن وأمان، يعبدون فيها ربهم، ويجهرون بصلاتهم، ويأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم، فلما رأت قريش أن مكة قد خلت، والمسلمون هاجروا إلى المدينة سعت بشتى الطرق والوسائل إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، ومرة بالاحتيال لأعادتهم إلى مكة ومع ذلك لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

أولاً: الهجرة وأوائل المهاجرين.

الهجرة واجبة على المسلم إذا ضُيق عليه في بلد ما ولم يتمكن من عبادة ربه، أن يهاجر إلى بلد آخر ليتمكن من عبادة ربه، فالدين أغلى من كل شيء، فقد هاجر الصحابة رضي الله عنهم من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

ومن أوائل المهاجرين: أبو سلمة بن عبد الأسد: هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة.

قالت أم سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

---

(١) سورة النساء: آية (٩٧-١٠٠).

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح[١] فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريبا منها حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها قالت فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني.

قالت فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة.

قالت: وما معي أحد من خلق الله[٢]، وقد يسر الله لها في الطريق عثمان بن أبي طلحة فصحبها مع ابنها إلى المدينة.

أبو سلمة عندما مات علم رسولنا أم سلمة دعاء، فقال لها: «ما من مسلم تصيبه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللهم أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها» قالت فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ[٣].

(١) الأبطح يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينه وبينهما واحدة وربما كان إلى منى أقرب وهو المحصب.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٩-٤٧٠)، والسيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٢-٢٠٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٥٢٥).

وأيضـاً: صهيب بن سنان الرومي: عن أبي عثمان النهدي، أن صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكـاً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت ثم تريد أن تخرج بنفسك ومالك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرأيتم إن أعطيتكم مالي أتخلون سبيلي؟ فقالوا: نعم، فقال: أشهدكم أني قد جعلتُ لهم مالي، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**»[1].

وعياش بن أبي ربيعة: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتعدت -أي تواعدت- لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه. قال فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن تغرير أبي جهل والحارث بعياش فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال فقال أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه.

قال فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٠٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في فقه السيرة ص (١٥٧).

قال فأبى علي إلا أن يخرج معهما؛ فلما أبى إلا ذلك قال قلت له أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة[١] ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها. فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال بلى. قال فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال: فكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٢].

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت مثل زبد البحر.

ثم قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[٣].

---

(١) نجيبة: هو القوي الخفيف السريع.
(٢) سورة الزمر: آية (٥٣-٥٥). انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٤)، وحسنه الدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٤-٢٠٦).
(٣) سورة الزمر: آية (٥٦-٥٨).

يا أيها المسلم ماذا سنقول لربك غدا إذا وقفت عارياً وقد تخلى عنك الجميع فأين من كان يأزك أزاً ومن كان ينفخك نفخاً.

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشا قلق الأحشاء حيرانا

والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا

اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا

لما قرات ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا

ثانياً: جيل الصحابة.

جيل الصحابة جيل فريد اختارهم الله لنصرة نبيه ﷺ ولنصرة دينه، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[2].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه»[3].

---

(١) سورة الحشر: آية (٨-٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في تعليقه على العقيدة الطحاوية ص (٤٧٠).

قال الإمام الطحاوي في عقيدته: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[١].

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «**إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»[٣].
وفي رواية: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٤].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٤٦٧).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٧٣٥).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٤).
(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٤٨٨٦).

القطفة الخامسة والعشرون: هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة

أولاً: الهجرة سبيل الأنبياء.

الهجرة ليست وسيلة للراحة، وإنما هي أسلوب من أساليب نشر الدعوة، وطريقة للمحافظة عليها من بغي الباغين وعدوان الطغاة، ولهذا كانت الهجرة سبيل الأنبياء من قبل نبينا محمد ﷺ يرتادون فيها الأرض الخصبة التي تحتضن الدعوة، ويبحثون أثناءها عن البذور الطيبة الصالحة للإخصاب.

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء يدعو قومه إلى التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة فيتآمرون عليه، ويكيدون له، ويتعصبون ضد دعوته، فيترك بلده الذي ضاق به، ويودع أهله الذين تآمروا عليه، والقرآن الكريم يقص علينا ذلك فيقول: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾[١]، ولوط عليه السلام لما رأى أن النار لم تحرق عمه إبراهيم، وأنه خرج منها كأنه لم يدخلها آمن لإبراهيم، وصدقه فيما جاء به، وخرج معه مهاجراً: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾[٢].

وموسى يتآمر عليه فرعون، ويضايقه في دينه، فيأمره اللّه أن يترك هذا البلد الذي لم يستطيع فيه تبليغ دعوته، وأن يهاجر بقومه إلى حيث يمكنه عبادة ربه وأداء رسالته، قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣].

---

(١) سورة الصافات: آية (٩٨-٩٩).
(٢) سورة العنكبوت: آية (٢٦).
(٣) سورة الدخان: آية (٢٣-٢٤).

لم يكن رسول اللّه ﷺ أول من هاجر من الرسل، بل سبقه بالهجرة رسل كرام على الله، خرجوا بدينهم امتثالا لأمر اللّه عز وجل فسنوا بذلك الهجرة لمن أتى بعدهم من النبيين والمصلحين حتى لا يعتذر معتذر ببغي الباغين واضطهاد الظالمين، أو يقول قائل: كنت في أرض يسيطر عليها الطغاة ولم يسمحوا لنا بنشر الدعوة ولا بقول كلمة الحق، وحينئذ يكون السؤال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

ثانيًا: الهجرة سبيل النجاة.

ولقد ثبت بالتجربة أن الهجرة من أنجح الوسائل لنشر الدعوة، وأن الدعاة إلى اللّه متى ما هاجروا بدينهم مخلصين للّه هجرتهم، لا يبغون من ورائها إلا إرضاء اللّه تبارك وتعالى يجري اللّه على أيديهم، فتنفتح لهم القلوب، ويجتمع عليهم الناس، فيؤازرون دعوتهم وينشرون عقيدتهم، ويوسع اللّه لهم في أرزاقهم، ويسبغ عليهم نعمته ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾[1].

وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وقوله: ﴿وَسَعَةً﴾ يعني: الرزق، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، فعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

(١) سورة النساء: آية (١٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعةً وتسعين إنسانـًا ثم خرج يسأل فأتى راهبـًا فسأله، فقال له هل من توبة قال لا، فقتله فجعل يسأل، فقال له رجل ائتِ قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال قيسوا ما بينهما فوُجِد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له**»(١).

ثالثـًا: التآمر على رسولنا ﷺ.

فبعد أن حُدد المكان الذي يُهاجر إليه؛ أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فبادر الصحابة الكرام رضي الله عنهم لذلك، ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**قد أُرِيتُ دارَ هجرَتِكم، رأيتُ سَبْخَةً ذاتَ نَخْلٍ بين لابَتَيْنَ**».

وهما الحرَّتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجراً، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي**». قال أبو بكر هل ترجو ذلك بأبي أنت قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُرِ أربعة أشهر(٢).

عندما بدأ الصحابة بالهجرة إلى المدينة ورأت قريش أن مكة قد خلت من أهلها، وأدركوا أن رسولنا ﷺ سيدرك أصحابه اليوم أو غداً، فاجتمعوا في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسمـًا في هذا الأمر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٧).

فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد ﷺ ويشد وثاقه ويرمى به في السجن، ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها، وقد استُبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل، فرأى أن يقوم من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً، ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ثم يضربونه جميعاً ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن أن بني هاشم يقوون على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

وقد أخبرنا الله في كتابه عن هذا الاجتماع، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

رابعاً: الأذن لرسولنا ﷺ بالهجرة.

ثم جاء الأمر من الله تبارك وتعالى، فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

قال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عز وجل: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال: آية (٣٠).
(٢) سورة الإسراء: آية (٨٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٦٢).

وقال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدقٍ[١].

ونبي الله يعلم أنه لا طاقة بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانـاً نصيراً[٢].

خرج رسول الله ﷺ في أول يوم من ربيع الأول وجزم بذلك ابن إسحاق.

خامسـاً: إذ هما في الغار.

عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذُكِر عنده أبو بكر فبكى وقال: وددت أن عملي كله مثل عمله يومـاً واحداً من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهينا إليه قال: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثقبا فشق إزاره وسدها به وبقي منها اثنان فألقمها رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «**ما لك يا أبا بكر؟**» قال: لدغت فداك أبي وأمي فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجد[٣].

جدت قريش بالطلب واستعملت كل الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ولكن الله غالب على أمره.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا. قَالَ «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»، وفي لفظ: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥٥).
(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٧٤).
(٣) انظر: مشكاة المصابيح (٢/ ٥٥٦).
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦٣).

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[(١)].

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدواً من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ، كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

سادساً: لماذا ابتدأت السنة الهجرية بمحرم، والنبي ﷺ لم يهاجر إلا في ربيع الأول؟

في زمن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يؤرخ ويمكن أن يؤرخ بأحد أربعة أمور: (مولده، أو مبعثه، أو هجرته، أو وفاته) فرجح عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه فانحصر في الهجرة.

وكانت الهجرة في ربيع الأول لما جعلت في محرم؟

إنما أخروه من ربيع الأول إلى الحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة فكان أول هلال

(١) سورة التوبة: آية (٤٠).

استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ هذا أقوى ما وقعتُ عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم، والذي أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن التشبه بالكفار الذي نحن في صدده: الاحتفال برأس السنة أو ما يسمونه بـ (الكريسماس): ففي هذا اليوم يحتفل النصارى الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[(١)].

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[(٢)]. فإشهارهم لعقائدهم الباطلة من ادعاء الألوهية لعيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي سوف يتبرأ منهم أمام الخلائق كلها يوم القيامة حين يسأله تعالى عن ذلك قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[(٣)].

وهذه الافتراءات الباطلة والعقائد الزائفة التي ما أنزل الله بها من سلطان تنفر منها النفوس الصحيحة والفطر السليمة وحتى الجمادات كالأرض والسماوات والجبال الصم الصلاب، قال تعالى واصفاً ذلك الموقف: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ

(١) سورة المائدة: آية (٧٢).
(٢) سورة المائدة: آية (٧٣).
(٣) سورة المائدة: آية (١١٦-١١٧).

ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة مريم: آية (٨٨-٩٥).

القطفة السادسة والعشرون: في الطريق إلى المدينة

بعد أن أذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بالهجرة واختار رسولنا لصحبته أبي بكر رضي الله عنه تجهزا لذلك، فعن أسماء رضي الله عنها قالت صنعت سفرة رسول الله ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر والله ما أجد شيئا أربط به إلا نطاقي. قال فشقيه باثنين، فاربطيه بواحد السقاء وبالآخر السفرة، ففعلت، فلذلك سميت ذات النطاقين(١).

فتواعدا أن يخرجا ليلاً إلى غار ثور، فيمكثا ثلاث ليال وذلك من تمام الخطة، ورجاء النجاة والسلامة، ذلك أن قريشاً تعلم أن النبي ﷺ مهاجر إلى المدينة فإذا فقدته ستطلبه جهة المدينة في الشمال فخرج ﷺ أول ما خرج جهة الجنوب، جهة اليمن مخالفاً تماماً الطريق الذي قصده حتى إذا خرجت قريش من جهة المدينة فلم تدركه علمت أنه قد نجى فترجع فيخرج بعد آمناً سالماً مطمئناً.

عن عبدالله بن عديٍّ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(٢). والحزورة: تل صغير.

«ولولا أني أخرجت منك» أي بأمر من الله «ما خرجت» فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يخرج منها حقيقة أو حكماً وهو الضرورة الدينية أو الدنيوية.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٦)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وصححه الشيخ الألباني في المشكاة (٢٧٢٥).

فبعد أن مكث رسولنا ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الغار ثلاث ليال، وقد أخفقت قريش في العثور عليهما، فأعلنت عن مكافأة لمن يقتلهما أو يأسرهما.

عن سراقة بن جُشعم قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سراقة، إني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه.

قال سراقة فعرفت أنهم هم، فقلت له إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية.

وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ[١].

وقد حرم الله تعالى الاستقسام بالأزلام قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾[٢]، والازلام هي ثلاثة قداح مكتوب عليها أفعل ولا تفعل والثالث لا كتابة عليها.

وأبدلها الله تعالى بصلاة الاستخارة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمرى -أو قال عاجل أمرى وآجله- فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمرى -أو قال في عاجل أمرى وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»[٣].

إن الإنسان مخلوق ضعيف، بحاجة إلى إعانة الله تعالى في أموره كلها؛ وذلك لأنه لا يعلم الغيب، فلا يدري أين موطن الخير والشر فيما يستقبله من حوادث ووقائع؟

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).
(٢) سورة المائدة: آية (٣).
(٣) أخرجه البخاري (١١٦٢).

لذا كان من حكمة الله سبحانه ورحمته بعباده أن شرع لهم هذا الدعاء، لكي يتوسلوا بربهم ويستغيثوا به في توجيه السير نحو الخير والنفع.

وإن العبد المسلم على يقين لا يخالطه شك أن تدابير الأمور وصرفها بيد الله سبحانه وتعالى وأنه يقدر ويقضي بما شاء، في خلقه.

قوله: «في الأمور كلها»، ويراد به الاستخارة في الأمور المباحة، فالفعل الواجب والمحرم لا استخارة فيهما.

قال ابن أبي جمرة: «والحكمة في تقديم الصلاة على الدعاء أن المراد بالاستخارة حصول الجمع بين خيري الدنيا والآخرة فيحتاج إلى قرع باب الملك، ولا شيء لذلك أنجع ولا أنجح من الصلاة لما فيها من تعظيم الله والثناء عليه والافتقار إليه مآلاً وحالاً»[١].

قوله: (أستخيرك) أي: أطلب الخير، أن تخير لي أصلح الأمرين؛ أي تختاره، لأنك عالم به وأنا جاهل.

قوله: (وأستقدرك): أي: أطلب أن تقدرني على أصلح الأمرين، إذ أطلب منك القدرة على ما نويته، فإنك قادر على إقداري عليه، أو أن تقدر لي الخير بسبب قدرتك عليه.

«اللهم إني استخيرك بعلمك» لأنك سبحانك أعلم.

«وأسألك من فضلك» وذلك أن عطاء الرب هو فضل منه، وليس لأحد عليه حق في نعمة.

(١) فتح الباري، ابن حجر (١١/ ١٨٦).

«فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم» فالعلم والقدرة لله وحده وليس للعبد من ذلك إلا ما قدر الله له.

«فاصرفه عني واصرفني عنه» أي حتى لا يبقى قلبه بعد صرف الأمر عنه متعلقاً به.

«ثم رضني به» فلا يبقى قلبه متعلقاً به فلا يطمئن خطره، والرضا سكون النفس إلى القضاء.

وهناك استخارات مبتدعة: «كاشتراط الرؤية المنامية أو استخارة السبحة، أو استخارة الفنجان، أو استخارة المندل، أو استخارة الرمل، أو استخارة الكف، أو استخارة المصحف، أو استخارة الورق، أو الاستخارة بواسطة الأبراج وما شابه ذلك.

لا تستخير الكاهن ولا الساحر، بل ستخير ربهما، ولا تستخير الطير كما كان العرب إذا رغبوا في عمل ما أو على فعل شيء ما اعتمدوا على الطير، فإذا خرج أحدهم وسار إن رأى الطير طار يمنة وسار عن يمينه استمر في عزمه، وإن رآه طار عن شماله يسرة تشاءم به وعاد ورجع عما نواه.

استخر ولا تتشاءم، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثا، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[1].

فما كفارة التشاؤم، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك قال أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك**»[2].

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (٣٦٨٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٢٩).
(٢) أخرجه أحمد (٧٠٤٥).

أم معبد الخزاعية:

ثم مر رسول الله ﷺ في مسيره ذلك، حتى مر بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى، والشاء عازب، وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «**هل بها من لبن؟**» قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «**أتأذنين لي أن أحلبها؟**» قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمَّى الله ودعا، فتفاجَّت عليه ودرَّت، فدعا بإناءٍ لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرَّغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانيـًا حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها وارتحلوا.

فقلما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عِجافـًا يتساوكن هزلاً، فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين لك هذا والشاة عازب؟ ولا حلوبة في البيت؟

فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، قالت: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تُزرِ به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، أحور، أكحل، أزجُّ، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نّزرٌ ولا هَذر، كأن منطِقَه خَرَزات

نظم يتحدَّرن، ربعة، لا تقتحمه عينٌ من قصر، ولا تشنؤه من طول، غُصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مُفنِد.

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذُكِرَ من أمره ما ذُكِر، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

وأصبح صوتٌ بمكة عاليـاً يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يجازى وسودد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد[(١)]

أهل المدينة يستقبلون رسولنا ﷺ:

قال عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥)، والآجري في الشريعة (١٠٢٠)، والحاكم (٣/ ٩)، قال العلائي في الفوائد المسموعة (٢/ ٧١٧): هذا حديث حسن محفوظ من رواية حزام بن هشام.

فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بنى عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته «هذا إن شاء الله المنزل».

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا، فقالا لا بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجدا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن «هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر». ويقول «اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

القطفة السابعة والعشرون: ثمرات الهجرة

إن الهجرة إلى المدينة سبقها تخطيط من النبي ﷺ بتدبير من الله تبارك وتعالى، فالهجرة امتحانٌ عظيم للمسلمين.

من ثمرات وفوائد الهجرة:

ضرورة الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، ويتجلى ذلك من خلال أخذ النبي ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستعانته بعبدالله بن أريقط الليثي وكان خبيراً ماهراً بالطريق.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[1].

ويلاحظ أن النبي ﷺ كتم أسرار مسيره؛ فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة، ولم يتوسع في اطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

ثبات أهل الإيمان في المواقف الحرجة: ويبدو ذلك في جواب النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه تطميناً له على قلقه: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

فهذا مثال من أمثلة الصدق والثبات، والثقة بالله، والاتكال عليه عند الشدائد، وهو دليل واضح على صدق الرسول، ودعوى النبوة؛ فهو في أشد المآزق حرجاً ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان، وأن الله لن يتخلى عنه في تلك الساعات الحرجة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في تخريج المشكاة (٢٢).

أن النصر مع الصبر: فقد قضى ﷺ في سبيل دعوته في مكة ثلاثة عشر حولاً وهو يلاقي نفوساً طاغيةً، وألسنة ساخرة، وربما لقي أيدياً باطشة.

كان هَيِّناً على الله أن يصرف عنه الأذى جملة، ولكنها سنة الابتلاء يؤخذ بها الرسول الأكرم؛ ليستبين صبره، ويعظم عند الله أجره، وليتعلم دعاة الإصلاح كيف يقتحمون الشدائد، ويصبرون على ما يلاقون من الأذى صغيراً كان أم كبيراً.

والتنبيه على فضل المهاجرين والأنصار: فمن فوائد الهجرة على المهاجرين أنهم كانوا يلاقون في مكة أذىً كثيراً، فأصبحوا بعد الهجرة في أمن وسلامة، ثم إن الهجرة ألبستهم ثوب عزة بعد أن كانوا مستضعفين، ورفعت منازلهم عند الله درجات، وجعلت لهم لسان صدق في الآخرين، وقد سمى الله تعالى الصحابة الذين فروا بدينهم إلى المدينة بالمهاجرين، وصار هذا اللقب أشرف لقب يُدْعَون به بعد الإيمان.

ومن بركات الهجرة على أهل المدينة من آووا ونصروا أنْ علا شأنهم، وبرزت مكانتهم، واستحقوا لقب الأنصار الذي استوجبوا به الثناء من رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: آية (٧٢).

فالهجرة كانت سبب في انتشار الإسلام وقوته: وهذا من فوائد الهجرة؛ فلقد كان الحق بمكة مغموراً بشغب الباطل، وكان أهل الحق في بلاء من أهل الباطل شديد.

والهجرة كانت من أعظم الأسباب التي رفعت صوت الحق على صخب الباطل، وخلَّصت أهل الحق من ذلك البلاء الجائر، وأورثتهم حياة عزيزة، ومقاماً كريماً.

وإذا كانت البعثة مبدأ الدعوة إلى الحق فإن الهجرة مبدأ ظهوره والعمل به في حالتي السر والعلانية.

ولا يبلغ قول الحق غايته، ويأتي بفائدته كاملة إلا أن يصبح عملاً قائماً، وسيرة متَّبعة؛ فالهجرة راشت جناح الإسلام، فذهب يحلق في الآفاق؛ ليمحوا آية الضلالة، ويجعل آية الهداية مبصرة قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[١].

علت كلمة الله حقا، وإنما علت على كاهل تلك الدولة التي قامت بين لابتي المدينة، وبسطت سلطاناً لا تستطيع يد المخالفين أن تمسه من قريب ولا من بعيد.

وفي الهجرة المحافظة على دماء المسلمين، فالله عز وجل قد كرم هذا الإنسان تكريماً كبيراً فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وأنزل

(١) سورة التوبة: آية (٤٠).

له الرسل ليأخذوا بيديه إلى الصراط المستقيم ومن أول وأعظم هذه الحقوق التي ضمنتها الشريعة ليحيى الإنسان حياة آمنة كريمة مطمئنة حق الحياة، وحق الحياة أمر عظيم لا يجوز لأحد البتة أن ينتهك حرمته أو أن يستبيح حماه، بل قد جعل الإسلام قتل النفس الكبيرة التي تلي الإشراك بالله عز وجل كما في سورة الفرقان حيث يقول: ﴿ **وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾** ﴾[1].

لماذا؟ لأن الله جل وعلا هو وحده واهب الحياة وهو خالق الحياة ولا يجوز لأحد أن يسلب هذه الحياة إلا خالقها وواهبها جل وعلا، أو بأمر منه تبارك وتعالى في إطار الحدود الشرعية التي شرعها لعباده إذ هو وحده جل وعلا يعلم ما يصلح خلقه وما يفسدهم قال تعالى: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾** ﴾[2].

وهذا الحق محدد واضح بيّن لم يترك للأهواء بل قد حدده النبي ﷺ تحديداً دقيقًا حتى لا يصبح هذا الأمر أمراً مباحًا لكل أحد من الناس، فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِى، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ**»[3].

وجاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»[4].

---

(١) سورة الفرقان: آية (٦٨).
(٢) سورة الملك: آية (١٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).
(٤) أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

قَالَ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ**»[١].

وعن أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**»[٢].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**»[٣].

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أول ما يُقضى بين الناس بالدماء**»[٤].

فلا يجوز للمسلم أن ينتحر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قتل نفسه بحديدة عُذِّب به في نار جهنم**»[٥].

وقد بيّن الله تبارك وتعالى في آية واحدة محكمة في سورة النساء حكم القتل الخطأ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٢).
(٣) أخرجه النسائي (٣٩٨٦).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، ومسلم (١٦٧٨).
(٥) أخرجه البخاري (١٣٦٣).
(٦) سورة النساء: آية (٩٢).

فتبين الآية إن لقتل الخطأ ثلاث حالات:

الأولى: إنه إن قتل المؤمن وأهله مؤمنون في دار الإسلام فيجب أن تعتق رقبة مؤمنة وأن تدفع الدية إلى أهل القتيل إلا أن يتصدق أهل المقتول بالعفو عن الدية.

الثانية: إن وقع القتل على رجل مؤمن وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب بهذه الحالة يجب أن تعتق رقبة مؤمنة فقط تعويضاً لهذه النفس التي قتلت أما الدية فلا تدفع لأهل القتيل لأنهم يحاربون الله ورسوله.

الثالثة: إن قتل رجل مؤمن كان أو غير مؤمن ولكن أهله معاهدون للمسلمين، فإن قتل هذا الرجل وجب أن تدفع الدية ابتداء لأهل القتيل وأن كان المقتول كافراً وأن تعتق رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

القطفة الثامنة والعشرون: فضل المدينة وآداب سكناها

فإن مدينة الرسول الكريم ﷺ طيبة الطيِّبة، مهبط الوحي، ومتنزل جبريل الأمين على الرسول الكريم ﷺ، وهي مأرز الإيمان، وملتقى المهاجرين والأنصار، وموطن الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، وهي العاصمة الأولى للمسلمين، فانطلقت كتائب الحق لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومنها شعَّ النور، فأشرقت الأرض بنور الهداية، وهي دار هجرة المصطفى ﷺ، وهذه المدينة المباركة شرفها الله وفضلها، وجعلها خير البقاع بعد مكة.

أولاً: فضائل المدينة النبوية.

١- إن الله تعالى جعلها حرماً آمناً كما جعل مكة حرماً آمناً، وقد جاء عن النبي الكريم ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرَّمتُ المدينة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[١].

والمقصود من هذا التحريم المضاف إلى محمد ﷺ وإلى إبراهيم ﷺ هو إظهار التحريم، وإلا فإن التحريم من الله عز وجل وهو الذي جعل هذا حرماً، وجعل هذا حرماً.

واختص الله عز وجل هاتين البلدتين بهذه الصفة -التي هي الحرمة- دون سائر البلاد، ولم يأتِ دليلٌ ثابت يدلُّ على تحريم شيء غير مكة والمدينة، وما شاع على ألسنة كثير من الناس من أن المسجد الأقصى ثالث الحرمين هو من الخطأ الشائع؛ لأنه ليس هناك للحرمين ثالثٌ، ولكن التعبير الصحيح أن يقال:

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٦٠)، (٤٥٤).

ثالث المسجدين -أي: المشرفين المعظمين- والنبي ﷺ جاء عنه ما يدلُّ على فضل هذه المساجد الثلاثة، وعلى قصدها للصلاة فيها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»(١).

ثم إنَّ المقصود بالحرم في مكة والمدينة، ما تُحيط به الحدود لكلٍّ منهما، هذا هو الحرم، وما شاع من إطلاق الحرم على المسجد النبوي فقط فهو من الخطأ الشائع؛ لأنه ليس هو الحرم وحده، بل المدينة كلُّها حرمٌ ما بين عَير إلى ثور، وما بين لا بتَيْها، فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**المدينة حرم ما بين عير إلى ثور**»(٢).

وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهها ولا يصاد صيدها**»(٣).

وعير وثور هما: جبلين، ومن المعلوم أن المدينة قد اتسعت في هذا الزمان حتى خرج جزءٌ منها عن الحرم، ولهذا لا يقال: إن كل المباني الموجودة في المدينة من الحرم، ولكن ما كان داخل الحدود الحرم منها فهو حرمٌ، وما كان خارج حدود الحرم فإنه يطلق عليه أنه من المدينة، ولكن لا يقال: إنه من الحرم.

٢- إن النبي ﷺ سماها «**طيبة**» و«**طابة**»، فعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، (٥١١).
(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٠)، (٤٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٦٢)، (٤٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٥٠)، ومسلم (١٣٨٤)، (٤٩٠).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الله تعالى سمى المدينة طابة**»[(١)].

وهذان اللفظان مشتقان من الطيب، ويدلان على الطيب، فيهما لفظان طيِّبان، أُطلقا على بُقعة طيِّبة.

٣- إن الإيمان يأرز إليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**»[(٢)].

ومعنى ذلك أن الإيمان يتجه إليها ويكون فيها، والمسلمون يؤمُّونها ويقصدونها، يدفعهم إلى ذلك الإيمان ومحبة هذه البقعة المباركة التي حرَّمها الله عز وجل.

٤- إنها قرية تأكل القُرى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهْىَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِى النَّاسَ كَمَا يَنْفِى الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»[(٣)].

ومعنى قوله: «تأكل القرى» فُسِّر بأنها تنتصر عليها، وتكون الغلبة لها على غيرها من القرى، وفُسِّر بأنها تُجلب إليها الغنائم التي تحصلُ في الجهاد في سبيل الله، وتُنقل إليها، وكلٌّ من هذين الأمرين قد وقع وحصل.

٥- حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر على لأوائها وجهدِها، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعـاً أو شهيداً يوم القيامة**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٨٥)، (٤٩١).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٧٦)، ومسلم (١٤٧)، (٢٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، (٤٨٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٣٦٣)، (٤٥٩).

وهذا يدلُّ على فضل هذه المدينة، وفضل الصبر على الشدة واللأوَى والجهد والضنك إذا حصل لأحد، فلا يكون ذلك دافعـًا له إلى أن ينتقل منها إلى غيرها يبحث عن الرخاء وعن سعة الرزق، بل يصبر على ما يحصل له فيها، وقد وُعِدِ بهذا الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالى.

٦- أن النبي ﷺ بين عظم شأنها وخطورة الأحداث فيها عندما بيّن حرمتها، فقال: «**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ**»[1].

٧- الدعاء لها بالبركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا**»[2].

٨- ومن فضائلها أنها لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلاَئِكَةٌ، لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلاَ الدَّجَّالُ**»[3].

٩- الشفاعة لمن مات بها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠)، (٤٦٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٣)، (٤٧٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٨٨٠)، ومسلم (١٣٧٩)، (٤٨٥).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٩١٧)، وابن ماجه (٣١١٢)، وصححه الشيخ الألباني.

ثانيـًا: آداب من سكن المدينة.

فإن من وفقه الله لسكنى هذه المدينة المباركة طيبة الطيِّبة عليه أن يستشعر أنه ظفر بنعمة عظيمة ومنَّة جسيمة، فيشكر الله على هذه النِّعمة:

١- أن يحب المسلم هذه المدينة لفضلها، ولمحبة النبي ﷺ إيّاها، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِي ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ، حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا[١].

٢- أن يحرص المسلم على أن يكون في هذه المدينة مستقيمـًا على أمر الله، ملتزمـًا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، شديد الحذر من أن يقع في البدع والمعاصي.

٣- أن يحرص المسلم في هذه المدينة على أن يكون له نصيب كبير من تجارةِ الآخرة التي تكون الأرباح فيها أضعافـًا مضاعفة.

٤- أن يكون المسلم في هذه المدينة المباركة قدوة حسنة في الخير؛ لأنه يقيم في بلد شعَّ منه النور وانطلق منه الهداة المصلحون إلى أنحاء المعمورة.

٥- أن يتذكر المسلم أنها أرض طيِّبة هي مهبط الوحي ومأرز الإيمان ومدرج الرسول الكريم ﷺ وصحابته الكرام من المهاجرين والأنصار.

٦- أن يصبر المسلم على ما يحصل له فيها من ضيق عيش أو بلاء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٦).

القطفة التاسعة والعشرون: مكانة المسجد في الإسلام

فقد كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج النبي ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحرُّ عليهم عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا، وقدم الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم، فخرجوا فاستقبلوه، وكانت فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو الحرة فاستقبلوه، وقد نزل رسول الله ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء[١].

وأن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول ﷺ فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده، فكان يقول لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبي أيوب[٢].

أول الأعمال التي قام بها رسولنا ﷺ عند وصله المدينة هو بناء المسجد. فعن أنس رضي الله عنه قال قدم النبي ﷺ المدينة فنزل أعلى المدينة، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار فجاءوا متقلدي السيوف، كأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا».

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٢) وحسنه الدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢١٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري (١/ ٢١٨).

قالوا لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فقال أنس فكان فيه ما أقول لكم، قبور المشركين، وفيه خرب، وفيه نخل، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر، وهم يرتجزون، والنبي ﷺ معهم وهو يقول: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»(١).

أولاً: الاهتمام بالمساجد.

المسجد هو أحب البقاع إلى الله تعالى، قال ﷺ: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»(٢).

المسجد هو قلعة الإيمان، قال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾(٣).

المسجد هو المدرسة التي يتخرج منها الرجال، الذين يفتحون قلوب العباد والبلاد بدعوة الإسلام، قال تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾** ﴾(٤).

المسجد هو المدرسة التي يتعلم المسلمون فيها دينهم الصحيح، من خلال الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فقد علم النبي ﷺ أصحابه وزكاهم في مسجده، فتخرج من مسجد رسولنا ﷺ الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (٦٧١).
(٣) سورة الأعراف: آية (٢٩).
(٤) سورة النور: آية (٣٦-٣٧).

في المسجد ترى العدل والمساواة في أبهى صورها، فالغني بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير والعامي بجوار الأمير، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

في المسجد تربى المسلمون على مراقبة الله في أعمالهم، فالذي يقف خمس مرات بين يدي ربه يمنعه ذلك من الإقدام على المعاصي والذنوب.

ثانيًا: فضيلة المسجد المبني على التقوى.

وقال تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين للّه، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديما في هذا عريقا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ وتتعبد، وتذكر اللّه تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم اللّه بقوله: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ ﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول اللّه ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة اللّه ورسوله.

---

(١) سورة التوبة: آية (١٠٨).

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا ﴾.

أي: على طرف جُرُفٍ هَارٍ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم، فالعمل وإن كان فاضلا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

وأن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها، كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن اللّه علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة للّه ورسوله.

والنهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

وأن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قَباء» حتى قال اللّه فيه: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

وأنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره اللّه له من باب أولى وأحرى.

وأن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، واللّه لا يهدي القوم الظالمين[١].

ثالثـًا: الغاية من بناء المساجد.

والغاية هي: إفراد الله تعالى بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[٢]، فقد كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعِهِم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده.

رابعـًا: النذير الشديد على من منع المصلي من المسجد.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾[٣]، أي: لا أحد أظلم وأشد جرما، ممن منع مساجد الله، عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

﴿ وَسَعَىٰ ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿ فِي خَرَابِهَآ ﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص (٣٤١).
(٢) سورة الجن: آية (١٨).
(٣) سورة البقرة: آية (١١٤).

خامساً: عمارة المساجد هي للموحدين وليس لأهل الشرك.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[(١)].

قال ﷺ: «**من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة**»[(٢)].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتا في الجنة**»[(٣)].

(كمفحص قطاة) هو موضعها الذي تجثم فيه وتبيض، لأنها تفحص عنه التراب.

سادساً: التعلق بالمساجد نجاة.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا يغلى منها الهوام كما يغلى القدور يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبية ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ومنهم من يبلغ إلى وسطه ومنهم من يلجمه العرق**»[(٤)].

وقد بيّن ﷺ الذين يظلهم الله يوم القيامة عندما تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ**

(١) سورة التوبة: آية (١٧-١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٣٨).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٨٦).

إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[١].

وقوله: «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

وفي رِوَايَة: «إذا خرج مِنْهُ حَتَّى يعود إِلَيْهِ»، فهو يحب المسجد ويألفه لعبادة الله فِيهِ، فإذا خرج مِنْهُ تعلق قلبه بِهِ حَتَّى يرجع إِلَيْهِ، وهذا إنما يحصل لمن ملك نفسه وقادها إلى طاعة الله فانقادت لَهُ؛ فإن الهوى إنما يدعو إلى محبة مواضع الهوى واللعب، إما المباح أو المحظور، ومواضع التجارة واكتساب الأموال، فلا يقصر نفسه عَلَى محبة بقاع العبادة إلا من خالف هواه، وقدم عَلِيهِ محبة مولاه.

ويروى عَن سَعِيد بْن المُسَيِّب، قَالَ: من جلس فِي المسجد فإنما يجالس ربه عز وجل[٢]. أي: شديد الحب فيه والملازمة له، والعلاقة شدة الحب فيه فضل النيات واعتقاد الخير، وأنه مكتوب لصاحبه مدخر له، محسوب في علمه، وفضل لزوم المساجد والصلاة فيها وعمارتها[٣].

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، (٩١).
(٢) فتح الباري، ابن رجب (٣/ ٤٧٠).
(٣) إكمال المعلم، القاضي عياض (٣/ ٥٦٢).

القطفة الثلاثون: الإخاء بين المهاجرين والأنصار

عندما وصل النبي ﷺ المدينة الجميع أراد أن ينزل عنده، لكنه ﷺ، قال في الناقة: دعوا الناقة فإنها مأمورة.

أولاً: أبو أيوب رضي الله عنه وحسن الضيافة.

وبركت عند بيت أبي أيوب الأنصاري، ونزل رسولنا عند أبي أيوب الأنصاري، قال أبو أيوب: لما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت»، فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن.

فلقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، قال وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلا - أو ثوما - فرده رسول الله ﷺ فلم أر ليده فيه أثراً، قال: فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟

فقال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي فأما أنتم فكلوه» قال: فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[١].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٤)، والبداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٢٤٦)، والحديث صححه الدكتور أكرم ضياء العمري في السير النبوية الصحيحة (١/ ٢٢٠).

ثم أمر رسولنا ببناء المسجد؛ ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وفعل عملين شريفين، وهما:

١- بناء المسجد: لكي يكون المسلمون صلتهم بربهم تبارك وتعالى.

٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: وهذا الأمر لكي يكون إكمال لبنلات المجتمع المسلم.

ثانيًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

والمؤاخاة هي: أخوة تجعل المهاجرين أولى بمال أخيه الأنصاري في الميراث من أهله وأقاربه والعكس، فضرب الأنصار المثل الأعلى في الوفاء بحق الأخوة وحسن الاستقبال وكرم الضيافة.

آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك[1].

آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، ردَّ التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة[3].

ويذكر أنهم كانوا تسعين رجلاً: نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار[4].

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن وسعد بن الربيع، قال لعبدالرحمن إني أكثر الأنصار مالا فأقسم

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٥٢٩).
(٢) سورة الأنفال: آية (٧٥).
(٣) أخرجه الطيالسي (٢٧٩٨)، والدارقطني (٤١٢٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٦٥٧).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٧٧).

مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوَّجها. قال بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ «**مهيم**». قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها». قال: نواة من ذهب[1].

عقد الأنصار عقد الإخاء بكل تسامح وإيثار، وهم أصحاب الأموال وأهل الديار، وعقد المهاجرون عقد الإخاء بكل عفة وزهد واستغناء، شاكرين لإخوانهم الأنصار حسن استقبالهم، وكرم ضيافتهم، وإن تعجب فاعجب من سعد بن الربيع وهو يعرض على أخيه عبدالرحمن بن عوف نصف ماله، ويزداد عجبك حين تسمع سعد بن الربيع وهو يقول لأخيه عبدالرحمن بن عوف: عندي زوجتان انظر إليهما فأيتهما أعجبتك فسمِّها لي؛ فأطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجتها.

لا تعجب فإن الإيمان إذا تمكن من القلوب فعل أكثر من ذلك، وإن تعجب من حسن العرض، فاعجب أكثر وأكثر من حسن الرد اعجب من قول عبدالرحمن بن عوف لأخيه سعد بن الربيع: بارك الله لك في أهلك ومالك، لا حاجة لي في شيء من ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ ثم ذهب إلى السوق وتاجر.

هؤلاء من أي مدرسة تخرجوا إنها من مدرسة محمد ﷺ.

وقد استمر عقد الإخاء بين المهاجرين والأنصار، إذا مات أحدهما ورثه أخوه دون ابن أمه وأبيه إلى أن أنزل الله قوله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٠).

بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾[1].

فنسخت روابط الإخاء وبقيت أخوة النسب دون أخوة الإخاء الذي أمضاه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

وقد أثنى الله تعالى على الأنصار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

فمن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي.

ثالثًا: ما هي حقوق الاخوة في الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3]، فربط الله تعالى بين المسلمين برابطة الإيمان التي هي أقوى من رابطة النسب والوطن واللغة، فالمؤمنون إخوة وإن تباعدت أقطارهم، المؤمنون إخوة وإن تباعدت أجسادهم، يقول ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»[4].

---

(١) سورة الاحزاب: آية (٦).
(٢) سورة الحشر: آية (٩).
(٣) سورة الحجرات: آية (١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

ويقول ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»(١)، وشبك بين أصابعه.

فمن حقوق الإخوة في الله:

١- التناصح والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، فالمسلم ناصح لأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾(٢).

٢- الإصلاح بينهم إذا وقع بينهم خلاف ونزاع، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾(٣).

٣- أن يحب المؤمن لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٤).

٤- التعاون على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾(٥).

وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٢) سورة التوبة: آية (٧١).
(٣) سورة الحجرات: آية (٩).
(٤) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٥) سورة المائدة: آية (٢).
(٦) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

٥- التزاور في الله، قال ﷺ: «**قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخـاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكـاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخـاً لي في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا غير أني أحببته في الله عز وجل قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه[٢].

٦- الاستغفار للأخ حيـاً وميتـاً، قال ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»[٣].

٧- الدعاء لأخيك بظهر الغيب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[٤].

وقال ﷺ: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**»[٥].

٨- النصرة والدفاع والإعانة على قضاء الحاجات، قال ﷺ: «انصر أخاك ظالمـاً أو مظلومـاً، قالوا: يا رسول الله تنصره مظلومـاً فكيف تنصره ظالمـاً؟ قال: تمنعه من ظلمه فذلك نصرك إياه»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٨١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).
(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢١٥٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في حسنه الجامع (١٠٩٧٠).
(٤) سورة الحشر: آية (١٠).
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٣٣).
(٦) أخرجه البخاري (٢٤٤٣).

وقال ﷺ: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[١].

رابعـًا: الأمراض التي تفسد الأخوة.

١- الحسد والتباغض والتدابر. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[٢].

٢- سوء الظن والتجسس والغيبة. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[٣].

٣- الهجران. فقد حذر رسولنا ﷺ من الهجر، عن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٤].

٤- عدم التثبت من الأخبار. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٣) سورة الحجرات: آية (١٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠).
(٥) سورة الحجرات: آية (٦).

٥- الغش في البيع والشراء. فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا -أو قال حتى يتفرقا- فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

القطفة الحادية والثلاثون: إسلام عبدالله بن سلام

بعد أن نزل رسولنا ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه وضع رسول الله ﷺ نفسه في مكان يسهل على جميع الناس أن يصلوا إليه، ولم يجعل على بيته بوابين يمعنون الناس من الدخول عليه ﷺ، ثم أخذت الوفود تتوافد على رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب.

أولاً: ماذا كان يفعل اليهود قبل بعثت نبينا.

اليهود كانوا يسكنون المدينة النبوية، فهم يعلمون أن رسولنا ﷺ سيهاجر إلى المدينة، ويعلمون أنه خاتم النبيين، وقد كانوا من قبل مجيء هذا رسولنا بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[١].

ثانيًا: إيمان بعض أهل الكتاب.

لقد آمن بعض من أهل الكتاب بالنبي ﷺ فيخبر الله تعالى فيقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾[٢].

(١) سورة البقرة: آية (٨٩).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٩٩).

فيخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد ﷺ، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وادع رسول الله ﷺ مَنْ بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وبادر حبرُهم وعالمهم عبدالله بن سلام فدخل في الإسلام، وأبى عامتهم إلا الكفر.

وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وحاربته الثلاثة، فمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة[1].

ثالثاً: إسلام عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

فاليوم مع إسلام رجل كان من أحبار اليهود، ألا وهو الحصين وكان من بني قينقاع، فغير النبي ﷺ اسمه فسماه: عبدالله بن سلام[2].

وسمع عبدالله بن سلام بنزول النبي ﷺ في دار أبي أيوب، وقد تنادى الناس فيما بينهم: قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، فجاء عبدالله بن سلام مع الناس ليرى رسول الله ﷺ.

قال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٧٩).
(٢) انظر: الإصابة، ابن حجر (٦/ ١٩٠).

رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام**»(١).

عبدالله بن سلام جاء إلى رسولنا لكي يبحث عن الحق، فعن أنس أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه. قال: «**أخبرني به جبريل آنفا**».

قال ابن سلام ذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: «**أي رجل عبدالله بن سلام فيكم**».

قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: «**أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام**».

قالوا أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبدالله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، والحديث صححه الترمذي، والشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٦٩).

شرنا. وتنقصوه. قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[١]. ومعنى البهت هو قول الباطل[٢].

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[٣].

رابعـًا: عبدالله بن سلام رضي الله عنه مبشر بالجنة.

عبدالله بن سلام مبشر بالجنة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ أُتِيَ بقصعة فأكل منها ففضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: «**يجيء رجل من هذا الفج من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة**».

قال سعد وكنت تركت أخي عميراً يتوضأ قال فقلت هو عمير قال فجاء عبدالله بن سلام فأكلها[٤].

عبدالله بن سلام له أجران، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ ...**»[٥].

فهذه شهادة من رجل منَّ الله عليه بالإسلام من اليهود في رسول الله ﷺ وفي اليهود، فأخبر في شهادته أن رسول الله ﷺ حق، وأن اليهود قوم بهت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣٨).
(٢) هدي الساري، ابن حجر ص (٩٠).
(٣) سورة الأحقاف: آية (١٠).
(٤) أخرجه أحمد (١٤٥٨)، والحديث حسن من أجل عاصم بن بهدلة.
(٥) أخرجه البخاري (٩٧).
(٦) أخرجه مسلم (١٥٣).

إذا كانت اليهود تعلم أن رسول الله ﷺ حق بشهادة أعلمهم وهو عبدالله بن سلام، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[(١)].

خامسًا: ما الذي حملهم على تكذيب نبينا ﷺ؟

إنه الحسد كيف يبعث خاتم النبيين من العرب، وأكثر الأنبياء كان في بني إسرائيل، فالله سبحانه هو الذي يختار: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[(٢)].

فهل الحسد يحمل البعض على الكفر؟ نعم كما حمل إبليس عندما حسد أبانا آدم عليه السلام حمله ذلك على الكفر ومعصية أمر الله تعالى، وكذلك حمل قابيل على أن قتل أخاه هابيل. فاليهود من حسدهم للعرب لم يؤمنوا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض**»[(٣)].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٤٦).
(٢) سورة الحج: آية (٧٥).
(٣) أخرجه أحمد (٨٥٥٥).
(٤) سورة البقرة: آية (١٧٤-١٧٥).

يخبر تعالى أنَّهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجَّبُ من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياذًا بالله من ذلك[(١)].

سادسًا: صفات اليهود في كتاب الله تعالى.

اليهود يقلبون الحقائق فنراهم في واقعنا المعاصر يقتلون المسلمين ثم بعد ذلك باستخدامهم لوسائل الإعلام يقلبون الحقائق ويظهرون للناس أنهم هم الذين يُقتلون.

اليهود قوم بهت: فمن بهتانهم: أنهم كذبوا على الله فوصفوه بما لا يليق وقد فضحهم الله تعالى في كتابه: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٨١).
(٣) سورة المائدة: آية (٦٤).
(٤) سورة التوبة: آية (٣٠).

أنهم زعموا أن جبريل ﷺ عدوٌ لهم كما مر من كلام عبدالله بن سلام، فالله تعالى كذبهم ورد عليهم، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[(١)].

اليهود أهل حقد وحسد على المسلمين، وقد فضحهم الله في كتابه، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[(٢)].

اليهود لا يحبون الخير للمسلمين أبداً، وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[(٤)].

اليهود يعملون بالليل والنهار، وينفقون أموالهم ليصرفوا المسلمين عن دينهم، وذلك لأن اليهود اليوم أصبحوا أصحاب قوة على حساب تفرق المسلمين وضعفهم وبعدهم عن دينهم، فهم لا يرضون على المسلمين حتى يكونوا مثلهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[(٥)].

---

(١) سورة البقرة: آية (٩٧-٩٨).
(٢) سورة البقرة: آية (١٠٩).
(٣) سورة البقرة: آية (١٠٥).
(٤) سورة المائدة: آية (٨٢).
(٥) سورة البقرة: آية (١٢٠).

اليهود هم أفسد الناس لأنهم لا يعيشون إلا على حساب خراب بيوت الآخرين قاتلهم الله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾[1].

اليهود من أجبن الناس على الإطلاق، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: آية (٦٤).

(٢) سورة الحشر: آية (١٣-١٤).

القطفة الثانية والثلاثون: إسلام سلمان الفارسي

هو سلمان أبو عبدالله الفارسي، ويقال له: سلمان بن الإسلام، وسلمان الخير، قال ابن حبان: من زعم أن سلمان الخير آخر فقد وهم[١].

عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جيُّ، وكان أبي دِهقان قريته[٢]، وكنت أحبُّ خَلقِ الله إليه، فلم يَزَلْ به حبُّه إيَّاي حتى حبسني في بيته -أي: ملازم النار- كما تحبس الجارية، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار[٣]؛ الذي يُوقدها، لا يتركها تخبُو ساعةً، قال: وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمةٌ، قال: فشُغِلَ في بُنيان له يوماً، فقال لي: يا بنيَّ، إني قد شُغِلتُ في بُنيانٍ هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطَّلِعْها.

وأَمَرني فيها ببعض ما يريد، فخرجتُ أريد ضيعتَه، فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلُّون، وكنتُ لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إيَّاي في بيته، فلما مررتُ بهم، وسمعت أصواتَهم، دخلتُ عليهم أنظُرُ ما يصنعون، قال: فلما رأيتُهم أعجبني صلاتُهم، ورغبتُ في أمرهم، وقلت: هذا والله خيرٌ من الدِّين الذي نحن عليه. فوالله ما تركتُهم حتى غَرَبَتِ الشمس، وتركتُ ضيعةَ أبي ولم آتِها، فقلت لهم: أين أصلُ هذا الدِّين؟

قالوا: بالشام. قال: ثم رجعتُ إلى أبي، وقد بَعَثَ في طلبي وشغلتُه عن عمله كلِّه، قال: فلما جئتُه، قال: أي بنيَّ، أين كنتَ؟ ألم أكُن عَهِدتُ إليك ما عَهِدتُ؟

---

(١) انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ١٤١).

(٢) أي: رئيسها.

(٣) قطن النار، أي: خازنها وخادمها.

قال: قلت: يا أبتِ مررتُ بناسٍ يصلُّون في كنيسةٍ لهم فأعجبني ما رأيتُ من دينهم، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غَرَبتِ الشمس. قال: أي بنيَّ، ليس في ذلك الدِّين خيرٌ، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه. قال: قلت: كلا واللهِ إنه لخيرٌ من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

قال: وبَعَثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قَدِمَ عليكم ركبٌ من الشام تجارٌ من النصارى فأخبروني بهم. قال: فقَدِمَ عليهم ركبٌ من الشام تجارٌ من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قَضَوْا حوائجهم وأرادوا الرَّجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم.

قال: فلما أرادوا الرَّجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيتُ الحديد من رجلي، ثم خرجتُ معهم حتى قَدِمتُ الشام، فلما قدمتُها، قلت: من أفضل أهل هذا الدِّين؟ قالوا الأُسقُفُّ في الكنيسة. قال: فجئتُه، فقلت: إني قد رَغِبتُ في هذا الدِّين، وأحببتُ أن أكون معك أخدِمُك في كنيستك، وأتعلَّم منك وأُصلِّي معك.

قال: فادخُلْ. فدخلتُ معه، قال: فكان رجلَ سَوْءٍ يأمُرُهم بالصدقة ويُرغِّبُهم فيها، فإذا جَمَعُوا إليه منها أشياء، اكتنَزَه لنفسه، ولم يُعطِهِ المساكين، حتى جَمَعَ سبعَ قِلالٍ من ذهب ووَرِقٍ، قال: وأبغضتُه بغضاً شديداً لما رأيتُه يَصنَعُ، ثم مات، فاجتَمَعَت إليه النصارى ليَدفِنُوه، فقلتُ لهم: إنَّ هذا كان رجل سَوْءٍ يأمركم بالصدقة ويُرغِّبُكم فيها، فإذا جئتُموه بها اكتنزها لنفسه ولم يُعطِ المساكين منها شيئًا. قالوا: وما عِلمُك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلُّكم على كنزه. قالوا: فدُلَّنا عليه. قال: فأريتُهم موضعَه، قال: فاستخرجُوا منه سبع قِلالٍ مملوءةً ذهبًا ووَرِقًا، قال: فلما رأوْها قالوا: واللهِ لا نَدفِنُه أبداً فصلبُوه ثم رَجمُوه بالحجارة.

ثم جاؤُوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيتُ رجلاً لا يُصلِّي الخمسَ، أُرَى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا ولا أَرغَبُ في الآخرة، ولا أدأبُ ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببتُه حبّاً لم أُحبَّه من قبله، فأقمتُ معه زمانـاً، ثم حَضَرَتْه الوفاةُ، فقلت له: يا فلانُ، إني كنت معك وأحببتُك حبّاً لم أُحِبَّه من قبلك، وقد حَضَرَكَ ما ترى من أمر الله، فإلى من تُوصِي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أي بنيَّ، والله ما أعلمُ أحداً اليوم على ما كنتُ عليه، لقد هَلَكَ الناس وبدَّلُوا وتركوا أكثرَ ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو فلانٌ، فهو على ما كنتُ عليه، فالحق به. قال فلمَّا مات وغُيِّب، لَحِقتُ بصاحب الموصل فقلت له: يا فلانُ، إنَّ فلانـاً أوصاني عند موته أن أَلحَقَ بك، وأخبرني أنك على أمره.

قال: فقال لي: أَقِم عندي فأقمتُ عنده، فوجدتُه خيرَ رجل على أَمْرِ صاحبه، فلم يَلبَثْ أن مات، فلما حَضَرَتْه الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانـاً أَوصَى بي إليك، وأَمَرني باللُّحُوق بك، وقد حَضَرَكَ من الله عز وجل ما ترى، فإلى من تُوصي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أي بنيَّ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنَّا عليه إلا بنَصِيبين[1]، وهو فلانٌ، فالحق به.

قال: فلمَّا مات وغُيِّبَ لحِقتُ بصاحب نصيبين، فجئتُه فأخبرتُه خَبَري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي. فأقمتُ عنده، فوجدته على أمر صاحبيهِ، فأقمتُ مع خير رجل، فوالله ما لَبِثَ أن نَزَلَ به الموت، فلما حُضِرَ، قلت له: يا فلان، إن فلانـاً كان أوصى بي إلى فلانٍ، ثم أوصَى بي فلانٌ إليك، فإلى من تُوصِي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أي بنيَّ، والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمُرُكَ أن تأتيَه إلا رجلاً بعمُّوريَّة، فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببتَ فأتِهِ، قال: فإنَّه على أمرنا.

(١) تقع اليوم ضمن الحدود التركية وتتبع اليوم لمحافظة ماردين.

قال: فلمَّا مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب عمُّوريَّة[1]، وأخبرتُه خَبَري، فقال: أقم عندي، فأقمتُ مع رجل على هَدْي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبتُ حتى كان لي بقراتٌ وغُنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حُضِرَ قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، وأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ، وأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ ثم أوصى بي فلانٌ إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أي بنيَّ، والله ما أعلمُه أصبح على ما كنَّا عليه أحد من الناس آمُرُك أن تأتيَه، ولكنه قد أظلَّك زمان نبيَّ هو مبعوثٌ بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرَّتين بينهما نخلٌ، به علاماتٌ لا تخفى: يأكل الهديَّة، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغُيِّب فمكثتُ بعمُّوريَّة ما شاء الله أن أمكُثَ، ثم مرَّ بي نفرٌ من كَلْبٍ تجاراً، فقلتُ لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأُعطيكم بقراتي هذه وغُنيمتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطيتهموها وحَمَلُوني، حتى إذا قَدِمُوا بي وادي القُرى، ظلموني فباعوني من رجلٍ من يهود عبداً، فكنتُ عنده، ورأيتُ النخل، ورجوتُ أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحقَّ لي في نفسي، فبينما أنا عنده، قَدِمَ عليه ابنُ عمٍّ له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتَمَلَني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصفَةِ صاحبي، فأقمتُ بها وبَعَثَ الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمعُ له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شُغل الرِّقِّ، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْقٍ[2] لسيِّدي أعملُ فيه بعض العمل، وسيِّدي جالسٌ، إذ أَقبَلَ ابنُ عمٍّ له حتى وقف عليه، فقال: فلانُ، قاتَلَ الله بني قَيْلَةَ، واللهِ إنهم الآن لمجتمعون بقُباءٍ على رجلٍ قَدِمَ عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبيٌّ.

(١) هي مدينة في فريجيا، وفريجيا هي منطقة في الأناظول.
(٢) النخل.

قال: فلما سمعتُها أخذتني العُرواءُ[1]، حتى ظننتُ سأسقُطُ على سيِّدي، قال: ونزلت عن النَّخلة، فجعلتُ أقول لابن عمِّه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغَضِبَ سيِّدي فلَكَمَني لكمةً شديدةً، ثم قال: ما لك ولهذا أَقبِلْ على عملك. قال: قلت: لا شيء، إنما أَردتُ أن أستثبته عما قال.

وقد كان عندي شيءٌ قد جمعتُه، فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباءٍ، فدخلتُ عليه، فقلتُ له إنه قد بَلَغَني أنك رجلٌ صالحٌ، ومعك أصحابٌ لك غرباءُ ذوو حاجةٍ، وهذا شيءٌ كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**كلوا**» وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدةٌ، ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئًا، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني رأيتُك لا تأكلُ الصدقة، وهذه هديةٌ أكرمتُك بها.

قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأَمَرَ أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغَرقَد، قال: وقد تَبِعَ جنازةً من أصحابه، عليه شَمْلَتانِ له، وهو جالسٌ في أصحابه، فسلَّمتُ عليه، ثم استدرتُ أنظُرُ إلى ظهره، هل أرى الخاتَمَ الذي وَصَفَ لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرتُه، عَرَفَ أني أستثبتُ في شيءٍ وُصِفَ لي، قال: فألقى رِداءَه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفتُه، فانكببتُ عليه أُقبِّلُه وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحوَّلْ» فتحوَّلتُ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

---

(١) الرعدة.

ثم شَغَلَ سلمان الرِّقُ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُد، قال: ثم قال لي رسول الله ﷺ: «**كاتب يا سلمان**» فكاتبتُ صاحبي على ثلاث مائة نخلةٍ أُحييها له بالفقير[1] وبأربعين أوقيَّة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**» فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين وديَّةً[2]، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر -يعني: الرجل بقدر ما عنده- حتى اجتمعت لي ثلاث مائة وديَّةٍ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب يا سلمان ففقِّرْ لها، فإذا فَرَغْتَ فأتني أكون أنا أضعها بيدي**» قال: ففقَّرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فَرَغتُ منها جئتُه فأخبرتُه، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نُقرِّبُ له الوديَّ ويضعُه رسول الله ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها وديَّةٌ واحدةٌ، فأدَّيتُ النخل، وبَقِيَ عليَّ المالُ، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدَّجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فعل الفارسيُّ المكاتب» قال: فدُعِيتُ له، فقال: «خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان» فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله ممَّا عليَّ؟ قال: «خذها، فإنَّ الله عز وجل سيؤدِّي بها عنك» قال: فأخذتُها فوزنتُ لهم منها -والذي نفس سلمان بيده- أربعين أوقية، فأوفيتُهم حقَّهم وعتقتُ، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفُتني معه مشهدٌ[3].

ويؤخذ من حديث سلمان رضي الله عنه على الإنسان أن يبحث عن الحق ليلاً ونهاراً، فإن وجده اتبعه بلا تردد، فسلمان ترك أهله، وترك الغنى عن أبيه، وانتقل من بلد إلى بلد ومن شخص إلى شخص، وباعوه عبداً لرجل من اليهود، ومع ذلك يبحث عن الحق فعندما عرف أنه رسول الله اتبعه بلا تردد، لأنه ليس بعد الحق

---

(١) وهي الحفرة التي تحفر لغرس النخل.
(٢) والودية: هري صغار النخل. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٥/ ٣٧٠).
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٧)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤).

إلا الضلال، ولأن الحق أحق أن يتبع، فكم من إنسان منعه الكبر من اتباع الحق وكم من إنسان منعه الجهل من اتباع الحق، وكم من إنسان منعته الدنيا وحب الدينار عن اتباع الحق، وكم من إنسان منعته الحزبية البغيضة عن اتباع الحق.

أيضاً: الاهتمام بالعقيدة الإسلامية أمر مهم لابد منه، فعلى المسلم أن يتعلم عقيدته حتى يعرف ما يقول وما يفعل، فالعقيدة الإسلامية هي أعظم الواجبات وآكدها؛ لذا فهي أول ما يطالب به الناس، فطير ومخلوق صغير اهتم بأمر العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فأهل الباطل والشرك والكفر يصبر بعضهم بعضاً على الباطل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[2].

أيضاً: ضرورة التعاون على البر والتقوى، وضرورة مساعدة المحتاج، وضرورة التعاون على قضاء الدين عن المدين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) سورة النمل: آية (٢٠-٢٦).
(٢) سورة الفرقان: آية (٤١-٤٢).

رسول الله ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

القطفة الثالثة والثلاثون: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام

لقد كان رسول الله ﷺ يتجه في صلاته إلى بيت المقدس بعد الهجرة، واستمر على ذلك ستة عشر شهرًا أو ثمانية عشر شهرًا، وكان يجب أن يتجه إلى الكعبة، بيت الله تعالى يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[١]، فكان يحب ﷺ أن يصرف إلى الكعبة.

فصلى النبي ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأن أول صلاة صلاها متجهًا إلى الكعبة في مكة كانت صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت وقد تساءل بعض الصحابة عن الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، وكان صلاتهم إلى بيت المقدس فأنزل الله قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[٢].

قال محمد بن كعب القرظي: ما خالف نبي قطُّ في قبلة ولا سُنة إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهراً، ثم قرأ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: آية (٤٤).

(٢) سورة البقرة: آية (١٤٣).

أخرجه البخاري (٤٠).

(٣) سورة الشورى: آية (١٣).

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا وقالوا: آمنا به كل من عند ربنا وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا، يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه، إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت -كما قال الله- كبيرة إلا على الذين هدى الله، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه.

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيما، وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ولم ينقد له، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم، ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولدا، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا.

ثم أخبر أن له المشرق والمغرب، وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجهه، وهو الواسع العليم، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد، فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فما له من الله من ولي ولا نصير.

ثم ذكر أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكر خليله باني بيته الحرام، وأثنى عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله إماما للناس يأتم به أهل الأرض، ثم ذكر بيته الحرام وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة، ومع هذا كله فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم.

وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة، وأمر به رسوله حيثما كان ومن حيث خرج، وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم، وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم في القيامة خير المواقف، فهم على تل عال والناس تحتهم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة، وكل من قدم على أقوال الرسول سواها فحجته من جنس حجج هؤلاء.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم وليهديهم، ثم ذكرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم؛ ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم ومحبته لهم، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

وبتحويل القبلة، وتوجه المسلمين إلى بيت الله بمكة، تمت المفاصلة التامة بين المسلمين واليهود، وتميز المسلمون بقبلتهم، فأخذ اليهود في إثارة الشبه والحقد على رسول الله ﷺ ودينه، يصور القرآن الكريم ذلك فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[1].

وبدأ المسلمون يتجهون في صلواتهم إلى مكة المكرمة، فتحركت شجوبهم وتيقنوا بمدى ارتباط الإسلام بمكة، وبالمكيين.

وأتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان في اليوم والليلة خمس مرات، وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية، فكل هذا كان بعد مقدمه المدينة[2].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٤٢).

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٨٠-٨٣).

القطفة الرابعة والثلاثون: معرفة العقيدة الإسلامية (١)

فمع لقاء جديد من سيرته ﷺ فقد تكلمنا فيما سبق عن أهمية البحث عن الحق والحقيقة، وأما اليوم فنتكلم عن العقيدة الإسلامية، فالعقيدة الإسلامية مبنية على ثلاثة أصول، وهي: معرفة الله سبحانه، ومعرفة الإسلام، ومعرفة الرسول الكريم محمد بن عبدالله ﷺ.

أما اليوم فنتكلم عن الأصل الأول: وهو معرفته سبحانه وتعالى.

أولاً: ما أهمية العقيدة؟

عباد الله: نحن في زمن جهل المسلمون عقيدتهم، فجميع أعداء الإسلام يعرفون عقيدتهم ألا أنت أيها السني، لابد من التميز لأن جميع الطوائف تدعي أنها من الإسلام، فلابد من أن نميز أنفسنا عن غيرنا فنحن أهل السنة والجماعة.

الموضوع مهم وخطير وكبير لماذا اسمع ماذا ويقول ﷺ: «**إن بني إسرائيل تفرَّقتْ على ثِنتينِ وسبعين ملّةً، وتفترقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملّةً، كلُّهم في النَّار إلاَّ ملَّةً واحدةً، قَالُوا: ومن هي يَا رسولَ اللهِ؟ قال: ما أنا عليه وأَصحابي**»[(١)].

فالعقيدة مهمة ولها أهمية كبيرة وعظيمة يقول الله تعالى في نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٤٨).
(٢) سورة النحل: آية (١٢٠-١٢٣).

عن فروَة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن معاذًا كان أمة قانتـًا لله حنيفـًا، فقلت في نفسي: غلط أبو عبدالرحمن، إنما قال الله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعـًا لله ورسوله[1].

ومع ذلك فكان إبراهيم ﷺ يخاف من الشرك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

ثانيـًا: من أين نأخذ عقيدتنا؟

هل نأخذ عقيدتنا من كتب الفلاسفة من الشرق والغرب؟

هل نأخذ عقيدتنا عبر شاشات التلفاز أو بقراءة الجرائد؟

هل نأخذ عقيدتنا عبر التواصل الاجتماعي؟

لا، بل نأخذ عقيدتنا من كتاب ربنا الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[3].

ومن سنة نبينا ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[4]، ولذلك قال ﷺ: «**إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض**»[5].

---

(١) أخرجه الحاكم (٥١٨٨).
(٢) سورة إبراهيم: آية (٣٥-٣٦).
(٣) سورة فصلت: آية (٤٢).
(٤) سورة النجم: آية (٣-٤).
(٥) أخرجه الحاكم (٣١٩)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

ثالثًا: كيف نفهم عقيدتنا من الكتاب والسنة؟

نفهم عقيدتنا من الكتاب والسنة كما فهمها الرعيل الأول أبطال الإسلام الذين غيروا مسار التاريخ أتعرفونهم؟ هم أصحاب محمد ﷺ وما الضير في ذلك: أن نفهم عقيدتنا كما فهموا والله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾[٢].

رابعًا: دعوة الرسل واحدة.

ما من أمة إلا خلا فيها نذير يبني ويقعد هذا الأساس قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾[٣].

فهذا نبي الله نوح يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[٤]، وهذا نبي الله هود يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[٥]، وهذا نبي الله صالح يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾[٦].

---

(١) سورة النساء: آية (١١٥).
(٢) سورة التوبة: آية (١٠٠).
(٣) سورة النحل: آية (٣٦).
(٤) سورة الأعراف: آية (٥٩).
(٥) سورة هود: آية (٥٠).
(٦) سورة هود: آية (٦١).

ورسولنا ﷺ مكث ثلاثة عشر عاماً في مكة، يؤسس هذا الأساس، أتعرفون ذلك؟ يقول: يا قوم قولوا: لا إله إلا الله، حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[1].

معنى لا إله إلا الله: ومع ذلك لا ينبغي لأي داعية أن يُغفل جانب الألوهية والدعوة إلى تصحيح أنه لا معبود إلا الله سبحانه وتعالى وأنه لا يجوز صرف أي نوع من أنواع العبادة، من الدعاء أو الرجاء أو الخوف أو النذر أو الرغبة أو الرهبة أو المحبة أو الخشوع أو الذبح أو نحو ذلك من أنواع العبادات لغير الله تعالى؛ بل تصرف كل هذه العبادات لله وحده.

معنى محمد رسول الله: ولو عرفوا أن معنى أشهد أن محمدا رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر وأن لا يعبدوا الله إلا بما شرع لا بالأهواء والبدع وتأملوا قول الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.

ورسولنا ﷺ اهتم بهذا الأساس اهتماماً بالغاً حتى لقي ربه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله عدلاً قل ما شاء الله وحده**»[2].

ويقول ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[3].

عقيدتك: إياك نعبد وإياك نستعين، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك.

---

(١) سورة ص: آية (٥).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٨٢٥).

(٣) أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١١١٤٩).

عقيدتك أن تدعوه وحده تعالى: ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾[١].

عقيدتك الخوف من الله وحده قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[٢].

عقيدتك أن ترغب وترهب وتخشع من الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[٣].

عقيدتك أن تستغيث بالله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[٤].

عقيدتك أن لا تذبح ولا تنذر إلا لله سبحانه وتعالى.

خامساً: العقيدة الصحيحة سبب لدخول الجنة.

عن عمران بن حصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ من عينٍ أَوْ حُمَةٍ. فذكرته لسعيد بن جبيرٍ فقال حدَّثنا ابن عَبَّاسٍ قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عرضت على الأُمم، فجعل النبي والنَّبيَّان يمرُّونَ معهم الرَّهْطُ، والنبي ليس معه أَحدٌ، حَتَّى رُفع لي سوادٌ عظيمٌ، قلت ما هذا أمتي هذه قيل هذَا موسى وقومهُ. قِيلَ انظر إِلى الأفق.

فإِذا سوادٌ يملأُ الأُفق، ثُمَّ قيل لي انظر ها هنا وها هنا في آفَاقِ السماءِ فإِذا سوادٌ قد ملأَ الأُفق قيل هذه أُمَّتك ويدخل الْجنة من هؤُلاَءِ سبعونَ أَلْفًا بِغير حسابٍ، ثُمَّ دخل ولم يبين لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ، وَاتَّبَعْنَا

(١) سورة غافر: آية (٦٠).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٧٥).
(٣) سورة الأنبياء: آية (٩٠).
(٤) سورة الأنفال: آية (٩).

رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلاَمِ فَإِنَّا وُلِدْنَا في الْجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النبي ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ «نَعَمْ». فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ «سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ»[١].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةِ الْبَدْرِ فَاسْتَزَدْتُ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»[٢].

قوله: «لا يسترقون» أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليه إذا أصابهم شيء.

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنَّة قلت: بلى. قال هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت إني أصرع، وإني أتكشف فادع الله لي. قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت أصبر. فقالت إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها[٣].

وقوله: «ولا يكتوون» أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم إذا مرضوا.

وقوله: «ولا يتطيرون» أي: لا يتشاءمون وعلى ربهم يتوكلون أي: يعتمدون على الله وحده.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» فلا يسترقون أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لأنهم معتمدون على الله ولأن الطلب فيه شيء من الذل لأنه سؤال الغير فربما تخرجه ولا يريد أن يقرأ وربما إذا قرأ عليك لا يبرأ المرض فتتهمه وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).
(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

والتوكل على الله تعالى: الاعتماد على الله تعالى كفاية وحسبًا في جلب المنافع ودفع المضار، وهو من تمام الإيمان وعلاماته لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]، وإذا صدق العبد في اعتماده على الله تعالى كفاه الله تعالى ما أهمه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[2]، أي: كافيه، ثم طمأن المتوكل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ فلا يعجزه شيء أراده.

والتوكل أنواع:

الأول: التوكل على الله تعالى وهو من تمام الإيمان وعلامات صدقه، وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به.

الثاني: توكل السر بان يعتمد على ميت في جلب منفعة أو دفع مضرة، فهذا شرك أكبر، لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سريًا في الكون.

الثالث: التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل عنه، مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش ونحوه، فهذا نوع من الشرك الأصغر لقوة تعلق القلب به الاعتماد عليه.

---

(١) سورة المائدة: آية (٢٣).
(٢) سورة الطلاق: آية (٣).

القطفة الخامسة والثلاثون: معرفة العقيدة الإسلامية (٢)

أولاً: تعريف الإسلام.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.

بأن يستسلم العبد لربه استسلاماً شرعياً، وذلك بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وهذا الإسلام هو الذي يحمد عليه العبد ويثاب عليه، والانقياد له بالطاعة، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لأن الطاعة طاعة في الأمر بفعله وطاعة في النهي بتركه.

فالله سبحانه لا يقبل من أحد إلا الإسلام، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩**﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥**﴾[(٢)].

فمَن لم يؤمن برسولنا ﷺ كان من أصحاب النار؛ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٩).
(٢) سورة آل عمران: آية (٨٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٥٣).

واليوم نقف عند حديث من أحاديثه رسولنا ﷺ، قال القاضي عياض في هذا الحديث: «وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشبعة منه»[١].

وقال النووي: «بل هو أصل الإسلام»[٢].

وقال القرطبي: «هذا الحديث يصلح أن يُقال له أم السنَّة؛ لِمَا تضمَّنه من جُمل علم السنَّة»[٣].

عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهني، فانطلقتُ أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميريُّ حاجَّين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمَّا يقول هؤلاء في القدر.

فوفِّقَ لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفتُهُ أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والأخر عن شماله، فظننتُ أنَّ صاحبي سيكلُ الكلام إليَّ.

فقلت: أبا عبدالرحمن إنَّه قد ظَهَرَ قِبَلَنَا ناسٌ يقرؤون القرآن ويتقفَّرون العلم -وذكر من شأنهم- وأنَّهم يزعُمُون أن لا قَدَرَ، وأنَّ الأمْرَ أُنُفٌ.

فقال: فإذا لَقِيتَ أولئك فأخبرهم أنِّي بريءٌ منهم، وأَنَّهم بُرآءُ منِّي، والذي يَحلِفُ به عبدالله بن عمر لو أنَّ لأحدهم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً فأنْفَقَهُ، ما قَبِلَ اللهُ منهُ حتى يُؤمنَ بالقَدَرِ.

(١) شرح صحيح مسلم، النووي (١/ ١١٢).
(٢) المصدر السابق (١/ ١١٢).
(٣) فتح الباري، ابن حجر (١/ ١٢٥).

ثمَّ قال: حدَّثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يومٍ، إذ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدٌ بَيَاضِ الثِّيابِ، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفرِ، ولا يعرِفُهُ منَّا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيْه، وقال: يا محمدُ أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**».

قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدِّقُهُ. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أن تَلِدَ الأمةُ ربَّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العَالة، رعاء الشَّاء، يتطاولون في البُنيان». قال: ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا. ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

ثانيـًا: أول من قال بالقدر.

قوله: «أول من قال في القدر» فمعناه أول من قال بنفي القدر، فابتدع وخالف الصواب الذي عليه أهل الحق.

ومذهب أهل السنة والجماعة أثبات القدر: أن الله سبحانه قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى.

وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه بها، وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها.

وهنالك فرقة ثانية هي الجبرية التي تقول أن الإنسان مجبر على عمله، كلاهما زل.

أوَّل الأمور التي فُسِّر بها الإسلام شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وشهادة أنَّ محمداً رسول الله، وهاتان الشهادتان متلازمتان، وهما لازمتان لكلِّ إنسيٍّ وجنيٍّ من حين بعثته إلى قيام الساعة.

وشهادة أن لا إله إلاَّ الله معناها لا معبود حقٌّ إلاَّ الله، وكلمة الإخلاص تشتمل على ركنين: نفي عام في أولها، وإثبات خاص في آخرها، ففي أوَّلها نفي العبادة عن كلِّ من سوى الله، وفي آخرها إثبات العبادة لله وحده لا شريك له، وخبر «لا» النافية للجنس تقديره «حق»، ولا يصلح أن يُقدَّر «موجود»؛ لأنَّ الآلهة الباطلة موجودةٌ وكثيرة، وإنَّما المنفيُّ الألوهية الحقَّة، فإنَّها منتفيَةٌ عن كلِّ من سوى الله، وثابتة لله وحده.

ومعنى شهادة أنَّ محمداً رسول الله، أن يُحبَّ فوق محبَّة كلِّ محبوب من الخلق، وأن يُطاع في كلِّ ما يأمر به، ويُنتهى عن كلِّ ما نهى عنه، وأن تُصدَّق أخباره كلُّها، سواء كانت ماضيةً أو مستقبلةً أو موجودةً، وهي غير مشاهدة ولا معاينة، وأن يُعبد الله طبقـًا لِمَا جاء به من الحقِّ والهدى.

وإخلاصُ العمل لله واتّباع ما جاء به رسول الله هما مقتضى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، وكلُّ عمل يُتقرَّب به إلى الله لا بدَّ أن يكون خالصـًا لله ومطابقـًا لسنة رسول الله، فإذا فُقد الإخلاصُ لم يُقبل العمل.

أنَّ عبدالله بن مسعود وقف على أناس في المسجد متحلِّقين وبأيديهم حصى، يقول أحدُهم: كبِّروا مائة، فيكبِّرون مائة، فيقول: هلِّلوا مائة، فيُهلِّلون مائة، ويقول: سبِّحوا مائة، فيُسبِّحون مائة، فقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبدالرحمن! حصى نعدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعُدُّوا سيِّئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، وَيْحكم يا أُمَّة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابةُ نبيِّكم متوافرون، وهذه ثيابه لَم تَبْلَ، وآنيته لم تُكسر، والذي نفسي بيده! إنَّكم لعلى مِلَّة هي أهدى من ملَّة محمد أو مفتتحو باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبدالرحمن! ما أردنا إلاَّ الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يُصيبه»[١].

وقوله: «فعجبنا له يسأله ويصدقه» سبب تعجبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل، إنما هذا كلام خبير بالمسؤول عنه، ولم يكن في ذلك الوقت من يعلم هذا غير النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٤)، والأثر صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠٥).

فمن معتقد أهل السنة والجماعة أن الإيمان هو اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأنه يزيد وينقص. خلافاً للمرجئة والمعتزلة والخوارج.

ثالثاً: أسباب زيادة الإيمان كثيرة، منها:

١- معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.

٢- النظر في آيات الله الكونية والشرعية: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[١].

٣- كثرة الطاعات وإحسانها، لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

٤- ترك المعصية تقرباً لله عز وجل؛ فإن الإنسان يزداد بذلك إيماناً بالله عز وجل.

قوله في بيان الإحسان: أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، والمعنى أن تعبدَه كأنَّك واقفٌ بين يديه تراه، ومن كان كذلك فإنَّه يأتي بالعبادة على التمام والكمال، وإن لم يكن على هذه الحال فعليه أن يستشعر أنَّ اللهَ مطَّلع عليه لا يخفى عليه منه خافية، فيحذر أن يراه حيث نهاه، ويعمل على أن يراه حيث أمره[٢].

---

(١) سورة الغاشية: آية (١٧-٢٠).
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (١/ ١٢٦).

فالعبادة مبنية على هذين الأمرين: غاية الحب، وغاية الذل، ففي الحب الطلب، وفي الذل الخوف والهرب، فهذا هو الإحسان في عبادة الله عز وجل.

فقوله في تفسير الإحسان: (أن تعبدَ الله كأنَّك تراه) إلخ يشير إلى أنَّ العبدَ يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنَّه بين يديه كأنَّه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة (أن تخشى الله كأنَّك تراه)، ويُوجب أيضاً النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.

قوله: فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، قيل: إنَّه تعليل للأول؛ فإنَّ العبدَ إذا أُمر بمراقبة الله في العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأنَّ العبد يراه، فإنَّه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأنَّ الله يراه، ويطَّلع على سرِّه وعلانيته، وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا حقَّق هذا المقام سهُل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيَّته حتى كأنَّه يراه، وقيل: بل هو إشارة إلى أنَّ مَن شقَّ عليه أن يعبدَ الله كأنَّه يراه، فليَعبُدِ اللهَ على أنَّ الله يراه ويطَّلع عليه، فليستحيي من نظره إليه.

قوله: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، وأن ذلك لا ينقصه بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه.

أن اللّه تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾[1]، وقد يطلع اللّه عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة، من الأمور التي طوى علمها

(١) سورة الأنعام: آية (٧٣).

عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلا عن غيرهما: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

وقوله: «أن تلد الأمة ربتها» يعني السراري: سيدها ومالكها وسيدها ومالكها، وهو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها.

المراد به: أن يستولي المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسري فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه وعلى هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسري.

وقوله: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» أما العالة فهم الفقراء، ورعاء الشاء: أي أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان.

أي: أنَّ الفقراء الذين يرعون الغنم ولا يجدون ما يكتسون به تتغيَّر أحوالُهم، وينتقلون إلى سكنى المدن ويتطاولون في البنيان، وهاتان العلامتان قد وقعتا.

ليس كل ما أخبر ﷺ بكونه من علامات الساعة يكون محرمًا أو مذمومًا، فإن تطاول الرعاء في البنيان وفشو المال وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد ليس بحرام بلا شك، وإنما هذه علامات، والعلامة الا يشترط فيها شيء من ذلك بل تكون بالخير والشر والمباح والمحرم والواجب وغيره.

---

(١) سورة لقمان: آية (٣٤).

القطفة السادسة والثلاثون: شروط القتال وأهدفه

أولاً: حكم الجهاد في سبيل الله.

لما استقر النبي ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، وحاربه من حاربه، والله تعالى يأمرهم الصبر والعفو، حتى قويت شوكتهم فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[2].

وبعد ذلك فرض عليهم قتال المشركين كافة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

كثير من الناس يفهم القتال فهماً خاطئاً: فمنهم من يظن أن القتال في سبيل الله هو عرضٌ للعضلات على رجال الأمن في البلد التي يعيشون فيها، وهذا خطأ كبير.

ومنهم من يظن أن القتال في سبيل الله هو عبارة عن التخريب والاعتداء على المنشآت في البلد الذي يعيشون فيه.

---

(١) سورة الحج: آية (٣٩).
(٢) سورة البقرة: آية (١٩٠).
(٣) سورة التوبة: آية (٣٦).

ومنهم من يظن أن القتال في سبيل الله هو عبارة عن اغتيال الشخصيات البارزة في المجتمع الذي يعيشون فيه.

إن الجهاد هو شعيرة من شعائر الإسلام، وهو واجب من واجباته، ومن أنكره فهو على خطر عظيم، فالجهاد ليس فوضى، وليس ثورة نفسية وعواطف جامحة، ينطلق من ورائها أفراد كثيرون من المسلمين، ثم لا يريدون إلا الهلاك دون أن يفيدوا لهذا شيئاً مذكوراً.

ثانيـًا: أمران مهمان في الجهاد.

الأمر الأول: مسائل الدماء لا يفتي بها إلا كبار العلماء وخواصهم، كأمثال الشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ محمد بن ناصر الألباني، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ بكر بن زيد، ومن على شاكلتهم من العلماء، لا ما نراه اليوم من تصدر هذا الأمر أناس جهالاً لا يفقهون من الدين شيئـًا.

لهذا جاء في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه من حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق. ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين. وينطق فيها الرويبضة» قيل: وما الرويبضة. قال: «الرجل التافه في أمر العامة»[1]. يعني يتكلم في أمور الأمة.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

وأيّاك يا عبد الله أن تنتقص من علماء الأمة أو أن تلمز بهم فأن لحومهم مسمومة، قال ابن عساكر: «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالقلب، ابتلاه الله قبل موته بموت قلبه»[1].

يطعنون بالعلماء على سبيل المثال: علماء السلاطين -علماء الحيض والنفاس- عملاء -عبيد- لا يفقهون الواقع -علماء الكراسي-، فالطعن في العلماء هي سمة من سمات أهل البدع.

محبة العلماء من السنة، ومن خالفهم فهو مبتدع، قال قتيبة: إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث مثل: يحيى بن سعيد وعبدالرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه -وذكر قوماً آخرين- فإنه على السنة ومن خالف هؤلاء فاعلم إنه مبتدع[2].

عباد الله: فالجهاد من الدين وما دام أنه كذلك، فلابد من التفقه في مسائله.

فالجهاد ليس هو عبارة عن حمل السلاح وتمضي تقاتل وتطلق على نفسك أنك تجاهد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[3].

فَنَفَى الله أَنْ يَنْفِر المسلمون كلُّهم إلى الجهاد، ولكن يَنْفِرَ طائفةٌ ويبقى طائفةٌ لتتعلَّم؛ حتى إذا رجع قومُهم إليهم أخبروهم بما عندهم من الشَّرع، فعدل الله سبحانه بين العلم والجهاد، وقال بعض أهل العلم أن طلب العلم الشرعي

---

(١) تنبيه كذب المفتري، ابن عساكر ص (٢٩).
(٢) أخرجه اللالكائي (٥٩).
(٣) سورة التوبة: آية (١٢٢).

أفضل من الجهاد لأن الجهاد حكم من أحكام الشريعة، فلا يمكن الوصول إليه إلا بتعلمه.

الأمر الثاني: والجهاد تابع للمصلحة: فسيرة النبي ﷺ واضحة في الجهاد، فلم تكن على سنن واحدة مطلقـًا، فلم يكن يقاتل الأعداء في كل الأوقات، بل قاتل أحيانـًا، وأحيانـًا كف وأمسك، فحيثما كانت المصلحة في القتال قاتل، وحيثما كانت المصلحة في مجانبة القتال كف وأمسك.

ثالثـًا: شروط الجهاد.

والجهاد لابد من توفر شروطه حتى يمكن أن نسميه جهاداً، ومن تلك الشروط: إذن الوالدين، ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**» فقال أبواي قال: «**أذنا لك؟**» قال لا قال: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ وَإِلَّا فَبِرَّهُمَا**»[1].

ومن شروطه: إذن ولي الأمر، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ**»[2]، وإذا كان الجهاد بإذن ولي الأمر وبمشورة العلماء نجح بإذن الله.

وأيضـًا من شروطه: وضوح الراية، وهو من آكد شروط الجهاد، فالراية التي ينبغي أن يقاتل المسلم تحتها هي الراية التي تحقق مقصود الجهاد وهو أن يكون الدين لله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والكتاب والسنة مملوءان بالأمر بالجهاد

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٢١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧).

وذكر فضيلته، لكن يجب أن يُعرف الجهاد الشرعي الذي أمر الله به ورسوله من الجهاد البدعي جهاد أهل الضلال الذين يجاهدون في طاعة الشيطان، وهم يظنون أنهم مجاهدون في طاعة الرحمن؛ كجهاد أهل البدع والأهواء كالخوارج ونحوهم الذين يجاهدون في أهل الإسلام»[1].

وقد جاءت الأدلة من الكتاب والسنة تبين لنا الأهداف السامية التي من أجلها شرع القتال في سبيل الله.

١- لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ليعبد الله وحده في الأرض، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[2].

وقال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[3].

وقال ﷺ: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك**

(١) الإخنائية أو الرد على الإخنائي، ص (٤٧٤-٤٧٥).
(٢) سورة التوبة: آية (٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[١].

٢- رد اعتداء المعتدين الذين يعتدون على بلاد المسلمين، وأموال المسلمين وأعراض المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ ﴾[٢].

٣- إرهاب الكافرين وإذلالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[٣]. فلما نزلت آية الجزية أخذها من ثلاث طوائف: من المجوس واليهود والنصارى، ولم يأخذها من عباد الأصنام؛ فقيل: لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ومن دان بدينهم اقتداءً بأخذه وتركه.

وقيل: بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار كعبدة الأصنام من العجم دون العرب. والأول قول الشافعي وأحمد في إحدى روايتيه، والثاني قول أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) سورة البقرة: آية (١٩٠).
(٣) سورة التوبة: آية (٢٩).
(٤) انظر: المبسوط، السرخسي (١٠/ ٧)، والأم، الشافعي (٥/ ٤٠٢)، والإنصاف، المرداوي (١٠/ ٣٩٤).

رابعـًا: من آداب القتال في الإسلام.

١ - إحسان القتل لقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة..»[١].

٢- أن لا يقتلوا النساء والصبيان، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ فنهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٢].

٣- أن لا يحرقوا بالنار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: «**إن وجدتم فلانـًا وفلانـًا فأحرقوهما بالنار**»، ثم قال ﷺ حين أردنا الخروج: «**إني أمرتكم أن تحرقوا فلانـًا وفلانـًا، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموها فاقتلوهما**»[٣].

٤- النهي عن المثلة، لقوله ﷺ: «**ولا تمثلوا**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٥٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٣١).

القطفة السابعة والثلاثون: غزوة بدر

لما استقر النبي ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، وحاربه من حاربه، والله تعالى يأمرهم بالصبر والعفو، حتى قويت شوكتهم فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾[1].

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾[2].

وبعد ذلك فرض عليهم قتال المشركين كافة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾[3].

عن أبي إسحاق «كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له كم غزا النبي ﷺ من غزوة قال تسع عشرة قيل كم غزوت أنت معه قال سبع عشرة قلت فأيهم كانت أول قال العسيرة أو العشير فذكرت لقتادة فقال العشير»[4].

قال ابن إسحاق: أول ما غزا النبي ﷺ الأبواء ثم بُواط ثم العُشيرة[5].

---

(١) سورة التوبة: آية (٣٩).
(٢) سورة البقرة: آية (١٩٠).
(٣) سورة التوبة: آية (٣٦).
(٤) أخرجه البخاري (٣٩٤٩).
والعُشيرة: مكانها عند منزل الحج بينبع ليس بينها وبين البلد إلا الطريق، وخرج في خمسين ومائة، وقيل: مائتين، واستخلف فيها أبا سلمة بن عبدالأسد. فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٣٣٥).
(٥) أخرجه البخاري تعليقاً (٧/ ٣٣٥).

أولاً: سبب غزوة بدر.

وصلت الأنباء إلى المدينة أن قافلة ضخمة لقريش عائدةٌ من الشام إلى مكة تحمل لأهلها الثروة الطائلة، يقودها أبو سفيان مع رجال لا يزيدون عن الثلاثين أو لا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين.

ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه: «**هذه عير قريش، فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلكموها**»[(١)].

وأراد رسولنا ﷺ بذلك أن يضرب اقتصاد قريش لأن هذه الأموال يحاربون بها الإسلام والمسلمين، ويعوض أصحابه ما تركوا من الأموال التي تركوها كراهية، ثم إن النبي ﷺ لم يأمر ويعزم أحد على الخروج لذلك، وإنما ترك الأمر للرغبة.

وخرج المسلمون إلى بدر وهم ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، منهم مائة من المهاجرين وبقيتهم من الأنصار، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرسٌ للمقداد بن الأسود، وفرسٌ للزبير بن العوام رضي الله عنهما.

وكان معهم سبعون بعيراً يتعقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، حتى رسول الله ﷺ كان له زميلان يتعاقبان بعيراً.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ قال فقالا نحن نمشي عنك فقال: «**ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة، ص (٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٠١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة، ص (٢١٩).

وقد بلغ أبو سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها في طريق الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم.

فقام أشراف مكة يحثون أهل مكة على أن ينفروا سراعـًا، ليخلِّصوا تجارتهم من محمد ﷺ وأصحابه، فخرجوا في نحو الألف معهم مائة فارس ومعهم المغنيات يضربن الدف، ويغنين بهجاء المسلمين.

وخرجوا من ديارهم كما أخبر الله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، ولما رأى أبو سفيان أنه قد نجا وأحرز العير، كتب إلى قريش أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتُحرزوا عيركم وقد سلَّمها الله، فوصلهم الخبر وهم بالجحفة فهموا بالرجوع إلا أن أبا جهل أصرَّ على الخروج والوصول إلى بدر قائلاً: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنقيم عليها ثلاثـًا ننحر الجُزر ونطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القيان.

ولما وصل الخبر رسولنا ﷺ أن كفار قريش قد خرجوا لملاقاتهم، وأن العير قد نجت وهي على مشارف مكة استشار أصحابه في لقاء العدو.

فقال بعضهم: ما خرجنا إلا للعير، وما أردنا النفير ولم نستعد له، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾[2].

(١) سورة الأنفال: آية (٤٧).
(٢) سورة الأنفال: آية (٥-٧).

فاستشار ﷺ عامة وقصد الأنصار خاصة، فاستشار الناس وأخبرهم قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم أكثر عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم[(١)].

ثانياً: يوم الفرقان.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[(٢)].

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا) أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، (وهم بالعدوة القصوى) أي: جانبه البعيد من المدينة فقد جمعكم واد واحد، (والركب) الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره (أسفل منكم) مما يلي ساحل البحر.

وبات الجيش المسلم ليلة الجمعة ليلة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ببدرٍ يرتقب هجوم العدو الكافر في أي ساعة، فطار النوم من عيون المسلمين، وخافت قلوبهم، فأرسل الله عليهم النعاس، فناموا تلك الليلة حتى احتلم بعضهم، فلما أصبحوا ولا ماء أنزل الله عليهم من السماء ماءً فكان على المشركين وبالاً شديداً منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٢٦٢-٢٦٣)، وصحح الرواية الدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٥٨-٣٥٩).
(٢) سورة الأنفال: آية (٤١-٤٤).

وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت به الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[١].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كذاك -أي: كفاك- مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[٢]، فأمده الله بالملائكة[٣].

بدأ القتال بمبارزات فردية، فقد تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه الوليد وأخوه شيبة طالبين المبارزة، فانتدب لهم شباب من الأنصار فرفضوا مبارزتهم، طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول ﷺ حمزة وعلياً وعبيدة بن الحارث بمبارزتهم.

وقد تمكن حمزة من قتل عتبة، ثم قتل علي شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد وجرح كل منهما صاحبه فعاونه علي وحمزة فقتلوا الوليد واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين[٤].

(١) سورة الأنفال: آية (١١).
(٢) سورة الأنفال: آية (٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٤) انظر: سنن أبي داود (٢٦٦٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٣٢١).

وقد أثرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش وبدأوا بالهجوم، فأمر رسولنا ﷺ بنضح النبل، وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفا من الحصباء فاستقبلنا به فرمانا بها قال: شاهت الوجوه فانهزمنا فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(١)].

عند ذلك قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، قال يقول عمير بن الحُمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما حملك على قولك بخ بخ؟**»، قال: رجاء أن أكون من أهلها، فقال: «**فأنت من أهلها**»، فأخرج تمرات ليأكلها فجعل يأكلها، ثم قال لئن أنا حييتُ حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، ثم رمى التمرات، وأقبل على القوم فدخل في صفوفهم فقاتلهم حتى قُتل[(٢)].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربه بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخبر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت ذلك مدد السماء الثالثة**»[(٣)].

---

(١) سورة الأنفال: آية (١٧).
أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٠٣/ رقم٣١٢٨)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة، ص (٢٢٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

ولما جيء بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم فقال: الأنصاري أنا أسرته يا رسول الله فقال: «اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم»[1].

فحق الله الحق قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٨)، والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر.
(٢) سورة الأنفال: آية (٧-٨).

القطفة الثامنة والثلاثون: ثمرات ونتائج غزوة بدر

أولاً: ثمرات غزوة بدر.

فغزوة بدر لها ثمرات كثيرة، منها:

١- أن الله مع المؤمنين وإن كانوا قلة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾[(١)].

٢- أن الله يغيث أولياءه، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾[(٢)].

بخلاف الكفار الذين زين لهم الشيطان ثم تبرأ منهم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾[(٣)].

٣- تمييز الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾[(٤)].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٤٩).
(٢) سورة الأنفال: آية (٩-١٠).
(٣) سورة الأنفال: آية (٤٨).
(٤) سورة الأنفال: آية (٣٦-٣٧).

٤- التحذير من التولي يوم الزحف.

فالتولي هو الأعراض والانصراف والإدبار، وأن الزحف هو المشي رويداً أي: ببطٍ شديد ويقال للجيش، جيش زاحف لأنه يرى كأنه يمشي ببطٍ شديد لأنه يتحرك.

يقول الله تعالى ناهياً عن التولي يوم الزحف: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

أي صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض، ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾، بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ وهذا يدل على أن الفرار من الزحف، من غير عذر، من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

٥- متى يجوز الفرار من المعركة؟

وقد أخبر النبي ﷺ أن التولي يوم الزحف من الموبقات ويستثنى من ذلك في حالتين التي ذكرها الله سبحانه:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال بمعنى أن ينصرف؛ ليعمل من أجل القتال، كأن يستطرد لعدوه فإذا لحقه كرّ عليه فقتله.

(١) سورة الأنفال: آية (١٥-١٦).

الثانية: أن يكون منحازاً إلى فئة، بحيث يذكر له أن فئة من المسلمين من الجانب الآخر تكاد تنهزم، فيذهب من أجل أن يتحيز إليها تقوية لها، وهذه الحال يشترط فيها ألاَّ يَخَاف على الفئة التي هو فيها، فإن خاف على الفئة التي هو فيها فإنه لا يجوز أن يذهب إلى الفئة الأخرى، فيكون في هذه الحال فرض عين عليه لا يجوز له الانصراف عنه.

ثم بيّن الله تعالى العدد الذي لا يجوز تولي الأدبار أمامه، فيقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد اللّه للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة اللّه وإظهار دينه، والذب عن كتاب اللّه، وحصول الفوز الأكبر عند اللّه. وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه اللّه على العباد فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ بعونه وتأييده.

---

(١) سورة الأنفال: آية (٦٥).

ثانياً: نتائج الغزوة.

١ - النصر العظيم للمؤمنين على الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

٢ - هلاك أئمة الكفر.

هلاك أبي جهل وأمية بن خلف وأسر سبعين رجلاً من المشركين، والغنائم الكثيرة، واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً، اتخذهم الله شهداء فضلاً منه ونعمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[2].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فقالت يا نبى الله، ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة، صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[3].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٢٣-١٢٦).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).

القطفة التاسعة والثلاثون: غزوة بني قينقاع

اليوم مع لقاء جديد من السيرة النبوية، وسيكون اليوم عن غزوة بني قينقاع، فرسولنا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ عندما هاجر من مكة إلى المدينة فبدأ ببناء المسجد وآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم عقد معاهدة مع اليهود في المدينة تنص المعاهدة على أن لليهود الحرية الكاملة في دينهم وعقائدهم وتضمن لهم أن يعيشوا في جوار النبي ﷺ في سلم وسلام، وأمن وأمان.

وكان من مقتضى هذه المعاهدة، أن يكون المسلمون واليهود يداً واحدة ضد كل عدو يقصد المدينة بسوء، وأن يحافظ الجميع على الأمن الداخلي في المدينة، وأخذ النبي ﷺ يحث المسلمون على الوفاء ويحذرهم من الغدر والخيانة، فعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامـًا**»[(١)].

وقال ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئـًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**»[(٢)].

فحافظ النبي ﷺ والمسلمون على هذه المعاهدة، ولم يأت من المسلمين ما يخالف حرفـًا واحداً من نصوصها، ولكن اليهود تأريخهم مليء بالغدر والخيانة ونكث العهود.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

بعد أن منَّ الله تعالى على المسلمين فنصرهم في بدر، وقد قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين، وعندما وصل الخبر مكة صعقوا به، ولم يزدهم هذا إلا كرهـاً للإسلام ونقمة على محمد ﷺ وصحبه.

ولما وصلت أخبار النصر إلى المدينة؛ لم يصدق الخبر المنافقون والمشركون واليهود حتى أنهم اتهموا المسلمين الذين يذيعون الخبر بالكذب، حتى جاء جيش الإسلام من بدر وأعلام النص ترفرف عليه، والأسرى مقرنين في الأصفاد، والغنائم بين أيديهم، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً، وقلوبهم تغلي حقداً وحسداً وكفراً، وعلى رأسهم عبدالله بن أُبي بن سلول.

كفار مكة بعد هزيمتهم في بدر، يفكرون في الانتقام من محمد ﷺ وأصحابه، ولكنهم يريدون أن يكون ذلك عن طريق اليهود في المدينة، فأرسلوا إليهم تهديداً، إذا لم تقتلوا محمداً فعلنا بكم كذا وكذا، فلما وصل الخبر إلى اليهود في المدينة بدأ الغدر ونقض العهود والمواثيق والخيانة، وأول من نقض العهد يهود بني قينقاع.

كتبت كفارُ قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود إنكم أهل الحَلْقة، والحُصُون وإنكم لتُقاتلُنَ صاحبَنَا أو لنفعلنَ كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيءٌ -وهي الخلاخيل-...[1].

ولما وصل الكتاب إلى اليهود في المدينة أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ وأصحابه، وأول من نقض العهد وغدر؛ هم يهود بني قينقاع، وكانوا يسكنون داخل المدينة -في حي باسمهم- وكانوا صاغة وحدادين وكانت عندهم خبرةٌ بالقتال وصنع السلاح، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة مقاتل.

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٤)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٩٥).

وبعد أن نصر الله تعالى المسلمين في بدر أخذ يهود بني قينقاع يثيرون الشغب ويتعرضون لهم بالسخرية، حتى كانوا يتعرضون لنسائهم، فعن أبي عون قال: كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[١].

عباد الله هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم أصحاب غيرة على دين الله وعلى حرمات الله وعلى أعراض المؤمنين، وهكذا كانوا أجدادنا -رحمهم الله- كانوا رجالاً.

وعن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربتُهُ بالسيف غير مُصْفَح[٢] فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني**»[٣].

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣** ﴾[٤].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[٥].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ٥).
(٢) أي: غير ضارب بصفح السيف وهو جانبه بل أضربه بحده.
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٤) سورة الأعراف: آية (٣٣).
(٥) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

عباد الله: الغدر ونقض العهود ليس من فعل المسلمين، إنما هو من فعل اليهود والذين أشركوا، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان**»[1].

فمعنى لكل لواء غادر أي علامة يشهر بها في الناس، وأما الغادر فإنه الذي يواعد على أمر ولا يفي به.

ولم يكتفوا بذلك بل قالوا لرسول الله ﷺ يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا.

فأنزل الله تعالى قرآناً ينذر هؤلاء بسوء المنقلب: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾** ﴾[2].

وبفعلهم لهذا الأمر إعلان سافر بنقض العهود والمواثيق التي قطعوها مع رسول الله ﷺ، فلما وقع منهم ذلك سار إليهم رسول الله ﷺ بالكتائب المسلمة، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فأراد قتلهم فاستوهبهم منه عبدالله بن أبي، رأس النفاق وزعيم المنافقين وكانوا حلفاءه فوهبهم له.

وأمرهم النبي ﷺ أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات بالشام، ولم يبقوا هنالك طويلاً حتى هلك أكثرهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣٥).

(٢) سورة آل عمران: آية (١٢-١٣).

لم يعتبر باقي اليهود بما أصاب كفار قريش في بدر من القتل والأسر، ولا بما أصاب بني قينقاع من الجلاء عن المدينة، ومن هؤلاء اليهود الذين مكروا بالإسلام والمسلمين مكراً سيئًا كعب بن الأشرف، وكان هذا اليهودي من أشد اليهود حنقًا على الإسلام والمسلمين، وإيذاءً لرسول الله ﷺ وتظاهراً بالدعوة إلى حربه، وهذا اليهودي كان من يهود بني النضير، وكان غنيًا مترفًا، معروفًا بجماله في العرب، وكان شاعراً من شعرائها.

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش في بدر قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس والله إن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم بل أخذ يتغزل بنساء الصحابة في شعره، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على أحد أشرافهم وجعل ينشد الأشعار، يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويزكي حقدهم على النبي ﷺ ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً فقال عدو الله أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة النساء: آية (٥١-٥٢).

ثم رجع كعب بن الأشرف اليهودي إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب -أي يتغزل- في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بصلاقة لسانه أشد الإيذاء.

عن جابر بن عبدالله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**» فقال محمد بن مسلمة يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: تأذن لي أن أقول شيئًا قال: «قل»، فأتاه محمد بن مسلمة، فقال إن هذا الرجل قد أراد صدقة، وقد عنانا -أي: أوقعنا في العنت والحرج وكلفنا ما لا نجد- فقال كعب وقد بدى البشر على وجهه مما سمع من محمد بن مسلمة في حق النبي ﷺ: والله لتملُنهُ.

فقال محمد بن مسلمة: إنا قد اتبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، وقد أردت أن تسلفني سلفًا.

قال كعب: فما ترهنني؟ قال ما تريد. قال ترهنني نساءكم. قال أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا؟ قال له ترهنوني أولادكم. قال محمد بن مسلمة: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين. قال كعب: فماذا ترهنوني؟ قال ابن مسلمة نرهنك اللأمة -يعني السلاح-. قال كعب: نعم.

ثم وعده محمد بن مسلمة أن يأتيه في الليلة القادمة ببعض رجال على مثل ما هو عليه في محمد ﷺ.

فجاءه في الليلة التالية وهم متسلحون فدعوه ليلاً لينزل إليهم فقالت امرأته: أني لأسمع صوتًا كأنه صوت دم. فقال كعب لها: إنه أخي محمد بن مسلمة ورضيعي -أي أخي في الرضاعة- أبو نائلة، ولو دعي الفتى لطعنة ليلاً لأجاب فنزل.

فقال محمد بن مسلمة لأصحابه قبل أن ينزل إليهم: إني سأمد يدي إلى رأسه فإذا استمكنت منه فدونكم فاقتلوه. فلما نزل كعب نزل متوشحًا، تفوح من رائحة الطيب.

فقالوا: نجد منك ريح الطيب؟ فقال كعب: نعم عندي أعطر نساء العرب.

فقال محمد بن مسلمة: أتأذن لي أن أشم فوضع يده في رأسه فمسح رأسه بيده ليأخذ من طيب رأسه ثم شمها، ثم ساروا قليلاً ثم عاد محمد بن مسلمة فقال: أتأذن لي أن أعود فأشم؟ قال كعب: نعم شمَّ، فوضع يده في رأسه، فلما استمكن من رأسه قال لأصحابه: دونكم فاقتلوه فقتلوه[1].

نزلت السيوف على جسد كعب بن الأشرف فوقع عدو الله قتيلاً، وقد صاح صيحة أفزعت من حوله من اليهود فلم يبق حصنٌ إلا أوقد النار.

وعلى المسلمين أن يفهموا الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة الصحابة رضي الله عنهم الشباب المتحمس والمتعجل الذي يفهم الكتاب والسنة بعواطفه.

ويستدل بقتل كعب بن الأشرف اليهودي على علميات الاغتيال للحكام ورجال الأمن، وهذا خطأ كبير لا يقره الشرع والدين، لأن قتل كعب كان بأمر من النبي ﷺ.

وكان يهوديًا مناقضًا للعهد والميثاق الذي وثقه مع رسول الله ﷺ، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، ولم تكن هنالك مفسدة في قتله، وإنما لم يستطع يهودي واحد أن يتكلم أو يتحرك بعدما رأوا قتل كعب بن الأشرف، بل دخلوا في حصونهم ودب الرعب في قلوبهم.

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

القطفة الأربعون: غزوة بني النضير

بعد غزوة بدر الكبرى أرسل كفار مكة كتاباً إلى اليهود في المدينة يهددونهم بكذا وكذا إذا لم يقتلوا محمداً ﷺ، فلما وصل الكتاب إلى اليهود في المدينة، أجمعت بنو النضير على الغدر ونسوا ما بينهم وبين النبي ﷺ من العهد والميثاق، وبنو النضير طائفة كبيرة من اليهود، كانوا يسكنون في جانب المدينة، كان عدد مقاتليهم ألف وخمسمائة مقاتل.

وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر[1].

السبب هو محاولة اغتيال رسول الله ﷺ فقد أرسل بنو النضير إلى النبي ﷺ أخرج لنا في ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً؛ حتى نلتقي بمكان المنصف؛ فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنا بك وهم بذلك يريدوا أن يغتالوا رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

فنزل الوحي على نبينا ﷺ وأخبره الخبر، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بكتائب الجيش المسلم، فلما رأوا الجيوش قد زحفت إليهم فروا هاربين إلى حصونهم، وكانت حصونهم منيعة، فأغلقوا أبوابهم وتحصنوا بها، وحاصرهم النبي ﷺ، وبعث إليهم رسولنا ﷺ: «إن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه»، فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي بن سلول: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي

(١) أخرجه البخاري تعليقاً كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ووصله عبدالرزاق (٩٧٣٢).

(٢) سورة آل عمران: آية (٥٤).

ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».

وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق.

فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم، وذراريهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ، الأموال والسلاح.

فأمر النبي ﷺ بقطع النخيل وتحريقها فدبَّ الخوف في نفوسهم وملأ الرعب قلوبهم وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فسألوا رسول الله ﷺ أن ينزلوا على أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح فوافق الرسول ﷺ على عرضهم هذا.

فجعل الرجل يهدم بيته بيده ويحمل الأبواب والشبابيك معه وخرجوا من المدينة فمنهم من نزل خيبر ومنهم من سار إلى الشام.

ونزلت فيهم سورة الحشر، فعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة الحشر، قال قل سورة النضير[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢٩).

فقد بدأ الله تبارك وتعالى سورة الحشر بالتسبيح وختمها بالتسبيح، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾[2].

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئًا عبثا، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

ومن ذلك، نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشرا وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، أخرج بقيتهم منها.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟﴾ من ديارهم، لحصانتها، ومنعتها، وعزهم فيها.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

---

(١) سورة الحشر: آية (١).
(٢) سورة الحشر: آية (٢٤).

ولهذا قال: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفا وخورا وجبنا، لا حيلة لهم ولا منعة معه، فصار ذلك عونا عليهم، ولهذا قال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ، على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيرا من سقوفهم، التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبرا يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد العقل، وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم.

فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم -وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي- فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾[1]، ثم أثنى الله في هذه السورة على المهاجرين والأنصار ومن سلك سبيلهم، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

وفي السورة فضح الله المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[3].

(١) سورة الحشر: آية (٣-٤).
(٢) سورة الحشر: آية (٨-٩).
(٣) سورة الحشر: آية (١١-١٢).

فعلى المسلمين أن يفهموا العقيدة الصحيحة والعمل الصالح واتباع منهج الصحابة ننتصر على أعدائنا عامة وعلى اليهود خاصة.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾[1].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم

(١) سورة الحشر: آية (١٨-١٩).

ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم -مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

فالوفاء بالعهد وعدم نقض العهود، هو من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠ ﴾[٢].

وأمر الله سبحانه بالصدق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾[٣].

وعكس النفاق الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[٤].

(١) سورة البقرة: آية (١٧٧).
(٢) سورة الرعد: آية (٢٠).
(٣) سورة التوبة: آية (١١٩).
(٤) أخرجه البخاري (٣٤).

قوله: «أربع من كن فيه» أي: من اتصف بهن كان منافقًا خالصًا؛ لأنه أتى بجميع الأعمال التي يتصف بها المنافقون والعياذ بالله:

قال: «إذا اؤتمن خان» إذا ائتمنه إنسان على شيء خانه فمثلاً إذا أعطي وديعة وقيل له خذها احفظها، دراهم أو ساعة أو قلم أو متاع أو غير ذلك يكون فيها يستعملها لنفسه أو يتركها فلا يحفظها في مكانها أو يظفر بها من يتسلط عليه ويأخذها، المهم أنه لا يؤدي الأمانة فيها، كذلك إذا اؤتمن على حديث سري وقيل له: لا تخبر أحدا ذهب يخبر، قال لي فلان قال لي فلان.

«وإذا حدث كذب» هذا الشخص إذا حدث الناس في الحديث قال فلان أو حصل كذا أو لم يحصل يكذب، هذا من علامات النفاق، ومن الناس من يفتن بهذا الأمر فتجده يكذب على الناس، يمزح عليهم ليورطهم فإذا تورطوا قال: أمزح، سبحان الله تكذب على الناس تمزح عليهم لتورطهم! ومن الناس من يبتلى بالكذب لأجل أن يضحك الحاضرين، وقد قال النبي ﷺ: «**ويل للذي يحدث فكذب ليضحك به القوم، ويل له ثم ويل له**»[١]، والمهم أن من حدث فكذب فإنه فيه خصلة من خصال النفاق، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

«وإذا عاهد غدر» يعني إذا أعطى عهدًا على أي شيء من الأشياء غدر به ونقض العهد، وهذا يشمل المعاهدة مع الكفار، والمعاهدة مع المسلم في بعض الأشياء ثم يغدر بذلك، فالمعاهدة مع الكفار إذا عاهدنا الكفار على ترك الحرب بيننا وبينهم مدة معينة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٦).

«وإذا خاصم فجر» والخصومة: هي المخاصمة عند القاضي ونحوه فإذا خاصم فجر والفجور في الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدعي ما ليس له.

والثاني: أن ينكر ما يجب عليه.

القطفة الحادية والأربعون: غزوة أحد (ج١)

غزوة أحد من الغزوات العظيمة التي تبين فيها أسباب النصر وأسباب الهزيمة، والتي ميز الله فيها الخبيث من الطيب، والتي أفرد الله للحديث عنها في سورة آل عمران ستون آية لأهميتها.

عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، ويقع في شمال المدينة، ويبعد عنها خمسة كيلاً ونصف الكيل، ولم يمر على غزوة بدر سوى سنة واحدة وشهر، وكان هدف قريش هو: الثأر لقتلاها ببدر، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين، واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر.

بعد أن أُصيبت قريش في عظمائها وأئمة الكفر فيها يوم بدر، وقلوبهم تغلي حقداً وغيظًا على المسلمين والإسلام، خرجت قريش بثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم مائتا فرس جعلوا على ميمنتها خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، يقودهم أبو سفيان بن حرب، وقد خصصت القافلة التجارية التي نجت لتجهيز جيشها.

أولاً: مشاورته ﷺ أصحابه.

وصل الخبر إلى رسولنا ﷺ، وقد رأى النبي ﷺ ورؤيا الأنبياء حق وهي من الوحي، فعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّى هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا وَاللهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

وقد فَسَّر رسول الله ﷺ الرؤيا بأن هزيمة تكون في أصحابه وقتلاً يقع فيهم.

فلما شاور النبي ﷺ أصحابه أشار إليه الشباب ومن حُرِمَ من شهود بدرٍ وغلبهُ الشوق إلى الجهاد بالخروج إليهم، وكان من رأيه ﷺ والشيوخ، وكذلك عبدالله بن أُبي بن سلول المكوث في المدينة، ومقاتلتهم إذا دخلوها من الأزقة ومن أسطح البيوت.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةُ وَأَنَّ الْبَقَرَ هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ**»، ثم قال لِأَصْحَابِهِ: «**لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ؟**».

فَقَالَ: «**شَأْنَكُمْ إِذًا**».

فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ -أي: لباس القتال- فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَأْيَهُ، فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ شَأْنَكَ إِذًا -أي الرأي رأيك فأصنع ما أراك الله-، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**»[1].

ولبس رسول الله ﷺ درعين، رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويداً لأمته على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٧٨٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٠).

ثانيـًا: الخروج للمعركة.

خرج النبي ﷺ بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، في ألف مقاتل ومعه فرسان من المدينة إلى جبل أُحد، وجعل ثلاثة ألوية، لواء للمهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولواء الأوس يحمله أُسيد بن حضير، ولواء الخزرج يحمله الحُباب بن المنذر، وفي الطريق وبالقرب من جبل أُحد انسحب من الجيش رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الجيش ثلاثمائة مقاتل، وأراد بذلك أن يحطم معنويات الجيش مدعيـًا أنه لن يقع قتال مع المشركين معترضـًا على قرار الرسول ﷺ بالخروج لقوله: أطاعهم وعصاني، وقد بيّن الله تعالى أن انسحاب عبدالله بن أُبي بالمنافقين إنما هو تنقية لصف المؤمنين وتمييز لهم فلا يبقى فيهم من يرجف ويخذّل، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾[2].

وقد أثر انسحاب ثلث الجيش على نفوس المسلمين، ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى، فثبتوا، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ بَنِى سَلِمَةَ وَبَنِى حَارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٧٩).

(٢) سورة آل عمران: آية (١٦٦-١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥).

فقبل أن يصل النبي ﷺ إلى أُحد استعرض الجيش، فرد من ردَّ من الشباب لصغره عن سن البلوغ، وأجاز من أجاز، وقد بلغ من ردهم من صغار السن أربعة عشر صبياً، وكان ممن ردهم: عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: عبدالله بن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهْوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي، ثُمَّ عَرَضَنِي يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَأَجَازَنِي(١).

ثالثًا: جبل أُحد.

جبل أُحد هو الجبل الذي وقعت عنده غزوة أُحد، وهو جبل يقع بالقرب من المدينة، وهو الجبل الذي دفن عنه النبي ﷺ من خيرة أصحابه، كعمه حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرهم رضي الله عنهم.

عن أبي حميد رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**هذه طابة، وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صَعِدَ أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فقال: «**اثبُتْ أُحُدُ فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان**»(٣).

ونزل رسولنا ﷺ بالجيش بالشِّعب بجبل أُحد، وجعل ظهر الجيش للجبل وانتقى من مهرة الرماة خمسين رجلاً فعينهم للحراسة على الجبل، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال لهم: «**لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

رابعـًا: يوم المعركة.

وهو يوم السبت، حيث التقى فيه جيش الإسلام الذي خرج من أجل لا إله إلا الله، مع جيش الكفر الذي خرج ليقتل من يقول لا إله إلا الله.

وتقارب الجمعان، وتدانت الفئتان، واندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فتقدم أسدُ اللهِ حمزة إلى حامل لواء المشركين فقتله، فلما سقط اللواء خلفه أخوه في رفعه، فقتله حمزة فتتابع تسعة على رفع راية المشركين فقتلهم المسلمون، وسقط لواء المشركين فلم يرفع.

وأنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم -أي قتلوهم- بالسيوف حتى إذا كشفوهم عن المعسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما نصر الله تبارك وتعالى في موطن كما نصر يوم أُحد قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله تبارك وتعالى إن الله عز وجل يقول في يوم أُحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ يقول ابن عباس: والحس القتل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾، وإنما عني بهذا الرماة[1].

ولما رأى الرماة أن المسلمين بدأوا يجمعون الغنائم التي خلَّفها المشركون، قال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون؟ أما

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٩)، وإسناده حسن.

قائدهم عبدالله بن جبير، فقال لهم: أنسيتم عهد رسول الله ﷺ إليكم ألا تبرحوا مكانكم حتى يأذن لكم؟ قالوا: إنما أراد رسول الله ﷺ أن نحمي ظهر الجيش حتى ينصرهم الله، وقد نصرهم الله، والله لنأتين القوم فنصيب معهم من الغنائم، فنزل أربعون من الرماة وبقي الأمير في عشرة فقط.

فبعد أن انكشف الجبل ولم يبق عليه غير عشرةٍ استدار خالدٌ في نفر من فرسان المشركين وعلو الجبل، فقتلوا أمير الرماة ومن معه، ثم دخلوا في المسلمين من ورائهم فأصابوا منهم ما أصابوا، وصرخ عدو الله إبليس في المسلمين: أي عباد الله أُخراكم، أي جاءكم العدو من ورائكم، فرجعت أولاهم على أُخراهم فاجتلدت أولاهم مع أُخراهم -المسلمون أنفسهم- هؤلاء راجعون وهؤلاء متقدمون، فأُعميت الأبصار فلم يلتفتوا إلى شيء وجعلوا يضربون بعضهم بعضـًا، ونظر حذيفة بن اليمان فرأى أباه المسلم والسيوف تعمل فيه فقال: أبي أبي، فما انحجزوا عنه حتى قتلوه.

غزوة أُحد هي أعظم عبرة لواقعنا اليوم، خالفوا أمر النبي ﷺ بتأويل على أمر مباح، فتأمل كلام لله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: آية (١٢١-١٢٢).

القطفة الثانية والأربعون: غزوة أحد (ج٢)

فبعد أن رأى رسولنا ﷺ رؤيا وشاور أصحابه وكان رأيه ﷺ أن يتحصن في المدينة ولا يخرج إليهم وكان رأي الشباب أن يخرجوا إليهم، فنزل رسولنا ﷺ إلى رأيهم، وفي الطريق رأس النفاق يرجع بثلث الجيش، زاعمًا أن لا يوجد قتال، وأن نبينا ﷺ لم يأخذ برأيه وأخذ برأي غيره، فالله سبحانه بدأ بوصف أحداث المعركة لما غدا النبي ﷺ بأصحابه ينزلهم مقاعدهم من القتال، هذا في أمام، وهذ في الخلف، وهذا على الجبل، ثم بعد أن بدأ الله بوصف أحداث المعركة يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[2]، فحصلت أول منافع المعركة ألا وهي التمييز، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٢٣).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٦٦-١٦٧).
(٣) سورة آل عمران: آية (١٧٩).

أولاً: أبطال المعركة.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أخذ سيفـًا يوم أُحد فقال: «**من يأخذ مني هذا؟**»، فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول أنا أنا قال: «**فمن يأخذه بحقه؟**» قال: فأحجم القوم فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: «**أنا آخذه بحقه**»، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين(١).

«ففلق به هام المشركين» أي: شق رؤسهم.

وتقدم حنظلة بن أبي عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى انتهى إلى قائد المشركين أبي سفيان فرفع سيفه عليه، فبينما هو فوق رأسه رأى رجلٌ من المشركين المشهد فقتل حنظلة من وراءه، ورأى النبي ﷺ الملائكة تُغسِل حنظلة فسأل عنه لماذا تغسله الملائكة؟ والشهداء لا يغسلون؟ فأُخبر أنه خرج إلى الجهاد جنبـًا فرأى إن اغتسل تأخر عن الخروج فبادر بالخروج جنبـًا، وقتل شهيداً فغسلته الملائكة بين السماء والأرض(٢).

فبعد أن نزل الرماة من الجبل الذي وضعهم رسولنا ﷺ عليه وخالفوا أمر رسولنا ﷺ التف خالد بن الوليد بالفرسان وحاصر الجيش المسلم.

ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما دام لا تحكمه خطة منظمة، فأخذوا يتساقطون شهداء في الميدان، وقد فقد المسلمون اتصالهم بالرسول ﷺ وعند ذلك قُتِل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حامل لواء المهاجرين، وكان أشبه الناس برسولنا ﷺ، فعند ذلك شاع أن محمداً ﷺ، قد قُتل، وعندما سمعوا بالخبر فرّ بعض المسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩١٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢٦).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1].

ونظر رسول الله ﷺ فرأى أصحابه قد ولوا عنه مدبرين فجعل ينادي: إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، فسمع المشركون صوته فعرفوه، فأقبلوا عليه يريدون قتله ولكن الله عصمه، فأنزل ملائكته تقاتل دونه، فيذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: تجدون في الهرب ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، ويباشر الهيجاء، بل ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: مما يلي القوم يقول: «إليَّ عباد الله» فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لَوْمًا بتخلفكم عنها.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه تجمع المشركون حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ، فقال: «**من للقوم؟**»، فقال طلحة بن عبيدالله: أنا، ثم قاتل طلحة حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حَسِّ، فقال النبي ﷺ: «**لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**»[2].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٥٥).
(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٩)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٦).

فأنزل الله تبارك وتعالى جبريل وميكائيل يدافعان عن رسول الله ﷺ، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «**رأيت يوم أُحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان دون رسول الله ﷺ ما رأيتهما قبلُ ولا بعد**»[١].

ورغم استبسال الصحابة رضي الله عنهم في الدفاع عن رسول الله ﷺ، فقد أُصيب إصابات كثيرة، منها: كُسرت رُباعيته، وسال الدم من وجهه، ووقع ﷺ في حفرة ودخلت حلقة المغفر في وجنتيه، وجعل ﷺ يقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيت[٢]، وهو يدعوهم إلى الله»، فأنزل الله: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** (١٢٨) ﴾[٣].

أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب بالبقية الباقية حوله حتى انتهى بهم إلى الشِّعب، وأرادت قريش أن تمنع الانسحاب ولكن دون جدوى، فانتهى رسول الله ﷺ بأصحابه إلى الشِّعب الذي قد نزل فيه في أول القتال.

فانتهزها أبو سفيان فرصة ليولي الأدبار هو الآخر، وخاف أن تكون الجولة الثالثة للمسلمين كما كانت لهم الجولة الأولى، إلا أنه وقف يشمت بالمسلمين، ويفخر بآلهتهم[٤].

عند ذلك قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتى أثني على ربي**»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: «**اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لما أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٢٨).
أي: المقدم من أسنانه.
(٣) أخرجه مسلم (١٧١٩).
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»[١].

ثانيـًا: دفن قتلى المسلمين.

عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا حملنا القتلى يوم أُحد لندفنهم فجاء منادي النبي ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تدفنوا القتلى في مضاجعهم فرددناهم[٢]، ومن هنا كانت السنة عدم نقل الموتى من بلدٍ إلى بلد.

وقام ﷺ بنفسه يشرف على دفن الشهداء، وأمر أن يُدفنوا في ثيابهم ودمائهم ولم يُغسِّلهم ولم يصل عليهم، وكان ربما جمع الشهيدين والثلاثة في قبر واحد، لكنه كان يقول: «**أَيُّهُم أكثرُ أخذاً للقرآنِ**»، فإذا أُشير إلى أحدهم قدَّمَهُ في اللَّحدِ وقال: «**أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامةِ**»، وأمر بدفنهم في دمائهم، ولم يُغسَّلوا ولم يصلَّ عليهم[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٩٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في فقه السير، ص (٢٨٤-٢٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٦٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٧١٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٤٣).

ثم عاد النبي ﷺ آخر النهار من يوم السبت، السادس من شوال من السنة الثالثة للهجرة، فلما بات ليلة الأحد خاف ﷺ أن يرجع العدو إلى المدينة مرة أخرى، فانتدب سبعين من أصحابه يخرجون في إثر العدو.

ولما انتهى أبو سفيان إلى مكان غير بعيد من المدينة لقيه رجلٌ، فقال: أخبر محمداً أنا راجعون إليهم لنستأصل بقيتهم ونسبي نساءهم وذراريهم، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ وأصحابه، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قرأت قول الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾** ﴾[1]، فقَالَتْ لِعُرْوَةَ يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبُوكَ مِنْهُمُ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ»، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلاً، قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ[2].

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿ **حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾** ﴾[3].

حسبنا الله: أي كافينا الله في مهماتنا وملماتنا، ونعم الوكيل: إنه نعم الكافي جل وعلا، فإنه نعم المولى ونعم النصير، ولكنه يكون ناصراً لمن انتصر به واستنصر به، فإنه عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا اتجه الإنسان إليه في أموره أعانه وساعده وتولاه.

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

فماذا كانت النتيجة قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

﴿فَانقَلَبُوا﴾ أي رجعوا من حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب في الدين ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي لم يصبهم قتل ولا جراح ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي في طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) سورة آل عمران: آية (١٧٤).

القطفة الثالثة والأربعون: ثمرات وفوائد غزوة أحد

فقد حصلت ثمرات وفوائد كثيرة من معركة أحد:

أولاً: ثمرات غزوة أحد.

١- معرفة مواطن الضعف، ومواطن القوة.

فالله تبارك وتعالى قابل غزوة أُحد بغزوة بدر حتى نعرف أسباب الضعف وأسباب القوة ومواطن الهزيمة والنصر، وذكر مدد الملائكة في غزوة بدر.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[١].

٢- التحذير من أمر خطير ألا وهو الربا.

ثم فجأة يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[٢].

قال أبو حنيفة: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه[٣].

وفي ندائهم باسم الإيمان إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا.

ما الحكمة في ذكر الربا في معرض ذكر معركة أُحد؟

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٢٣).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٣٠-١٣٢).
(٣) تفسير القاسمي (٤/ ٩٧٢).

بعض الرماة طمعوا في أمر مباح وخالفوا أمر النبي ﷺ بتأويل منهم، فعلا العدو على المسلمين وفيهم رسول الله ﷺ، ثم جاء الله سبحانه في معرض الآيات بأقبح وأبشع صور الطمع ألا وهي: الربا، وهو من أعظم أسباب ذل الأمم، فالله يقول لنا كيف إذا انتشر فيكم الطمع المحرم، والنبي ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[1].

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[2].

فالله تعالى يتوعد آكل الربا، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾[3].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونـًا يخنق».

إن المشركين كانوا يحتجون في تسويغ الربا بأن الكسب فيه كالكسب في البيع، فكما أن الرجل يبيع ويشتري فيكتسب من فروق الثمن في البيع والشراء فكذلك يدفع لغيره المال، فيبيع ويشتري فيكسب أو يشاركه في الكسب، وإن لم يتعرض للخسارة، ومن جهة ثانية فإن الربا كالبيع من حيث أنه يبيع مؤجلاً بثمن وحالاً بثمن، فكذلك يجوز له أن يقبض الدين بعد الآجل أكثر مما أدى.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٢٢١)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩).
(٢) سورة البقرة: آية (٢٧٨-٢٧٩).
(٣) سورة البقرة: آية (٢٧٥).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾[١].

إن النهي عن الربا اقترن بالأمر بالصلاة والزكاة وذلك إشعار بأن ذلك ركن من أركان الإسلام كالصلاة والزكاة وأن من ينكره فقد أنكر أمراً عرف من الدين بالضرورة، وإن منع الربا ركن الاقتصاد الإسلامي.

وأما في السنة النبوية: فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُؤكِلَهُ قال قلت وكاتبه وشاهديه؟ قال إنما نحدث بما سمعنا[٢]. واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الربا سبعون حوبا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه**»[٣]، الحوب الإثم، والمراد أنها سبعون نوعـاً من الإثم. وفي رواية: «الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه»[٤]. ويقول ﷺ: «**درهمٌ ربـاً يأكُلُهُ الرَّجلُ وهو يعلمُ أشدُّ من ستةٍ وثلاثين زنيةً**»[٥].

وأخرج البخاري مَنْ حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبي ﷺ: «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتيَانِي، فَأَخرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، وَعَلَى وَسَطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ**

(١) سورة البقرة: آية (٢٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٧).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٤)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤١).
(٤) أخرجه الحاكم (٢٢٥٩)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٢).
(٥) أخرجه أحمد (٢١٩٥٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٢٣).

حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ مَا هَذَا فَقَالَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا»[١].

لهذا قال أهل العلم «عد الربا كبيرة هو ما أطبقوا عليه إتباعـًا لما جاء في الأحاديث الصحيحة من تسميته كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر وأعظمها». إن النظام الإسلامي والنظام الربوي لا يلتقيان في تصور ولا يتفقان في أساس ولا يتحدان في نتيجة.

ثانيـًا: ما يستفاد من معركة أُحد؟

وكان في قصة أُحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة:

١- منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا منه، فبالطاعة لله ولرسوله ﷺ ننتصر على أعدائنا، وبالمعاصي ننهزم، ولذلك جاء الإسلام يأمر بالطاعة لله ولرسوله ﷺ، ويحذر من المعاصي لأن المعاصي سبب الخذلان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٢].

٢- تبين للمسلمين بعد غزوة أُحد أن النصر يكون مع الصبر والاعتصام والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن الخذلان يكون مع الاستعجال والتفرق والتنازع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٥).
(٢) سورة الأنفال: آية (٤٥-٤٦).

والمعصية لله ولرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[١].

بالصبر ننتصر على أعدائنا، كما جاء في حديث ابن عباس t «وأن النصر مع الصبر»[٢]، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين بالصبر وعدم الاستعجال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[٣].

٣- أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس، وكسراً لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون، ولذلك لما تعجب المسلمون من الذي أصابهم في غزوة أحد، أخبرهم الله تعالى أن المخالفة التي وقعت من الرماة هي السبب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[٤].

٤- إن الذي أصاب المسلمين في غزوة أحد، علم من أعلام النبوة، ودليل على صدق النبي ﷺ في قوله للناس إني رسول الله إليكم جميعاً، ولذلك لما بعث النبي ﷺ كتابه إلى هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام يقول له: «أسلم تسلم».

(١) سورة آل عمران: آية (١٥٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).
(٣) سورة آل عمران: آية (٢٠٠).
(٤) سورة آل عمران: آية (١٦٥).

فقال هرقل لحاشيته: ائتوني بمن بأرضي العرب، فجيء بأبي سفيان ومعه نفر من المشركين، فسأله هرقل عن أحوال النبي ﷺ، وكان من ضمن الأسئلة: هل قاتلتموه؟ قال أبو سفيان: نعم.

قال هرقل: كيف كانت الحرب بينكم وبينه؟ قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال هرقل: فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1].

٥- أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

٦- أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه خبير بصير[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٥٣-٢٥٥).

ثالثًا: شهداء المعركة.

فأن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال وحشي: إن حمزة قتل طُعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميته بحربتي، فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقيل لي إنه لا يهيج الرسل فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني قال «آنت وحشى». قلت نعم. قال: «أنت قتلت حمزة». قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني»[1].

مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهو أحد السابقين إلى الإسلام يكنى أبا عبدالله شهد بدراً ثم شهد أحداً ومعه اللواء فاستشهد، كان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجوده حلة مع أبويه، ولما استشهد مصعب لم يترك إلا ثوبـًا فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ اجعلوا على رجله شيئًا من الإذخر[2].

أنس بن النضر: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال:

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (٢٢٢٠).

«اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء» -يعني: المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال يا سعد بن معاذ، الجنة، ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مَثَّلَ به المشركون، فما عَرَفَهُ أحدٌ إلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ. قال أنس: كُنَّا نَرَى أو نَظُنُّ أنَّ هذه الآية نزلتْ فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

(١) سورة الأحزاب: آية (٢٣).
أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

القطفة الرابعة والأربعون: يوم الرجيع وبئر معونة

فقد تكلمنا عن عزوة أُحد وتبين أن الذي أصاب المسلمين فيها كان بسبب المخالفة التي وقع فيها بعض الرماة، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[1].

سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أُحد بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم فشكوا ألم الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي: لا تضعُفوا ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ في طلب أبي سفيان وأصحابه، ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ ﴾ تتوجّعُون من الجراح، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ ﴾ أي: يتوجّعُون، يعني الكفار، ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون، وقال بعض المفسرين: المراد بالرجاء الخوف، لأن كل راج خائف أن لا يدرك مأموله.

ومعنى الآية: وترجون من الله أي: تخافون من الله أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون.

وقد ذكرنا أن هناك من فرَّ من المسلمين من أرض المعركة، فما مصير من فر من أرض المعركة؟ قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[2]، فقد غفر الله لهم، بل أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالعفو عنهم،

---

(١) سورة النساء: آية (١٠٤).
(٢) سورة النساء: آية (١٥٥).

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[١].

وكان من نتائج غزوة أُحد أن تجرأ الكفار على المسلمين وأخذوا يفكرون في استئصال المسلمين وإبادتهم، ففي مكة أخذ أبو سفيان يهدد ويتوعد، واليهود في المدينة تخون وتغدر والقبائل العربية من الأعراب حول المدينة تعتدي وتخون وتغدر.

فبدأ الكفار في التحريش بالمسلمين، ولكن لا عن طريق التصريح والمواجهة، بل عن طريق الحيلة والمكر والخديعة، ويظهر ذلك في حداثتين، وهما: يوم الرجيع، وبئر معونة.

أولاً: يوم الرجيع.

والرجيع: وهو اسم موضع من بلاد هذيل كانت الوقعة بقرب منه فسميت به، وكانت في أواخر السنة الثالثة للهجرة[٢]، وقيل في السنة الرابعة للهجرة.

فقد أرسلت قبيلتان من القبائل العربية المجاورة للمدينة وهما: عَضَل وقَارَة، وافدهم إلى النبي ﷺ يخبره أن بهم إسلامًا، وأنهم يريدون أن يبعث النبي ﷺ إليهم من يفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن وأحكام الإسلام، ولما كان النبي ﷺ حريصًا على تبليغ دين الله تعالى ونشر الإسلام، فقد استجاب لهم، وبعث لهم عشرة من أصحابه وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٥٩).
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٣٢٣).

فلما وصل الوفد إلى مكان يسمى الرجيع بين عُسْفَان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان من هذيل وهم قريب من مائتي مقاتل، فأحاطوا بهم وقد لجأ الصحابة إلى مكان مرتفع.

قال المشركون للصحابة: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنَّا نبيك، فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسوله ﷺ خبره، فأخبر أصحابه بذلك.

فقال عاصم: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فأحمي لي لحمي، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفرٍ بالنبل، وبقي خُبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنَة، وعبدالله بن طارق.

فلما قَتَل المشركون عاصماً أرادوا أن يأخذوا رأسه لامرأة من المشركين نذرت، إن قدرت على رأس عاصم لتشربن فيها الخمر، لأنَّ عاصماً t كان قد قتل ابنيها يوم أُحد، فأرسل الله تعالى النحل والدبابير فأظلته فحمته منهم فلم يقدروا منه على شيء.

وكان عاصم رضي الله عنه قد أعطى الله تعالى عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً، فوفَّى الله تبارك وتعالى له.

فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن.

وبقي من وفد الصحابة خبيب وزيد وعبدالله، فدعاهم المشركون إلى النزول وأعطوهم العهد والميثاق ألا يقتلوهم فنزلوا. فلما استمكن المشركون من الصحابة الثلاثة ربطوهم بالحبال، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر وأبى أن يسير معهم فجروه حتى قتلوه، وانطلق المشركون بخبيب وزيد فباعوهما بمكة.

فأما خبيب فاشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث بن عامر الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر.

فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث أستحد بها فأعارته، قالت فغفلت عن صبى لي فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفى يده الموسى فقال أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله.

تقول إحدى بنات الحارث: وكانت تقول ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله[1]، فهذه من كرامات الأولياء.

والله سبحانه وتعالى له أولياء، وللشيطان أولياء فلا بد للمسلم أن يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقد وصف الله تعالى أولياءه، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2].

فمكث خبيب أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، فلما أرادوا أن يقتلوه خرجوا به من الحرم إلى الحل، فلما عزموا على قتله قال لهم: دعوني أُصلي ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، فلما انصرف قال لهم: أما والله لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت في الصلاة[3]، فكان أول من سن الصلاة عند القتل، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتُلهم بَدَداً، ولا تُبقِ منهم أحداً، وكان معاوية بن أبي سفيان

(١) أخرجه البخاري (٤٠٨٦).
(٢) سورة يونس: آية (٦٢-٦٣).
(٣) أي: خشيت أن تقولوا جزع من الموت فأطال بالصلاة.

يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الارض فَرَقًا من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زلت عنه. ثم أنشأ خبيب يقول:

ولست أبالي أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذاك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع.

ثم تقدم فقتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما زيد فقد اشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وكان أمية بن خلف قد قتل يوم بدر.

فلما أرسله إلى الحل ليقتل اجتمع عليه رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾[١].

فقال أبو سفيان: يا زيد أنشدك الله أتحب أن محمداً مكانك الآن تضرب عنقه وأنت جالس في أهلك؟

فقال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ توذيه وأنا في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً، كحب أصحاب محمدٍ محمداً[٢]. وكان ممن حضر قتل خبيب، سعيد بن عامر، وسعيد أسلم وحسن إسلامه، واستعمله على الشام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسأل عنه أهل الشام عنه،

---

(١) سورة البروج: آية (٧-٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٩٨٩)، وسيرة ابن هشام (٣/ ١٦٠).

فقالوا: ما ننقم عليه شيء غير ثلاثة أمور: فكل يوم من الأسبوع لا يخرج إلينا، وفي الليل لا يخرج إلينا، وفي بعض الأحيان تصيبه غشية، أي يغمى عليه، فقال له عمر ما هذا الذي يحدث؟ فقال سعيد: أما اليوم الذي لا أخرج إليهم، فإني أغسل ثوبي، وليس لي غيره، فانتظر حتى يجف، وأما عدم خروجي من الليل، فالنهار لهم والليل لربي، وأما الغشية، ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قُتِل وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غشي علي.

ثانيــًا: بئر معونة.

وفي السنة الرابعة للهجرة، جاء وفد من قبائل رِعْل وذَكْوانَ وعُصيَّة وبني لَحيان إلى النبي ﷺ وأظهروا الإسلام، واستمدوه على قومهم لأجل أن يعلمونهم الإسلام.

مع أن العهد بالغدر الأول قريب، ولم ينس النبي ﷺ إلا أن حرصه ﷺ الكبير على دخول الناس في الإسلام، فأرسل معهم سبعون صحابيــًا من خيرة أصحابه.

يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا نسميهم القراء، كانوا يقرءون القرآن بالليل ويتدارسونه فيما بينهم ويتعلمون، فإذا أصبحوا جاءوا بالماء فوضعوه بالمسجد واحتطبوا فباعوه واشتروا طعامــًا لأهل الصفة والفقراء، فبعثهم النبي ﷺ معهم.

وعندما انتهى القراء إلى بئر معونة بعثوا أحدهم -وهو حَرَامُ بنُ مِلْحَانَ- إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في تلك البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم ينظر عامر في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغدر بحامل الرسالة، فما شعر حرام إلا وطعنةً تخترق ظهره وتنفذ من صدره.

فقال: الله أكبر، فُزْتُ وربِّ الكعبة.

فاستصرخ عامر بن الطفيل أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت إليه قبائل رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصيَّة وبني لِحْيَان، فهجم بهم عامر على القراء.

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوب، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الكفرة أن يقتلوهم جميعاً غير رجل رقى فكان في رأس جبل، وأتى النبي ﷺ فأخبره الخبر.

فنعاهم لأصحابه فقال: إن إخوانكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا الله تعالى فقالوا: ربنا بلغ عنا إخواننا بما رضيت عنا ورضينا عنك، فأخبرهم عنهم.

قال أنس رضي الله عنه: فَكُنَّا نَقْرَأُ أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لِحْيَانَ وَبَنِي عُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ[1].

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2].

فَقَدَ المسلمون في شهر واحد ثمانين صحابياً من خيرة الدعاة، وقبل ذلك بقليل فَقَدَ المسلمون سبعين من خيرة الصحابة في غزوة أُحد، ولكن كل ذلك في سبيل الله ودعوة الناس إلى هذا الدين، ليتبين لك يا تارك الصلاة كيف وصلك هذا الدين، ليتبين لك يا من تتخلى عن دينك كيف وصلك هذا الدين، وصلك على جماجم الصحابة، قدموا الأرواح والأموال ليوصوا لك هذا الدين

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠١)، ومسلم (٦٧٧).
(٢) سورة آل عمران: آية (١٢٨).

وأجرهم عند الله، ليعلم الجميع أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى رجال يقدمون الروح والمال رخيصة في سبيل هذا الدين العظيم.

ثالثًا: رسولنا ﷺ لا يعلم الغيب.

ويظهر ذلك جليًا مما حدث مع الصحابة رضي الله عنهم من يوم الرجيع وبئر معونة، فلو كان رسولنا ﷺ يعلم الغيب ويعرف ذلك وما سيحدث لأصحابه ما أرسلهم. قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾** ﴾[١].

يقول الحافظ ابن كثير في هذه الآية: «أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه»[٢].

---

(١) سورة الأعراف: آية (١٨٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٥).

القطفة الخامسة والأربعون: غزوة بني المصطلق

هذه الغزوة وقعت في شعبان في السنة الخامسة للهجرة، وبنو المصطلق بطن من قبيلة خزاعة، وكانوا يسكنون قديداً وعُسفان على الطريق بين المدينة ومكة، وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في اشتراكهم في جيش قريش من غزوة أُحد.

أولاً: سبب الغزوة.

فقد تجرأت قبيلة بني المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أُحد كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة، فأخذت هذه القبيلة برئاسة الحارث بن أبي ضرار تتهيأ وتستعد، بجمع الرجال والسلاح لغزو المدينة لتستأصل المسلمين.

ووصل الخبر إلى النبي ﷺ أن بني المصطلق جمعوا الجموع لغزو المدينة فبعث ﷺ بريدة الأسلمي ليتأكد له من صحة هذا الخبر، فأكدوه، فكان لا بد للنبي ﷺ والمسلمين من التحرك السريع نحو هذه الجموع.

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفًا شديداً وتفرق عنهم من كان معهم من العرب.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج النبي ﷺ بجيشه من المدينة نحو ديار بني المصطلق، وكانت راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فباغتهم في ساعة لم يتوقعوها عند بئر يقال له المُرَيْسِيع، فتفرقوا يمينًا وشمالاً وولوا الأدبار، فقتل من قتل منهم، وأُسر من أُسر منهم، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري، وغنم الأموال دون أية مقاومة تُذكر.

عن نَافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ. حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ[١].

وهم غارون أي: غافلون.

وبذلك يكون قد لقن النبي ﷺ بني المصطلق، غيرهم من القبائل المجاورة درسًا لا ينسونه، وأن المسلمين بهم قوة وقدرة على حماية المدينة.

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقسم سبايا بني المصطلق، وقعت جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق في سهم واحد من الصحابة فكاتبته ثم جاءت النبي ﷺ تستعينه على كتابتها، فرأى النبي ﷺ أن يكرمها ويرفع من شأنها وينزلها منزلتها اللائقة بها كبنت رئيس قوم، فدفع عنها كتابتها، وتزوجها.

عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: وقعت جويرية بنت الحارث بن المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له فكاتبت على نفسها وكانت امرأة مُلاحة[٢] فجاءت تسأل رسول الله ﷺ في كتابتها، فلما قامت على الباب فرأيتها كرهت مكانها، وعرفت أن رسول الله ﷺ سيرى منها مثل الذي رأيتُ.

فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث، وإنما كان من أمري ما لا يخفى عليك، وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وإني كاتبت على نفسي، فجئت أسألك في كتابتي، فقال رسول الله ﷺ: «**فهل لك إلى ما هو خير منه؟**» قالت وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**» قالت قد

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠).
(٢) أي ذات بهجة وحسن منظر.

فعلت قالت فتسامع تعني الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية فأرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم وقالوا أصهار رسول الله ﷺ فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[1].

وقد جاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة وطلب من الرسول ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فلما خيرها اختارت البقاء مع رسول الله ﷺ، وقد أسلم الحارث بن أبي ضرار وقومه، وجعله الرسول ﷺ يلي صدقات قومه.

عن الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ بِهِ فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ فَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَسُولًا لِإِبَّانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنْ الزَّكَاةِ فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنْ الزَّكَاةِ وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخُلْفُ وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنْ الزَّكَاةِ فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ فَرَجَعَ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٣١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٣٧).

وَفَصَلَ مِنْ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمْ الْحَارِثُ فَقَالُوا هَذَا الْحَارِثُ فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ قَالُوا إِلَيْكَ قَالَ وَلِمَ قَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ قَالَ لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً وَلَا أَتَانِي، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي»، قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ قَالَ: فَنَزَلَتْ الْحُجُرَاتُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾[1].

ثانيـًا: تعكير المنافقون النصر الذي حرزه المسلمون.

عندما انتصر المسلمون على بني المصطلق، وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظـًا على غيظهم كما وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾[2]، فعند ماء المريسيع عكر المنافقون هذا النصر بأن أثاروا العصبية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار، وأثاروا الفتنة وغرسوا بذور الفرقة في النفوس.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٩)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٨٨).

(٢) سورة التوبة: آية (٥٠).

عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا فِي غَزَاةٍ -وهي غزوة بني المصطلق- فَكَسَعَ[1] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِي يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وَكَانَتِ الأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ[2].

والذي بلغ رسول الله ﷺ مقالة ابن أُبي هو زيد بن الأرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا. الأَذَلَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي[3] أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَقَتَكَ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ

---

(١) أي ضربه على دبره.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) المراد بعمه سعد بن عبادة وليس عمه حقيقة، وإنما هو سيد قومه الخزرج.

خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾[١]، فبعَثَ إِلَيَّ النبيُّ ﷺ فقرأَ فقالَ: «**إنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يا زَيْدُ**»[٢].

وقد فضح الله تعالى هذا المنافق حتى ابنه عبدالله بن عبدالله بن أُبي بن سلول استأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه، فنهاه النبي ﷺ فقال له: «**لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته**»[٣].

---

(١) سورة المنافقون: آية (٧-٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٢٨)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٣).

القطفة السادسة والأربعون: حادثة الإفك

بعدما فشل المنافقون في إثارة العصبية الجاهلية أعماهم الغضب وقد واتتهم الفرصة لإيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، وكانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت معه إلى غزوة بني المصطلق وذلك بعدما شرع الله الحجاب للنساء، وفي طريق العودة عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه، فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه ومضى المسلمون إلى المدينة تاركيها في البيداء وقد وجدت عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يعرفوا بخبرها ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السُّلمي وهو من خيرة الصحابة فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ، وقد استغل المنافقون هذا الحادث، فوقعوا في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فأمّ المؤمنين عَائِشَةُ تقص الحادثة، فتقول: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي

فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، وَهُمْ نُزُولٌ. فَهَلَكَ فِيَّ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهْوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»[1] ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلاً إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا.

(١) يعني كيف هذه يسأل سؤال عابر لا يستقصي في السؤال.

قَالَتْ: حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[١] فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ أَي هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ قَالَتْ وَقُلْتُ مَا قَالَ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ.

قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ». فَقُلْتُ لَهُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ قَالَتْ وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لأُمِّي يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلاَّ كَثَّرْنَ عَلَيْهَا.

قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِه، فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ وَلاَ نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْرًا.

وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَي بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ، غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهْوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي».

---

(١) كساء من صوف.

قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَقَالَ لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ -وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ- فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ.

قَالَتْ فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ. فَقَالَ أَبِي وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ لأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ

لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلاَّ أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهْوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهْوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ».

قَالَتْ فَقَالَتْ لِي أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ وَاللهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ- وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِى قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأَنْزَلَ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَلَى وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ

مَا عَلِمْتُ إِلاَّ خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ. فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ(١).

أولاً: براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾** ﴾(٢).

فقد بيّن الله سبحانه وتعالى هذا الحكم في سورة النور استفتحها بتنبيه العباد إلى فضلها، وعلو مكانها ومنزلتها، قال تعالى: ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾** ﴾(٣).

ثم يقول الله سبحانه: ﴿ **ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾** ﴾(٤)، وهذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما، تمنعنا من إقامة الحد عليهم.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عُمَرُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ. فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، أَلاَ وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى، وَقَدْ أَحْصَنَ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَمْلُ أَوْ الاِعْتِرَافُ أَلاَ وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ(٥).

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) سورة النور: آية (١١).
(٣) سورة النور: آية (١).
(٤) سورة النور: آية (٢).
(٥) أخرجه البخاري (٦٨٢٩).

قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1]، وهذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه، فأخبر سبحانه أنه الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها.

ثم بيّن الله عظمة الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا، فله عذاب في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فيقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾[2].

وأما في الآخرة: فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

ثم بيّن سبحانه التوبة في هذا الموضع: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[4]، وهو أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه.

تثبت جريمة الزنا بأمرين:

الأمر الأول: أن يشهد أربعة رجال عدول قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾.

الأمر الثاني: أن يرون ذلك بأعينهم، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا قال ﷺ: «ائتوني بأعلم رجلين منكم»، فأتوه بابني

(١) سورة النور: آية (٣).
(٢) سورة النور: آية (٤).
(٣) سورة النور: آية (٢٣).
(٤) سورة النور: آية (٥).

صوريا فنشدهما كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟ قالا جد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رجما قال: «فما يمنعكما أن ترجموهما؟» قالا ذهب سلطانا فكرهنا القتل فدعا رسول الله ﷺ بالشهود فجاءوا بأربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة فأمر النبي ﷺ برجمهما[١].

ثانيًا: حكم رمي الزوج زوجته بالزنا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾[٢].

إن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا، فسماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله، إني لمن الصادقين، فيما رميتها به».

ثم يقول سبحانه: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾[٣]، أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذبًا، فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) سورة النور: آية (٦).
(٣) سورة النور: آية (٧).
(٤) سورة النور: آية (٨-١٠).

أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها، أن تشهد أربع شهادات إنه لمن الكاذبين وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه.

القطفة السابعة والأربعون: غزوة الأحزاب (الخندق)

أولاً: سبب الغزوة.

فقد عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث، إلا أن اليهود الذين ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان بسبب غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم لم يفيقوا من غيهم، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر، فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين، فأخذوا يعدون العدة، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها، فخرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود إلى مكة يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجابوا لهم، وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش كبير يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، من قريش وحدها أربعة آلاف مقاتل.

يقول الله تعالى عن اليهود: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، فاليهود يعملون الليل والنهار ليكيدوا بالإسلام والمسلمين، فالله خاذلهم، فهم يجتهدون ويجدون، ولكن بالفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدخول في الإسلام.

فالأحزاب الذين اجتمعوا على حرب الإسلام والمسلمين في تلك الغزوة هم: المشركون من أهل مكة، والمشركون من قبائل العرب، واليهود من خارج المدينة يهود خيبر، واليهود من داخل المدينة يهود بني قريظة.

---

(١) سورة المائدة: آية (٦٤).

ملة الكفر واحدة قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[(١)]، هدفهم واحد هو: القضاء على الإسلام والمسلمين هو السيطرة على خيرات المسلمين، وهذا يظهر لنا من غزوة الأحزاب فقد جاءوا من كل مكان للقضاء على الإسلام والمسلمين.

والتاريخ عيد نفسه فنسمع ونرى ملة الكفر يجتمعون لحرب المسلمين تحت شعارات كاذبة لينهبوا خيرات بلاد المسلمين وليأمنوا مصالحهم في تلك البلاد، ورسولنا ﷺ يقول: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها».

فقال قائل يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ.

قال: «أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن».

قالوا يا رسول الله وما الوهن؟

قال: «حب الحياة وكراهية الموت»[(٢)].

فعلم يا عبدالله أن عناصر قوة الأمة الإسلامية ليس في عددها وعُدتها، بل في عقيدتها ومنهجها، فالأمة إذا تركت دينها أصبحت لا وزن ولا قيمة لها بين الأمم.

---

(١) سورة الأنفال: آية (٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

ثانيـًا: استعداد الرسول ﷺ وأصحابه للمعركة.

لما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بخروج هذا الجيش الكبير إلى المدينة، عقد مجلسـًا استشاريـًا مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم ليشاورهم في خطة الدفاع عن المدينة فأشار عليه الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق من الجهة الشمالية للمدينة، لأن هذه الجهة الوحيدة التي يستطيع العدو أن يدخل إلى المدينة منها، فإن المدينة تقع بين حرتين -أي: بين جبلين- من جهة الشرق والغرب يعجز العدو أن يدخل من جهتهما، وأما جهة الجنوب ففيها مساكن يهود بني قريظة وبينهم رسول الله ﷺ عهداً وميثاقـًا على أن لا يدخل عدو من ناحيتهم.

وشرع المسلمون بحفر الخندق، وكان يمتد من أم الشيخين طرف بني حارثة شرقـًا حتى المذاد غربـًا، وكان طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعـًا.

خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[١].

فأخذ ﷺ يعمل مع أصحابه في حفر الخندق يحفر بيده وينقل التراب بنفسه حتى أغبر بطنه من شدة التراب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٩)، ومسلم (١٨٠٥).

يقول البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأَنْزِلَنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقَيْنَا

إن الأعداءَ قَدْ بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

يرفع بها صوته[1].

فبرد شديد وجوع شديد، حتى أن الصحابة من شدة جوعهم ربطوا الحجارة على بطونهم، وأما رسولنا ﷺ فربط حجرين على بطنه من شدة الجوع.

ثالثًا: من المعجزات التي حصلت في تلك الغزوة.

١- البشارة بفتح الشام، وفارس، واليمن.

عن البراءِ بنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا.

ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٤).

ثُمَّ قَالَ، بِسْمِ اللهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا[١].

فرسولنا ﷺ يبشر أصحابه بفتح هذه البلدان، وهم يُعانون من شدة الجوع والبرد، فرفع ذلك من روحهم المعنوية، فانطلقوا بجد ونشاط في حفر الخندق وهم يربطون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل.

٢- تكثير الطعام، فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما أصاب الرسول ﷺ من الجوع الشديد فطلب من زوجته أن تصنع له طعامـًا، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعـًا من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام، وساره بكمية الطعام، فصاح النبي ﷺ بالمسلمين ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأسقط في يد جابر وأهله، لكن النبي ﷺ بارك في البرمة فأكل منها الجميع حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه[٢].

٣- إخبار عمار بن يسار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو يحفر بأمر غيبي حيث قال له: «تقتلك الفئة الباغية»، فكان أن قتل في صفين[٣].

يقول أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، وفينا فتىً حديث عهد بعرس، فجعل يستأذن رسول الله ﷺ أثناء النهار ليرجع لأهله، فاستأذنه يومـًا، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة»، فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٩٤)، والحديث حسنه الشيخ أحمد شاكر في المسند (١٤/ ٢٤٤)، والشيخ الألباني في فقه السيرة ص (٢٩٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٦).

الرمح ليطعنها به وأصابته غيرة فقالت: له اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيهما كان أسرع موتـًا الحية أم الفتى؟

قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا له وقلنا ادع الله يحييه لنا فقال: «استغفروا لصاحبكم»، ثم قال ﷺ: «إن بالمدينة جنّـًا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئـًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان»[1].

انتهى رسولنا ﷺ وأصحابه من حفر الخندق قبل وصول الأعداء، وأخذ رسولنا ﷺ يستعد لملاقاة الأعداء بثلاثة آلاف مقاتل، ووضع النساء والأطفال في حصن قوي حفاظـًا عليهم، ورتب الجيش، وجعل وجوههم إلى الخندق.

وعندما وصل جيش الكفر إلى المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فلما وصلوا إلى الخندق فوجئوا برؤية الخندق، وأخذ الجيش بقيادة أبي سفيان يتحرك هنا وهناك يفكر في كيفية اقتحام الخندق، وكلما هموا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام.

هجمات الكفار لم تنقطع وجيش الإسلام لهم بالمرصاد حتى إن الرسول ﷺ والمسلمين لم يتمكنوا من أداء صلاة العصر في أحد الأيام في وقتها بل صلوها بعد ما غربت الشمس ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت بعد، فقال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب وهو قاعد على فرضة من فرض الخندق «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١١).

قال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[١].

ولما رأى الرسول ﷺ كثرة الأحزاب، رأى أن يخفف الضغط على المدينة، وأن يصالح غطفان بأن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لعام، لكنه لما شاور سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج قالا: لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء بالإسلام[٢].

طال الحصار واشتد من الكفار للمدينة شهراً كاملاً، ووصلت الأخبار أن يهود بني قريظة غدروا بالمسلمين، وترك المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أرض المعركة بحجج واهية زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يريدون الفرار من أرض المعركة، وعاش المسلمون في ظروف صعبة يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[٣].

وقد وصف القرآن الكريم البلاء الي أصاب المسلمين: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[٤]، فالأحزاب جاءوا من فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم، والمنافقون ظنوا بالله الظنونا، فأصاب المسلمين زلزال شديد وبلاء عظيم، ولكن الإيمان العميق والتربية الدقيقة جعلت المسلمين يصمدون أمام سائر هذه الأخطار.

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٣٨).
(٢) كشف الأستار (١/ ٣٣٢)، وقد رواه البزار بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) سورة الأحزاب: آية (٩-١١).
(٤) سورة الأحزاب: آية (١٠-١١).

ولذلك ازداد المؤمنون إيماناً وتسليماً وتصديقاً لوعد الله فقال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾** ﴾[١].

وأما في المنافقين فيقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾** ﴾[٢].

البلاء بالمسلمين يزداد يوماً بعد يوم، والخوف يزداد ساعة بعد ساعة، حتى بلغت القلوب الحناجر، بردٌ قارصٌ، وجوعٌ شديدٌ، وحصارٌ طال شهراً، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ قَالَ: «نَعَمْ اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا»، قَالَ فَضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ فَهَزَمَهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالرِّيحِ[٣].

فعند ذلك توجه رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[٤].

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال «ألا برجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا برجل

(١) سورة الأحزاب: آية (٢٢).
(٢) سورة الأحزاب: آية (١٢-١٣).
(٣) أخرجه أحمد (١٠٩٩٦)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠١٨).
(٤) أخرجه البخاري (٤١١٥)، ومسلم (١٧٤٢).

يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟»، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم قال: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي»، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله: «ولا تذعرهم عليّ»، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال: «قم يا نومان»[1].

إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين؛ لا شك هذه كرامة يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[2].

فأرسل الله على المشركين ريحاً شديدة باردة تقلع خيامهم وتطفئ نارهم، أرسل الله على المشركين جنداً من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٨).
(٢) سورة الأحزاب: آية (٢٥).
(٣) سورة الأحزاب: آية (٩).

ورجعت الأحزاب تجرَّ أذيال الخيبة والحزن لم ينالوا شيئًا مما جاءوا له، وقال ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**»[١].

وكان رسولنا ﷺ يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جُنده، ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»[٢].

(١) أخرجه البخاري (٤١١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٤١١٤)، ومسلم (٢٧٢٤).

القطفة الثامنة والأربعون: غزوة بني قريظة

غزوة الخندق كانت في شوال، وكان من حديثها أن سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ قدموا مكة فدعوا قريشاً إلى القتال[١].

ورجعت الأحزاب تجرَّ أذيال الخيبة والحزن لم ينالوا شيئاً مما جاءوا له، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾، وقال ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»[٢].

وبعد غزوة الأحزاب والنصر الذي نصر الله به رسوله ﷺ والمؤمنون، جاء الأمر من الله تبارك وتعالى إلى التوجه إلى بني قريظة التي نقضت العهد مع رسول الله ﷺ، وتحالفت مع الأحزاب سراً لضرب المسلمين في المدينة من الخلف.

أولاً: سبب الغزوة.

فالسبب الرئيسي لغزوة بني قريظة أنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وتعاونوا مع الأحزاب للقضاء على المسلمين في المدينة.

وكانوا أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ وأغلظهم ولذلك جرى عليهم ما لم يجرِ على إخوانهم[٣].

(١) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي (٢/ ٢٨٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤١١٠).
(٣) زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ١٥٣).

فلما خرج الوفد من اليهود وعلى رأسهم حُيي بن أخطب، وأبو رافع بن أبي الحُقيق إلى كفار مكة وإلى القبائل المجاورة خرجوا بعشرة آلاف مقاتل، ولما وصل هذا الجيش إلى المدينة ووجد الخندق الذي حال بينه وبين دخول المدينة، وطال الحصار، ولم يتمكنوا من دخول المدينة ذهب حيي بن أخطب اليهودي إلى يهود بني قريظة الذين يسكنون في الجهة الجنوبية من المدينة، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، لينقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ حتى يتمكن جيش الأحزاب من الدخول إلى المدينة من الجهة الجنوبية ليضربوا المسلمين من الخلف، فأتى حيي بن أخطب كعباً القرظي، وهو كبير بني قريظة، ثم ناداه يا كعب افتح لي فأغلق دونه الأبواب.

يا كعب افتح لي قال له كعب: ويحك يا حيي، إنك رجلٌ مشئوم وقد أعطيت محمداً عهداً وميثاقاً، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً فما أنا بناقض عهده.

فما زال حُيي بن أخطب بكعب القرظي يغريه حتى فتح له، فأخذ يحدثُه عن كثرة جيش الأحزاب الذي جاء به، وعن شدة قوة هذا الجيش وعن الأسلحة التي معهم حتى طمأنه أن النصر سيكون بجانب الأحزاب لا لمحمدٍ وأصحابه.

فلما أمن كعبٌ القرظي عاقبة الغدر، وعلم أن الدولة للأحزاب لا لمحمد وأصحابه؛ وافق حيي بن خطب على ما دعاه إليه من الغدر.

ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: «من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب»، قال الزبير أنا، ثم قال: «من يأتيني بخبر القوم»، قال الزبير أنا، قال النبي ﷺ: «إن لكلِّ نبي حوارياً، وحواري الزبير»[1]، فجاءه بالخبر أن بني قريظة فعلاً قد غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).

ثانيًا: جزاء وفاقًا.

عندما أراد اليهود بتحريضهم على المسلمين وبغدرهم أن يستأصلوا المسلمين من على وجه الأرض؛ وقع ذلك بهم فقتلهم رسول الله ﷺ وسبى نسائهم وذراريهم وأخذوا أرضهم وأموالهم قال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾[١].

لما رأت بنو قريظة أنهم وحدهم في المدينة مع رسول الله ﷺ، ورأوا أنهم قد هلكوا بسبب غدرهم ونقضهم عهد النبي ﷺ دخلوا حصونهم وأغلقوا أبوابهم، وجلسوا ينتظرون ما يُفعل بهم.

ودخل معهم حُيي بن أخطب اليهودي وفاءً بعهده لسيدهم كعب القرظي، حيث كان حين دعاه إلى نقض العهد والغدر أعطاه عهداً وميثاقـاً إن لم يكن ما أراد من استئصال المسلمين أن يرجع فيدخل معه في حصنه ليصيبه ما أصابه.

ولما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل -عليه السلام- فقال قد وضعت السلاح والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: «فإلى أين». قال ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم[٢].

فأصدر النبي ﷺ أوامره للجيش المسلم بالخروج إلى بني قريظة فوراً وبأسرع ما يمكن وقال لهم: «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي لم يُرد منا ذلك، فذُكِر للنبي ﷺ فلم يُعنفْ واحداً منهم[٣].

---

(١) سورة النبأ: آية (٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

يقول أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مَوْكِبِ جِبْرِيلَ حِينَ سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ[1].

تقول أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَرَّ عَلَى بَنِي غَنْمٍ وَهُمْ جِيرَانُ الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ فَقَالَ مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟

فَقَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ تُشْبِهُ لِحْيَتُهُ وَسِنُّهُ وَوَجْهُهُ جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَام- فَقَالَتْ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ قِيلَ لَهُمْ انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ[2].

قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَنَزَلُوا وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ قَالَتْ وَأَنَّى لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمْ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: قَدْ آنَ لِي أَنْ لَا أُبَالِيَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

وسعد بن معاذ قد أصابه سهم من رجل من المشركين في غزوة الأحزاب فأصاب أكحله فقطعه فدعا سعد ربه، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

فلما وصل سعد إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فأنزلوه**».

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٧)، وابن حبان (٧٠٢٨)، والحديث حسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٣)، والشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧).

فقال له رسول الله ﷺ احكم فيهم.

قَالَ سَعْدٌ فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُكْمِ رَسُولِهِ»**[1].

وفي رواية: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»[2].

ثم استزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار المدينة، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق، ثم طفق يبعث إليهم فيؤتى بهم أرسالاً فتضرب أعناقهم وفيهم عدو الله حُيي بن أخطب اليهودي الذي قال عندما رأى النبي ﷺ: والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ثم جلس فضربت عنقهُ لعنه الله[3].

ثالثًا: موت سعد بن معاذ.

سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي دعا الله، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة»، الذي حكم بحكم الملك من فوق سبع سموات، توفي رضي الله عنه، فيهتز لموته عرش الرحمن.

قال ﷺ: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ»[4].

الملائكة تحمل نعش سعد بن معاذ رضي الله عنه، فكان خفيفًا عندما حمله المسلمون.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٧)، وابن حبان (٧٠٢٨)، والحديث حسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٣)، والشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٠٣).

يقول الله تعالى في هذه الغزوة: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي عاونوهم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أي: اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولاً مظفورًا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ أي: غنَّمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ أي: أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم اللّه وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم[2].

رابعـًا: قتل أبو رافع.

وأبو رافع بن أبي الحُقيق اليهودي، الذي ذهب مع حُيي بن أخطب إلى كفار قريش ليحرضهم على استئصال المسلمين في المدينة لابد أن يأخذ جزاءه فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يقتلوه.

عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِى رَافِعٍ الْيَهُودِىِّ رِجَالاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَاللهِ بْنَ عَتِيكٍ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ، وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَرَاحَ

(١) سورة الأحزاب: آية (٢٦-٢٧).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص (٧٠١).

النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ فَقَالَ عَبْدُاللهِ لأَصْحَابِهِ اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ، فَإِنِّى مُنْطَلِقٌ، وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّابِ، لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ.

فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ الْبَابِ ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِى حَاجَةً، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ، فَهَتَفَ بِهِ الْبَوَّابُ يَا عَبْدَاللهِ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ، فَإِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ. فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ، ثُمَّ عَلَّقَ الأَغَالِيقَ عَلَى وَتَدٍ قَالَ فَقُمْتُ إِلَى الأَقَالِيدِ، فَأَخَذْتُهَا فَفَتَحْتُ الْبَابَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ، وَكَانَ فِي عَلاَلِيَّ لَهُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيْهِ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ، قُلْتُ إِنِ الْقَوْمُ نَذِرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ.

فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيَالِهِ، لاَ أَدْرِى أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ فَقُلْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ.

قَالَ مَنْ هَذَا فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ، فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، وَأَنَا دَهِشٌ فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا، وَصَاحَ فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ، فَأَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ. فَقَالَ لأُمِّكَ الْوَيْلُ، إِنَّ رَجُلاً فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلُ بِالسَّيْفِ، قَالَ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثْخَنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ ظُبَةَ السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ، فَعَرَفْتُ أَنِّى قَتَلْتُهُ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبْوَابَ بَابًا بَابًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي وَأَنَا أُرَى أَنِّى قَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَانْكَسَرَتْ سَاقِي، فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ فَقُلْتُ لاَ أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقَتَلْتُهُ فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ فَقَالَ أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ.

فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابي فَقُلْتُ النَّجَاءَ، فَقَدْ قَتَلَ اللهُ أَبَا رَافِعٍ. فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ». فَبَسَطْتُ رِجْلِي، فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ(١).

فالله سبحانه للظالمين بالمرصاد، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾(٢).

يقول ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾(٣).

خامسًا: إسلام ثُمامة بن أُثال.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ». فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِى تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ. حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ».

قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ. فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ». فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣٩).
(٢) سورة إبراهيم: آية (٤٢).
(٣) سورة هود: آية (١٠٢).
أخرجه البخاري (٤٦٨٦).

مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ. قَالَ لاَ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ وَاللهِ لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِي ﷺ[١].

أسلم ثمامة عندما رأى أخلاق رسول الله ﷺ وأخلاق المسلمين، وكيف كان يعامل أحدهما الآخر، وكيف كانت صلاتهم مع رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

القطفة التاسعة والأربعون: عمرة الحديبية

عمرة الحديبية، وتسمى صلح الحديبية، والحديبية: موضع معروف من جهة جدة بينها وبين مكة عشرة أميال[١].

رأى النبي ﷺ رؤيا أفرحته فجمع أصحابه لكي يقص عليهم الرؤيا رأى أنه معهم وزار البيت الحرام وأخذ مفاتيحها وطافوا بالبيت وسعوا وقصروا أو حلقوا، ورؤيا الأنبياء حق، وهي وحي من عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[٢].

ففرح الصحابة وكبروا أنهم سيزورون البيت الحرام فأذن مؤذنه في الناس بأن النبي ﷺ معتمر، فأجابه إلى العمرة ألف وأربعمائة من المؤمنين الصادقين.

وأما المنافقون فقد ظنوا بالله ظن السوء، ظنوا أن محمداً وأصحابه إن دنوا من مكة، فإن قريش والعرب سيستأصلونهم ويبيدونهم، فلا يرجع منهم واحد البتة.

فزوروا في أنفسهم عذراً يعتذرون به للنبي ﷺ إن هو رجع، فالله سبحانه فضحهم، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ

(١) هدي السادي، ابن حجر ص (١٠١).
(٢) سورة الفتح: آية (٢٧).

﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾[1].

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، ونظراً لتوقع الشر من قريش فإن المسلمين أخذوا سلاحهم فكانوا مستعدين للقتال، فلما وصلوا إلى ذي الحليفة أحرموا بالعمرة، وساقوا الهدي سبعين بدنة، وبعث النبي ﷺ عيناً إلى مكة ليأتيه بأخبار قريش.

ولما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى عُسْفَان جاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن قريشاً قد جمعوا الجموع، وخرجوا يريدون أن يقاتلوه، ويصدوه عن البيت الحرام.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يغير على ديار الذين ناصروا قريشاً، واجتمعوا معها ليدعوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم.

فقال: «شيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين»[2]. قال أبو بكر يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله»[3].

أخذ رسول الله ﷺ والصحابة يسيرون إلى مكة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ

(١) سورة الفتح: آية (١١-١٣).
(٢) المحروب هو من سلب ماله.
(٣) أخرجه البخاري (٤١٧٩).

الْيَمِينِ». فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِي ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ.

فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ»[(١)].

أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إلى قريش رجلاً من أصحابه يخبرهم أنهم جاءوا عماراً، ولم يجيئوا لقتال، فدعا عمر، فقال عمر: يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فأرسله، فانطلق عثمان فمر على نفر من قريش فقالوا له: أين تريد؟

فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم؛ أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً، فقالوا: سمعنا ما تقول فأنفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فحمله بين يديه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، وتأخر عثمان رضي الله عنه في مكة حتى أشيع أنه قد قتل.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: هذه يد عثمان، ثم جاء عثمان رضي الله عنه بعد أن تمت البيعة(١).

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾(٢).

أولاً: بديل يتوسط بين النبي ﷺ وقريش.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ».

فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ. وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ. قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ(٣).

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٣٦٩٨).
(٢) سورة الفتح: آية (١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

ثانيـًا: رسول قريش عروة بن مسعود.

قَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَي قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى. قَالَ أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ قَالُوا بَلَى. قَالَ فَهَلْ تَتَّهِمُونِي. قَالُوا لاَ. قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَىَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى. قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِى آتِهِ. قَالُوا ائْتِهِ. فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَي مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللهِ لأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ. قَالَ أَمَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ. قَالَ وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِىَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِىِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِىِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ أَي غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيءٍ».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِىِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ. قَالَ فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا

أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا فُلاَنٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ**». **فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ. فَقَالَ دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ**». فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»[1].

ثالثًا: عقد الصلح.

فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**». قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**». ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**». فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ.

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ**».

فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**». فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا.

قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ.

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**». قَالَ فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَىْءٍ أَبَدًا.

قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**». قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ: «**بَلَى، فَافْعَلْ**». قَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

قَالَ مِكْرَزٌ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا

فِي اللهِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا قَالَ: «بَلَى».

قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ: «بَلَى». قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ نَاصِرِي».

قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ».

قَالَ قُلْتُ لاَ. قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ». قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا قَالَ بَلَى. قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى.

قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهْوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ.

قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً. قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا». قَالَ فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

رابعـًا: الصحابة ينتظرون أن يغير النبي ﷺ رأيه.

فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا،

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ -رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ- وَهْوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِى جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللهِ إِنِّي لأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا. فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ فَقَالَ أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ.

فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِى إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِى اللهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ». فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ.

قَالَ وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلاَّ لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلاَّ اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ»[1].

خامساً: صلح الحديبية فتحاً مبيناً.

صلح الحديبية فتحاً مبيناً على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، ففي عودة النبي ﷺ والصحابة من الحديبية نزل على رسول الله ﷺ الوحي بسورة الفتح، يقول ﷺ لعمر بن الخطاب: «لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهيَ أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾»[2].

يقول البراء رضي الله عنه: «**تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية**»[3].

وقد اشتملت هذه السورة على المغفرة من الله سبحانه لرسول الله ﷺ ما تقدم وما تأخر من ذنبه، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).
(٢) سورة الفتح: آية (١).
أخرجه البخاري (٤١٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤١٥٠).

﴿تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[1]. وتبشير المؤمنين بالجنة، قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾[2].

التبشير بفتح خيبر، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾[3].

رضاه سبحانه عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[4].

البشرى بالنصر والتمكين في الأرض وظهور هذا الدين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾[5].

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدمها وخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثا، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نرده عليك، ومن

---

(١) سورة الفتح: آية (١-٣).
(٢) سورة الفتح: آية (٥).
(٣) سورة الفتح: آية (٢٠).
(٤) سورة الفتح: آية (١٨).
(٥) سورة الفتح: آية (٢٨).

أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، فقالوا: يا رسول الله، نعطيهم هذا؟ فقال: «من أتاهم منا فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجا ومخرجا»[١].

وفي قصة الحديبية أنزل الله عز وجل فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة أو النسك في شأن كعب بن عجرة[٢]. وفيها دعا رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثا، وللمقصرين مرة[٣].وفيها نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[٤].

وفيها أهدى رسول الله ﷺ في جملة هديه جملا كان لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة؛ ليغيظ به المشركين[٥].

وفيها أنزلت سورة الفتح، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، وكان في الشرط أن من شاء أن يدخل في عقده ﷺ دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل[٦].

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذي كان بينهم، فلم يرجعها إليهم، ونهاه الله عز وجل عن ذلك[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، وأبو داود مختصراً (٢٧٦٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ١٤٥)، وإسناده حسن.
(٢) أخرجه البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١).
(٣) أخرجه أحمد (٣٣١١).
(٤) أخرجه مسلم (١٣١٨)، من حديث جابر بن عبدالله -رضي الله عنه-.
(٥) أخرجه أحمد (٢٣٦٢)، وابن خزيمة (٢٨٩٧).
(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٦).
(٧) زاد المعاد (٣/ ٣٥٣-٣٥٥).

القطفة الخمسون: ثمرات ونتائج صلح الحديبية

وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

فمنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، فكانت هذه الهدنة بابا له ومفتاحا ومؤذنا بين يديه، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدرا وشرعا أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح؛ فإن الناس أمن بعضهم بعضا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادءوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحا مبينا.

قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاء عظيما[1].

وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية[2].

وحقيقة الأمر أن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودا مغلقا حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيما وهضما للمسلمين، وفي الباطن عزا وفتحا ونصرا، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي

(١) غريب القرآن، ابن قتيبة، ص (٤١٢).
(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٢٣٨).

المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[١].

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب[٢]

فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونصبوه لحربهم وهم لا يشعرون، فذلوا من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعز رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله واحتملوا الضيم له وفيه، فدار الدور وانعكس الأمر وانقلب العز بالباطل ذلا بحق، وانقلبت الكسرة لله عزا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته وتصديق وعده ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضى بقضاء الله وتصديق موعوده، وانتظار ما وعدوا به، وشهود منة الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم وقويت به نفوسهم وازدادوا به إيمانا.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه،

---

(١) سورة البقرة: آية (٢١٦).
(٢) البيت للبحتري كما في البصائر والذخائر (٦/ ١٩٠).

ولهدايته الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضيم وإعطاء ما سألوه، كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى وفتحه.

وتأمل كيف وصف سبحانه النصر بأنه عزيز في هذا الموطن ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب وقلقت أشد القلق، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بها إيمانا إلى إيمانهم.

ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله وأكدها بكونها بيعة له سبحانه، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسوله ونبيه، فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعته بيعته، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده.

ثم أخبر أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للموفي بها أجرا عظيما، فكل مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث وموف.

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظن بالله أنه يخذل رسوله وأولياءه وجنده ويظفر بهم عدوهم فلن ينقلبوا إلى أهليهم، وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضى في

قلوبهم، وأثابهم على الرضى بحكمه والصبر لأمره فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر.

ووعدهم سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان: أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم، والثاني: أنها فتح خيبر وغنائمها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾[1]، فقيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدي اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها وأهل خيبر ومن حولها وأسد وغطفان، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينهم كالشامة، فلم يصلوا إليهم بسوء، فمن آيات الله سبحانه كف أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم وشدة عداوتهم، وتولي حراستهم وحفظهم في مشهدهم ومغيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين وعلامة على ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة وفتوحا عظيمة، فعجل لهم فتح خيبر وجعلها آية لما بعدها وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكرانا، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية.

---

(١) سورة الفتح: آية (٢٠).

ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ٢٠﴾، فجمع لهم إلى النصر والظفر والغنائم الهداية، فجعلهم مهديين منصورين غانمين، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحا أخرى لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هي مكة، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوح التي بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه، لولى الكفار الأدبار غير منصورين، وأن هذه سنته في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنته.

فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد وانتصروا عليهم ولم يولوا الأدبار؟ قيل: هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر، وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذي كف أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم؛ لما له في ذلك من الحكم البالغة التي منها: أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا وهم يكتمون إيمانهم، لم يعلم بهم المسلمون، فلو سلطكم عليهم لأصبتم أولئك بمعرة الجيش، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به.

وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم؛ لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم لعذب أعداءه عذابا أليما في الدنيا؛ إما بالقتل والأسر وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ورسوله بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار في قلوبهم من حمية الجاهلية التي مصدرها الجهل والظلم التي لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التي هي بقدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى، وهي جنس يعم كل كلمة يتقى الله بها، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص، وقد فسرت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها، فألزمها الله أولياءه وحزبه، وإنما حرمها أعداءه صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها من هو أحق بها وأهلها، فوضعها في موضعها ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها، وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه أنه صدق رسوله رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولا بد، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحا قريبا توطئة له وتمهيدا.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض،

ففي هذا تقوية لقلوبهم وبشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه، ولا تخليا عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق ووعده أن يظهره على كل دين سواه.

ثم ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعدلهم وعلمهم ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء[1].

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٣٦٧-٣٧٥).

القطفة الحادية والخمسون: سحر النبي ﷺ

أولاً: ما معنى السحر؟

السحر في اللغة: هو كل ما لطف وخفي سببه.

وفي الاصطلاح: بأنه خارق للعادة يظهر من نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة.

قال ابن قدامة المقدسي: «وهو عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له وله حقيقة فمنه ما يقتل وما يمرض وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه وما يبغض احدهما الى الآخر أو يحبب بين اثنين»[١].

ثانيـًا: هل للسحر حقيقة؟

اختلف الناس في السحر هل له حقيقة، فيؤثر في الأجسام كغيره من الأمراض؟ أم هو تخييل فقط ولا حقيقة له؟ والجمهور على أن للسحر حقيقة: قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة[٢]. وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة[٣].

---

(١) المغني، ابن قدامة (١٠/ ١٠٤).
(٢) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٢).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٢٢٢).

واستدلوا بعدة أدلة منها:

١- قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾[1].

٢- وقوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[2].

فقد دلت الآيتين على إثبات حقيقة السحر، وأن السحر يفرق بين الرجل وزوجته، وأن له ضرر، ولكنه متعلق بمشيئة الله.

ثالثًا: قصة هاروت وماروت.

قال ابن حجر: «إن سليمان كان جمع كتب السحر والكهانة فدفنها تحت كرسيه فلم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين يعرفون الأمر جاءهم شيطان في صورة إنسان فقال لليهود: هل أدلكم على كنز لا نظير له؟

قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فقال لهم: إن سليمان كان يضبط الأنس والجن بهذا، ففشا فيهم أن سليمان كان ساحراً، فلما نزل القرآن بذكر سليمان في الأنبياء أنكرت اليهود ذلك وقالوا إنما كان ساحرا، فنزلت هذه الآية»[3].

وفي قصة هاروت وماروت لم يُنقل إلينا شيءٌ منها بسند صحيح عن رسول الله ﷺ.

(١) سورة الأعراف: آية (١١٦).
(٢) سورة البقرة: آية (١٠٢).
(٣) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٨٩).

قال الإمام ابن كثير: «وحاصلُها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متّصلُ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بسْطٍ ولا إطنابٍ فيها، فنحن نؤمِن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال»[1].

رابعـًا: هل سُحِر النبي ﷺ؟

وقد بيّن الواقدي السنة التي وقع فيها السحر: أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل المحرم، جاءت رؤساء يهود الذين بقوا بالمدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق إلى لبيد ابن الأعصم اليهودي، وكان حليفا في بني زريق، وكان ساحراً قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسحر وبالسموم، فقالوا له: يا أبا الأعصم أنت أسحر منا وقد سحرنا محمداً فسحره منا الرجال والنساء فلم نصنع شيئـًا، وأنت ترى أثره فينا وخلافه ديننا ومن قتل منا وأجلى، ونحن نجعل لك على ذلك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ فعمد إلى مشط وما يمشط من الرأس من الشعر فعقد فيه عقداً وتفل فيه تفلاً وجعله في جب طلعة ذكر.

ثم انتهى به حتى جعله تحت أرعوفة البئر فوجد رسول الله ﷺ أمراً أنكره حتى يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وأنكر بصره حتى دله الله عليه فدعا جبير بن إياس الزرقي، وقد شهد بدراً، فدله على موضع في بئر ذروان تحت أرعوفة البئر فخرج جبير حتى استخرجه ثم أرسل إلى لبيد بن الأعصم فقال:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٤١).

ما حملك على ما صنعت فقد دلني الله على سحرك وأخبرني ما صنعت؟ قال: حب الدنانير يا أبا القاسم[١].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بني زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشيء وَمَا فَعَلَهُ[٢]، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهْوَ عندي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِى فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ[٣]، أتاني رَجُلَانِ[٤] فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رأسي، وَالآخَرُ عِنْدَ رجلي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ فَقَالَ مَطْبُوبٌ. قَالَ مَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ فِي أي شيء قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ[٥]، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ[٦].

قَالَ وَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ». فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ فَقَالَ «يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ[٧]، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أَسْتَخْرِجُهُ قَالَ: «قَدْ عافاني اللهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا»[٨]. فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ[٩].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ١٩٧).

(٢) أي: يخيل إليه أنه يفعل بعض أمور الدنيا التي لم يُبعث لأجلها مع عصمته ﷺ عن مثل ذلك في أمور الدين.

وقال بعضهم: أن المراد بالحديث: أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثيراً ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة، وورد في لفظ للحديث: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن».

(٣) أي أجابني بما سألته عنه.

(٤) أي ملكان، فقيل أنهما (جبريل وميكائيل).

(٥) أي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.

(٦) وهو الغشاء الذي يكون على الطلع وأراد بالجب داخلها.

(٧) النقاعة: الماء الذي ينقع فيه الحناء.

(٨) أي أُظهر وأُهيِّج.

(٩) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه فاحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشي من تماديه أن يضعفه عن عبادته جنح إلى التداوي ثم إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية في الكمال[1].

فقد خشي ﷺ من إخراجه وإحراقه وإشاعته ضرراً على المسلمين من تذكر السحر أو تعلمه وشيوعه والحديث فيه أو إيذاء فاعله ونحو ذلك.

وقد أنكر هذا طائفة من الناس أي: سحر النبي ﷺ وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنوه نقصاً وعيباً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسُّم لا فرق بينهما[2].

خامساً: حكم الساحر والساحرة؟

عن بَجالة بن عَبْدة قال: «كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر»[3]، وصح عن حفصة رضي الله عنها «أنها أمرت بقتل جارية سحرتها، فقتلت»[4].

الساحر يقتل إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب، ومن قال به أبو حنيفة، ومالك، وأحمد إلا الشافعي. وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إجماع الأمة بل أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله.

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٩٣).
(٢) زاد المعاد، ابن القيم (٤/ ١٢٤).
(٣) أخرجه أحمد (١٦٥٧).
(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٧١).

سادسًا: حكم تعلم السحر؟

قال ابن حجر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفراً[١].

فيحرم تعلم السحر سواء للعمل به أو ليتقيه، وقد نص الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على أن تعلمه كفر، وقد نص النبي ﷺ على أن السحر أحد الكبائر وأمر باجتنابه فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا يا رسول الله، وما هن قال: «الشرك بالله، والسحر...»[٢].

وأما ما يتناقله الناس وهو قولهم: «تعلموا السحر ولا تعملوا به»، هذا الحديث باطل لا أصل له، ولا يجوز تعلم السحر ولا العمل به وذلك منكر بل كفر وضلال.

سابعًا: حكم إتيان الساحر والساحرة؟

عن بعض أزواج النبي ﷺ: عن النبي ﷺ قال من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).
(٤) أخرجه أحمد (٩٥٣٦).

ثامنًا: كيف يعرف الساحر؟

فهذه علامات يُعرف بها الساحر من غيره، ومن تلك العلامات:

١ – أن يسأل المريض عن اسمه واسم أمه، وفي بعض الأحيان يخبره باسمه واسم بلده.

٢ – أن يأخذ أثراً من آثار المريض (ثوب – قلنسوة – منديل – فانيله...).

٣– أحيانًا يطلب حيوانًا بصفات معينة ليذبحه ولا يذكر اسم الله عليه، وربما لطخ بدمه أماكن الألم من المريض، أو يرمي به في مكان خرب.

٤ – كتابة الطلاسم، وتلاوة العزائم الغير مفهومة، أو إعطاء المريض حجابًا.

٥ – يأمر المريض بأن يعتزل الناس فترة معينة في غرفة لا تدخلها الشمس.

٦ – أحيانًا يطلب من المريض ألا يمس ماءً لمدة معينة غالبًا تكون أربعين يومًا.

٧– يعطي للمريض أوراقًا يحرقها ويتبخر بها.

٨– يكتب للمريض حروفًا مقطعة في ورقة، أو في طبق، ويأمر المريض بإذابته وشربه.

تاسعًا: ما علاقة السحر بالحسد؟

فالحسد شر عظيم فقد كان سبب لأول معصية في السماء وأول معصية في الأرض، أما في السماء فقد كانت من إبليس حين امتنع من السجود لآدم حسداً، وحين قتل قابيل هابيل حسداً، والحسد بداية لكلِّ شر.

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدا فالحاسد من جند إبليس وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه وربما يعبده من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته وربما يسجد له[1].

عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قيل لرسول الله ﷺ أي الناس أفضل قال: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ»، قالوا صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ»[2].

ولا بغي أي لا ظلم له ولا غل أي لا حقد ولا حسد أي لا تمني زوال نعمة الغير من باب التخصيص والتعميم على سبيل التكميل والتتميم لئلا يتوهم اختصاص الإثم بحق الله فصرح بأنه لا مطالبة عليه لا من الخلق ولا من جهة الخالق.

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني السلسلة الصحيحة (٩٤٨).

القطفة الثانية والخمسون: نهيه ﷺ عن الحسد

الحسد شر عظيم فقد كان سبب لأول معصية في السماء وأول معصية في الأرض، أما في السماء فقد كانت من إبليس حين امتنع من السجود لآدم حسداً، وحين قتل قابيل هابيل حسداً.

أولاً: ما معنى الحسد؟

هو تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يحصل للحاسد مثلها، ويعرف الحسد باسم العين أي: الإصابة بالعين. وأصل الحسد: من إعجاب العائن (الحاسد) بالشيء ثم كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى العين (المحسود).

ثانياً: ما علاقة الحسد بالسحر؟

قال ابن القيم: «والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقيقة من أتباعه.

لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدا فالحاسد من جند إبليس وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه وربما يعبده من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته وربما يسجد له»[١].

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

ثالثاً: الأدلة على الحسد من الكتاب والسنة.

فالحسد ثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾[١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، لينفذونك ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: يعينوك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إيَّاك.

قال ابن كثير: وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة[٢].

وقد ذُكر الحسد باللفظ الصريح في أربعة مواضع من القرآن الكريم هي: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٣].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤].

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[٥].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾[٦].

أما في السنة النبوية، فقد ثبتت عدة أحاديث، منها: فعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر**»[٧].

---

(١) سورة القلم: آية (٥١).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٧).
(٣) سورة البقرة: آية (١٠٩).
(٤) سورة النساء: آية (٥٤).
(٥) سورة الفتح: آية (١٥).
(٦) سورة الفلق: آية (٥).
(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٤٩).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العين لتُولِعُ[١] بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً فيتردى منه»[٢]. ومعناه: أن العين تؤثر في الرجل وتصيبه ومن شده ذلك أنه يصعد مكاناً مرتفعاً ثم يسقط من أعلاه.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس»[٣] يعني بالعين.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن استرقي من العين[٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العين حق تستنزل الحالق»[٥].

وجاء النهي عن الحسد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: **«ولا تحاسدوا»**.

رابعاً: ما هي أسباب الحسد؟

وللحسد عدة أسباب، منها:

١- العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه في غرضه أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

٢- الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو منصباً، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره.

---

(١) تولع بالرجل: أي تعلق بالرجل الكامل الرجولة.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٨٩).
(٣) أخرجه الطيالسي (١٧٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٧٤٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٥).
(٥) أخرجه أحمد (٢٤٧٧)، والحاكم (٧٤٩٨)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٢٥٠).

٣- حب الرياسة والجاه.

٤- خبث النفس وشحها على عباد الله، فمن الناس من إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم الله به عليه ساءه ذلك، وإذا وصف له سوء حال عبد فرح بذلك، وكأن الناس تأخذ من خزائنه.

٥- الخوف من فوت المقاصد، ومنه حسد إخوة يوسف له لفوزه بقلب أبيهم قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾[1].

خامسًا: ما أقسام الحسد؟

١- أن يتمنى زوال النعمة من مال أو علم أو جاه أو سلطان عن غيره لتحصل له. وهذا محرم.

٢- أن يتمنى زوال النعمة عن غيره، حتى ولو لم تحصل له، وهو محرم والأكثر شراً وخبثًا.

٣- أن يتمنى لنفسه مثلها، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها عنه.

وهو مندوب إليه إن كان في الدين وهذا هو بالغبطة وتسميته حسداً من باب المجاز، فيقول ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[2].

وإن كان في أمر الدنيا فمذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: آية (٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).
(٣) سورة النساء: آية (٣٢).

سادسًا: هل العين تصيب المعين، وما علاجه؟

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن العين حق»[(١)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[(٢)].

(العين حق) أي: الإصابة بالعين ثابتة موجودة ولها تأثير في النفوس.

(لو كان شيء سابق القدر سبقته العين) أي: فلو كان شيء غالب القدر وسابقه لسبقته العين، فلو أمكن أن يسبق القدر شيء فيؤثر في وجود الشيء وزواله قبل أوانه المقدر له سبقت العين القدر، ففيه مبالغة لكونها سببًا في شدة ضررها.

قال الخطابي: في الحديث أن للعين تأثيرا في النفوس، وإبطال قول الطبائعيين أنه لا شيء إلا ما تدرك الحواس الخمس وما عدا ذلك لا حقيقة له.

وقال المازري: زعم بعض الطبائعيين أن العائن ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد، وهو كإصابة السم من نظر الأفاعي[(٣)].

وعن أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنْ الْجُحْفَةِ اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجِلْدِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فَلُبِطَ سَهْلٌ فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَمَا يُفِيقُ قَالَ هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامِرًا فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨).
(٣) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٠٠).

ثُمَّ قَالَ لَهُ اغْتَسِلْ لَهُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ[1].

(فلبط) أي: صرع وسقط على الأرض. (داخلة إزاره) اختلفوا في ما هو، والصحيح طرف إزاره الذي يلي جسده.

قال القاضي عياض: في هذا الحديث من الفقه ما قاله بعض العلماء أنه ينبغي إذا عُرف أحد بالإصابة بالعين أن يُجتنب ويُتحرز منه وينبغي للإمام منعه من مداخلة الناس ويأمره بلزوم بيته فإن كان فقيراً رزقه ما يكفيه ويكف أذاه عن الناس فضرره أشد من ضرر آكل الثوم والبصل الذي منعه النبي ﷺ دخول المسجد لئلا يؤذي المسلمين ومن ضرر المجذوم الذي منعه عمر t والخلفاء بعده الاختلاط بالناس، ومن ضرر المؤذيات من المواشي التي يؤمر بتغريبها إلى حيث لا يتأذى به أحد[2].

سابعًا: كيف الوقاية والعلاج من الحسد؟

فمن تلك الأسباب الواقية من السحر قبل وقوعه:

١ - التحصن بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[4].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٦١٩)، وأحمد (١٥٩٨٠)، وابن حبان (٦١٠٦).
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي (١٤/ ١٧٣).
(٣) سورة الإسراء: آية (٨٢).
(٤) سورة فصلت: آية (٤٤).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»(١).

٢- المحافظة على أذكار الصباح والمساء، فعن عبدالله بن خبيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»(٢).

وعن أبي عياش الزرقي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل وحط عنه عشرة خطيئات ورفع له عشر درجات وكان له حرز من الشيطان حتى يمسي وإذا أمسى فمثل ذلك حتى يصبح»(٣).

٣- المحافظ على أذكار النوم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح»(٤).

٤- أكل سبع تمرات من تمر العجوة في صبيحة كل يوم، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «مَنِ اصْطَبَحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌّ وَلاَ سِحْرٌ»(٥).

٥- الدعاء بالبركة إذا رأى ما يعجبه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢)، والحديث حسنه الشيخ الألباني.
(٣) أخرجه مسلم (٨١٤).
(٤) أخرجه البخاري تعليقاً (٢٣١١)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٩٥).
(٥) أخرجه البخاري (٥٧٧٩)، ومسلم (٢٠٤٧).
(٦) سورة الكهف: آية (٣٩).

القطفة الثالثة والخمسون: غزوة خيبر

خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال.

أولاً: سبب غزوة خيبر.

لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش وأمن تماماً بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين، وهما: يهود وقبائل نجد حتى ينعم الأمن والسلام.

فبدأ ﷺ باليهود، وذلك أن اليهود في خيبر نقضوا المعاهدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ وعقدوا حلفاً مع قريش ضد الرسول ﷺ يهدف إلى تطويقه من الشمال إلى الجنوب.

واليهود في خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين في غزوة الأحزاب، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ويهود خيبر هم الذين وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ.

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

ثانياً: موقف المنافقين.

عندما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى خيبر أرسل رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول إلى يهود خيبر: «أن محمداً قصدكم وتوجه إليكم

فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عُزل لا سلاح معهم إلا قليل».

فلما علم ذلك يهود خيبر أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ومظاهرين لهم على المسلمين وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

ثالثًا: الجيش الإسلامي في الطريق إلى خيبر.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ يَا عَامِرُ أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ. وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا وإن أردوا فتنة أبينا

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ هَذَا السَّائِقُ**». قَالُوا عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ. قَالَ: «**يَرْحَمُهُ اللهُ**». قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْلاَ أَمْتَعْتَنَا بِهِ[2].

---

(١) سورة التوبة: آية (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (٢٤٧٧).

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعرفون أن رسول الله ﷺ إذا استغفر لرجل منهم يخصه استشهد فعلموا أن عامر بن الأكوع سيستشهد في غزوة خيبر.

وكان الصحابة إذا صعدوا كبروا وإذا نزلوا سبحوا[1]، فأشرفوا على وادٍ فرفعوا صوتهم بالتكبير الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»[2].

رابعًا: الوصول إلى خيبر.

ولما أشرف الجيش المسلم على خيبر قال لهم ﷺ «**قفوا**»، ثم تضرع ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء: «**اللهم رب السموات السبع وما أضللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها**»[3].

وصل جيش الإسلام إلى أسوار خيبر، وبات ﷺ والمسلمون خارج خيبر، واليهود لا يشعرون فلما أصبح النبي ﷺ والمسلمون صلوا الفجر في أول وقته، ثم دخلوا خيبر واليهود خارجون إلى مزارعهم بالآت الزراعة.

فلما رأوا الرسول ﷺ والجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس -أي: الجيش- ثم فروا هاربين ودخلوا حصونهم كما وصفهم الله في كتابه، فقال:

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٣٧٧)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة، ص (٣٤٠).

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾[(١)].

فلما رأى الرسول ﷺ ما بهم من الرعب قال: «الله أكبر خربت خيبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[(٢)].

وتحصنت يهود خيبر في ثمانية حصون أشدها تحصناً هو حصن ناعم وكان هذا الحصن هو خط الدفاع الأول لليهود، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب اليهودي: ملك اليهود -الذي كان يعد بالألف- أي: كان عندهم بألف رجل.

قبل الهجوم على خيبر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه مبشراً لهم بالفتح: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه**».

فبات الناس يدُّكون -أي: يتهامسون- أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

فقال ﷺ: «**أين علي بن أبي طالب؟**»، فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه -أي: به رمد-.

فقال ﷺ: «أرسلوا إليه»، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»[(٣)].

---

(١) سورة الحشر: آية (١٣-١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

أخذ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الراية، وتحرك بجيش المسلمين إلى أول حصن من حصون اليهود، ألا وهو حصن ناعم وهو من أشد حصون اليهود تحصناً، ويوجد فيه مرحب ملك اليهود الذي يعد بالألف.

فدعاهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للإسلام فرفضوا هذه الدعوة، وخرج ملكهم مرحب إلى ميدان القتال ودعا إلى المبارزة وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

-أي: أقتل الأعداء قتلاً واسعاً- فتقدم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مرحب فعلاه بالسيف فقطع رقبته، ثم تقدم نحو حصون اليهود ففتحها حصناً حصناً، وكان الفتح على يد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما اطمأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر بعد فتحها، أهديت إليه شاه فيها سم من امرأة يهودية، لتعلموا أن اليهود أهل غدر وخيانة ومكر.

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**». فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ: «**إِنِّى سَائِلُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ**».

فَقَالُوا نَعَمْ. قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَبُوكُمْ**». قَالُوا فُلاَنٌ.

فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ». قَالُوا صَدَقْتَ. قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ» فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا.

فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ». قَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا -ثُمَّ قَالَ- هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ**». فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا». قَالُوا نَعَمْ. قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ». قَالُوا أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ[1].

ثم جيء بالمرأة التي وضعت السم في الشاة فسألها رسول الله ﷺ: «**لم وضعت السم في الشاة؟**». قالت اليهودية: أردت أن أقتلك.

فقال ﷺ: «**ما كان الله ليسلطك عليّ**». قال الصحابة رضي الله عنهم يا رسول الله؟ أفلا نقتلها؟ قال ﷺ: «**لا**»، وسيأتي بيان ذلك.

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد فتح الله له فتحاً مبيناً، ونصره نصراً عزيزاً، وحقق للمسلمين ما وعدهم به: ﴿ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ** ﴾[2].

وقسم رسول الله ﷺ هذه المغانم الكثيرة التي غنمها من يهود خيبر كما أمره الله تعالى، وأثناء القسمة أدركه مهاجره الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فضرب لهم بسهم، ولم يسهم لمن غاب عن خيبر إلا لمهاجرة الحبشة، وكان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت فأعتقها رسول الله ﷺ وجعل عتقها صداقها، وبنى بها، وأولم عليها بالتمر والسمن، ولم يكن في وليمتها لحم قط.

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٩).
(٢) سورة الفتح: آية (١٩-٢٠).

ولما دخل رسول الله ﷺ على صفية وجد في وجهها خضرة فقال لها رسول الله ﷺ: **«ما هذا؟»**.

قالت: رأيت كأن القمر زال من مكانه فوقع في حجري، فذكرت ذلك لزوجي ابن أبي الحقيق اليهودي، فلطمني على وجهي، وقال تمنين هذا الملك الذي بالمدينة -يقصد رسول الله ﷺ وأنا والله يا رسول الله لا أذكر من أمرك شيئاً[١].

ولكن هذه الرؤيا التي رأتها هي زواجها من النبي ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِى الإِسْلاَمَ **«هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**.

فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالاً شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، الَّذِى قُلْتَ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُ قَدْ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالاً شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ.

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ **«إِلَى النَّارِ»**. قَالَ فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النَّبِىُّ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: **«اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّى عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ»**.

ثُمَّ أَمَرَ بِلاَلاً فَنَادَى بِالنَّاسِ «إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»[٢].

وقد قُتل في هذه المعركة من المسلمين ستة عشر رجلاً، ومن اليهود ثلاثة وتسعون قتلاً.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٣٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

القطفة الرابعة والخمسون: نتائج وفوائد غزوة خيبر

وفي هذه الغزاة سُمَّ رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمتها، وسألت: أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع. فأكثرت من السم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة ثم قال: «اجمعوا لي من ها هنا من اليهود». فجمعوا له، فقال لهم: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقي فيه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان. قال: «كذبتم، أبوكم فلان». قالوا: صدقت وبررت. قال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفوننا فيها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها، فوالله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم. قال: «أجعلتم في هذه الشاة سماً؟» قالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك[1].

وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله ليسلطك علي». قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا». ولم يتعرض لها ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٩).
(٢) حديث احتجامه ﷺ أخرجه أحمد (٢٧٨٤).

واختلف في قتل المرأة، فقال الزهري: أسلمت فتركها، ذكره عبدالرزاق[١] عن معمر عنه، ثم قال معمر: والناس تقول: قتلها النبي ﷺ.

وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلى خيبر تراهن عظيم، وتبايع، فمنهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه، ومنهم يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر، وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وشهد فتح خيبر، وكانت تحته أم شيبة أخت بني عبد الدار بن قصي، وكان الحجاج مكثرا من المال، كانت له معادن بأرض بني سليم، فلما ظهر النبي ﷺ على خيبر قال الحجاج بن علاط: إن لي ذهبا عند امرأتي، وإن تعلم هي وأهلها بإسلامي فلا مال لي، فأذن لي فلأسرع السير وأسبق الخبر، ولأخبرن أخبارا إذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي. فأذن له رسول الله ﷺ.

فلما قدم مكة قال لامرأته: أخفي علي واجمعي ما كان لي عندك من مال؛ فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه؛ فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم، وإن محمدا قد أسر وتفرق عنه أصحابه، وإن اليهود قد أقسموا لتبعثن به إلى مكة ثم لتقتلنه بقتلاهم بالمدينة، وفشا ذلك بمكة، واشتد على المسلمين وبلغ منهم، وأظهر المشركون الفرح والسرور، فبلغ العباس عم رسول الله ﷺ زجلة الناس، وجلبتهم، وإظهارهم السرور، فأراد أن يقوم ويخرج فانخزل ظهره، فلم يقدر على القيام، فدعا ابنًا له يقال له: قُثَم، وكان يشبه رسول الله ﷺ، فجعل العباس يرتجز ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله: قثم شبيه ذي الأنف الأشم فمتى ذي النعم برغم من رغم.

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين، منهم المظهر للفرح والسرور، ومنهم الشامت المغري، ومنهم من به مثل الموت من الحزن

(١) أخرجه عبدالرزاق (١٠٠١٩).

والبلاء، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده، طابت نفوسهم، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم.

ثم أرسل العباس غلاما له إلى الحجاج وقال له: اخل به وقل له: ويلك ما جئت به وما تقول؟ فالذي وعد الله خير مما جئت به. فلما كلمه الغلام قال له: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فليخل بي في بعض بيوته حتى آتيه؛ فإن الخبر على ما يسره.

فلما بلغ العبد باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل. فوثب العباس فرحا كأنه لم يصبه بلاء قط حتى جاءه وقبل ما بين عينيه، فأخبره بقول الحجاج فأعتقه، ثم قال: أخبرني. قال: يقول لك الحجاج: اخل به في بعض بيوتك حتى يأتيك ظهرا. فلما جاءه الحجاج وخلا به أخذ عليه لتكتمن خبري، فوافقه عباس على ذلك، فقال له الحجاج: جئت وقد افتتح رسول الله ﷺ خيبر وغنم أموالهم، وجرت فيها سهام الله، وإن رسول الله ﷺ قد اصطفى صفية بنت حيي لنفسه وأعرس بها، ولكن جئت لمالي أردت أن أجمعه وأذهب به، وإني استأذنت رسول الله ﷺ أن أقول، فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف علي ثلاثا ثم اذكر ما شئت.

قال: فجمعت له امرأته متاعه، ثم انشمر راجعا، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ قالت: ذهب، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك.

فقال: أجل، لا يحزنني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب، فتح الله على رسوله خيبر وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن كان لك في زوجك حاجة فالحقي به.

قالت: أظنك والله صادقا. قال: فإني والله صادق والأمر على ما أقول لك. قالت: فمن أخبرك بهذا؟ قال: الذي أخبرك بما أخبرك. ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، فلما رأوه قالوا: هذا والله التجلد يا أبا الفضل، ولا يصيبك إلا خير. قال: أجل، لم يصبني إلا خير، والحمد لله أخبرني الحجاج بكذا وكذا، وقد سألني أن أكتم عليه ثلاثا لحاجة، فرد الله ما كان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس، فأخبرهم الخبر، فأشرقت وجوه المسلمين[1].

ما يستفاد من الأحكام من غزة خيبر:

فمنها محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم؛ فإن رسول الله ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة، فمكث بها أياما، ثم سار إلى خيبر في المحرم، كذلك قال الزهري عن عروة، عن مروان والمسور بن مخرمة[2]. ولكن في الاستدلال بذلك نظر؛ فإن خروجه كان في أواخر المحرم، لا في أوله، وفتحها إنما كان في صفر.

وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبي ﷺ أصحابه عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال، وألا يفروا، وكانت في ذي القعدة، ولكن لا دليل في ذلك؛ لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله، فحينئذ بايع الصحابة، ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء، فالجمهور جوزوه وقالوا: تحريم القتال فيه منسوخ، وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله.

---

(١) انظر: الدلائل للبيهقي (٤/ ٢٦٦-٢٦٦).
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ١٩٧).

وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ، وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال في الشهر الحرام، ولا نسخ تحريمه شيء[١].

وأقوى من هذين الاستدلالين الاستدلال بحصار النبي ﷺ للطائف؛ فإنه خرج إليها في أواخر شوال، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة، فبعضها كان في ذي القعدة، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان، وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلا[٢]، فخرج إلى هوازن، وقد بقي من شوال عشرون يوما، ففتح الله عليه هوازن، وقسم غنائمها، ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصرها بضعا وعشرين ليلة، وهذا يقتضي أن بعضها في ذي القعدة بلا شك.

وقد قيل: إنما حاصرهم بضع عشرة ليلة. قال ابن حزم: وهو الصحيح بلا شك[٣]، وهذا عجيب منه، فمن أين له هذا التصحيح والجزم به؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الطائف قال: فحاصرناهم أربعين يوما فاستعصوا وتمنعوا... وذكر الحديث[٤]، فهذا الحصار وقع في ذي القعدة بلا ريب، ومع هذا فلا دليل في القصة؛ لأن غزو الطائف كان من تمام غزوة هوازن، وهم بدؤوا رسول الله ﷺ بالقتال، ولما انهزموا دخل ملكهم وهو مالك بن عوف النضري مع ثقيف في حصن الطائف محاربين رسول الله ﷺ، فكان غزوهم من تمام الغزوة التي شرع فيها. وقال الله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخر القرآن نزولا، وليس فيها منسوخ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ ﴾[٥].

(١) تفسير الطبري (٣/ ٦٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٩٨).
(٣) جوامع السيرة، ابن حزم ص (٢٤٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٥٩).
(٥) سورة المائدة: آية (٢).

وقال في سورة البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[(١)]، فهاتان آيتان مدنيتان بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكمهما، ولا أجمعت الأمة على نسخه، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(٢)]، ونحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه، ومن استدل عليه بأن النبي ﷺ بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذي القعدة، فقد استدل بغير دليل؛ لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام[(٣)].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢١٧).

(٢) سورة التوبة: آية (٣٦).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٠٤-٤٠٩).

القطفة الخامسة والخمسون: عمرة القضاء

لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وجماديين، ورجبًا وشعبان ورمضان وشوالا.

فلما أهل شهر ذي القعدة من العام السابع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لأداء العمرة التي أجلوها من العام الماضي.

وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء لأنها قضاء عن عمرة العام السابق.

كما تسمى عمرة القصاص لأن الله كتبها لهم عوضًا عن الأولى التي لم تمكنهم قريش منها فتمت مثلا بمثل، وتسمى عمرة الصلح لأنها تمت بناء على بنود صلح الحديبية.

وتسمى عمرة القضية لأن رسول الله قاضى أهل مكة وصالحهم على هذه العمرة. والبعض يسميها: غزوة القضاء لخروج رسول الله ﷺ على رأسها قاصدًا مكة ليدخلها، رغم أنف المشركين فيها[١].

وكانت في ذي القعدة سنة سبع[٢]، وقال سليمان التيمي: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، بعث السرايا، وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة، ثم نادى في الناس بالخروج[٣].

خرج رسول الله ﷺ من العام المقبل من عام الحديبية معتمرا في ذي القعدة سنة سبع، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام، حتى

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٢٦).
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣١٣)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٥٠٠): إسناده حسن.
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣١٤).

إذا بلغ يأجج، وضع الأداة كلها الحجف والمجان، والنبل، والرماح، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف، وبعث رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزن العامرية، فخطبها إليه، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبدالمطلب، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها العباس رسول الله ﷺ فلما قدم رسول الله ﷺ أمر أصحابه، فقال: «اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف»[1]؛ ليرى المشركون جلدهم وقوتهم، وكان يكايدهم بكل ما استطاع، فوقف أهل مكة: الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحا بالسيف يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... قد أنزل الرحمن في تنزيله

في صحف تتلى على رسوله ... يا رب إني مؤمن بقيله

إني رأيت الحق في قبوله ... اليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[2]

وتغيب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ حنقا وغيظا، فأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا، فلما أصبح من اليوم الرابع، أتاه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا

---

(١) أخرج البخاري (٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦).

(٢) رويت بعض الأبيات من حديث أنس عند الترمذي (٢٨٤٧)، والنسائي (٢٨٧٣)، قال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

أرض آبائك، والله لا نخرج، ثم نادى رسول الله ﷺ حويطبًا أو سهيلا، فقال: «إني قد نكحت منكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها، ونضع الطعام فنأكل وتأكلون معنا»، فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع، فأذن بالرحيل، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بطن سرف، فأقام بها، وخلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمسي، فأقام حتى قدمت ميمونة ومن معها، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم، فبنى بها بسرف ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة، وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها.

وأما قول ابن عباس: إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة، وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، فمما استُدرك عليه، وعُدَّ من وهمه.

قال سعيد بن المسيب: ووهم ابن عباس وإن كانت خالته، ما تزوجها رسول الله ﷺ إلا بعد ما حل[1].

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة: تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف[2].

وقال سعيد بن المسيب: هذا عبدالله بن عباس يزعم أن رسول الله ﷺ نكح ميمونة، وهو محرم، وإنما قدم رسول الله ﷺ مكة، وكان الحل والنكاح جميعا، فشبه ذلك على الناس[3].

وقال الشافعي: إنه تزوجها قبل أن يحرم[4].

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٤١١).
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٣٦).
(٤) الأم، الشافعي (٦/ ٤٥٢-٤٥٣).

وفي هذا نظر إلا أن يكون وكل في العقد عليها قبل إحرامه.

قال ابن القيم: «**فالأقوال ثلاثة:**

أحدها: أنه تزوجها بعد حله من العمرة، وهو قول ميمونة نفسها، وقول السفير بينها وبين رسول الله ﷺ وهو أبو رافع، وقول سعيد بن المسيب، وجمهور أهل النقل.

والثاني: أنه تزوجها وهو محرم، وهو قول ابن عباس وأهل الكوفة وجماعة.

والثالث: أنه تزوجها قبل أن يحرم.

وقد حمل قول ابن عباس أنه «تزوجها وهو محرم» على أنه تزوجها في الشهر الحرام، لا في حال الإحرام، قالوا: ويقال: أحرم الرجل: إذا عقد الإحرام، وأحرم: إذا دخل في الشهر الحرام، وإن كان حلالا بدليل قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ... ورعا فلم أر مثله مقتولا

وإنما قتلوه في المدينة حلالا في الشهر الحرام. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب»(١).

ولو قدر تعارض القول والفعل هاهنا، لوجب تقديم القول؛ لأن الفعل موافق للبراءة الأصلية، والقول ناقل عنها، فيكون رافعا لحكم البراءة الأصلية، وهذا موافق لقاعدة الأحكام، ولو قدم الفعل، لكان رافعا لموجب القول، والقول رافع لموجب البراءة الأصلية، فيلزم تغيير الحكم مرتين، وهو خلاف قاعدة الأحكام»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٥٠-٤٥١).

ولما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة، تبعتهم ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم، فتناولها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فحملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها، وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها: وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[١].

وفي هذه القصة من الفقه: أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين.

وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها. نص أحمد -رحمه الله تعالى- في رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها في الجارية خاصة، واحتج بقصة بنت حمزة هذه، ولما كان ابن العم ليس محرما لم يفرق بينه وبين الأجنبي في ذلك، وقال: تزوج الحاضنة لا يسقط حضانتها للجارية، وقال الحسن البصري: لا يكون تزوجها مسقطا لحضانتها بحال ذكرا كان الولد أو أنثى[٢].

وقد اختلف في سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال:

أحدها: تسقط به ذكرا كان أو أنثى، وهو قول مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايات عنه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، ومسلم (١٧٨٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٤٥٩).

(٣) انظر: المدونة، مالك بن أنس (٥/ ٣٥٦)، والأم، الشافعي (٦/ ٢٤٠)، والمغني، ابن قدامة (١١/ ٤٢٠).

والثاني: لا تسقط بحال، وهو قول الحسن وابن حزم[١].

والثالث: إن كان الطفل بنتا، لم تسقط الحضانة، وإن كان ذكرا سقطت، وهذه رواية عن الإمام أحمد وقال في رواية مهنا: إذا تزوجت الأم وابنها صغير، أخذ منها، قيل له: والجارية مثل الصبي؟ قال: لا، الجارية تكون معها إلى سبع سنين، وحكى ابن أبي موسى رواية أخرى عنه: أنها أحق بالبنت وإن تزوجت إلى أن تبلغ.

والرابع: أنها إذا تزوجت بنسيب من الطفل، لم تسقط حضانتها، وإن تزوجت بأجنبي سقطت. وفي القصة حجة لمن قدم الخالة على العمة، وقرابة الأم على قرابة الأب، فإنه قضى بها لخالتها، وقد كانت صفية عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه[٢].

وعنه رواية ثانية: أن العمة مقدمة على الخالة وهي اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]، وكذلك نساء الأب يقدمن على نساء الأم؛ لأن الولاية على الطفل في الأصل للأب، وإنما قدمت عليه الأم لمصلحة الطفل، وكمال تربيته وشفقتها وحنوها، والإناث أقوم بذلك من الرجال، فإذا صار الأمر إلى النساء فقط أو الرجال فقط، كانت قرابة الأب أولى من قرابة الأم، كما يكون الأب أولى من كل ذكر سواه، وهذا قوي جدا.

ويجاب عن تقديم خالة ابنة حمزة على عمتها بأن العمة لم تطلب الحضانة، والحضانة حق لها يقضى لها به بطلبه، بخلاف الخالة، فإن جعفرا كان نائبا عنها في طلب الحضانة، ولهذا قضى بها النبي ﷺ لها في غيبتها.

---

(١) المحلى، ابن حزم (١٠/ ٣٢٣).

(٢) انظر: المدونة، مالك بن أنس (٥/ ٣٥٧)، والأم، الشافعي (٦/ ٢٤٠)، والإنصاف، المرداوي (٢٤/ ٤٦١).

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣٤/ ١٢٢).

وأيضـًا: فكما أن لقرابة الطفل أن يمنع الحاضنة من حضانة الطفل إذا تزوجت، فللزوج أن يمنعها من أخذه وتفرغها له، فإذا رضي الزوج بأخذه حيث لا تسقط حضانتها لقرابته، أو لكون الطفل أنثى على رواية، مكنت من أخذه، وإن لم يرض فالحق له والزوج هاهنا قد رضي وخاصم في القصة، وصفية لم يكن منها طلب.

وأيضـًا: فابن العم له حضانة الجارية التي لا تشتهى في أحد الوجهين، بل وإن كانت تشتهى، فله حضانتها أيضا، وتسلم إلى امرأة ثقة يختارها هو، أو إلى محرمه وهذا هو المختار؛ لأنه قريب من عصباتها، وهو أولى من الأجانب والحاكم، وهذه إن كانت طفلة فلا إشكال، وإن كانت ممن يشتهى، فقد سلمت إلى خالتها، فهي وزوجها من أهل الحضانة[1].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٤٥١-٤٥٤).

القطفة السادسة والخمسون: غزوة مؤتة

وقعت هذه الغزوة في السنة الثامنة من الهجرة وكانت نصراً وفتحاً للمسلمين، فقد رفعت من شأن المسلمين وقذفت الرعب في قلوب الكافرين.

أولاً: سبب الغزوة.

أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني -أحد أمراء قيصر إلى أرض الشام- فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نُقلت إليه الأخبار لأن الرسل لا يُقتلون فجهز لغزو الروم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وهو أكبر جيش إسلامي لم يجمع قبل ذلك إلا غزوة الأحزاب.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

أمر رسول الله ﷺ على الجيش الكبير زيد بن حارثة وقال للجيش: «إن قُتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبدالله بن رواحه»[1].

ووصى رسول الله ﷺ الأمير في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً وكان ﷺ يفعل ذلك دائماً إذا أرسل جيشاً في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١).

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً...»[١].

وودع النبي ﷺ جيش المسلمين، وكان النبي ﷺ إذا أراد أن يستودع الجيش، قال: «أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم»[٢].

ثانيـًا: في الطريق إلى الشام.

وصل الجيش الإسلامي إلى معان وصلتهم الأخبار أن الروم قد تجهزوا لهم بمائتي ألف مقاتل لقتالهم مائة ألف من الروم ومائة ألف أخرى من نصارى العرب من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَهْرَاء وبَلِي.

والجيش الإسلامي ثلاثة آلاف مقاتل فقط، وكأن النسبة واحد إلى سبعين، وبات المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الأمر أيتقدمون للهجوم على عدوهم على بركة الله معتصمين بالله أم يبعثون إلى رسول الله من يخبره الخبر فيرى رأيه، فإما أن يمدهم بمدد من عنده وإما أن يأمرهم بأمره فيمضوا له.

فقام عبدالله بن رواحة خطيبـًا في الجيش، فقال: والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة وإنا ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظفر وإما شهادة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٠).

فقال الناس: صدق والله ابن رواحة ثم تشجعوا وتحركوا نحو العدو.

ثالثًا: أحداث الغزوة.

وصل الجيش الإسلامي إلى مؤتة وعسكروا هناك وتعبأوا للقتال في ثلاثة آلاف مقاتل، ووصل جيش الروم بقوته في مئتي ألف مقاتل يقول أبو هريرة وهو ممن أسلموا بعد صلح الحديبية وكانت مؤتة أول غزوة يحضرها: «شهدت مؤتة فلما دنا المشركون رأيت ما لا قبل لأحد به، رأيت عدداً وعدةً وسلاحًا وخيلاً وديباجًا وحريراً وذهبًا فبرق بصري.

فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعًا كثيرة؟ قال: إي والله.

فقال له ثابت: إنك لم تشهد معنا بدراً إنا لا نُنصر بالكثرة».

أخذ الراية زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم -أي: سال دمه- فقتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ فقاتل على فرسه الشقراء حتى أرهقه القتال، فنزل عن فرسه فعقرها -أي: ضرب قوائمها بالسيف وهي قائمة- ورفع الراية بيده والسيف في يده الأخرى وأخذ يقاتل القوم وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علي إن لاقيتها ضرابها

فما زال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقاتل القوم حتى قطعت يمينه فأخذ الراية بشماله فقطعت شماله فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل فعوضه الله عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء.

ولذلك كان عبدالله بن عمر إذا سلم على عبدالله بن جعفر يقول: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين(١).

يقول ابن عمر وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره يعني في ظهره(٢).

لما قتل جعفر بن أبي طالب أخذ الراية عبدالله بن رواحة الامير الثالث المعين بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرفعها فوجد في نفسه تردداً عن الاقتحام فأكرهها على النزول وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه إن أجلب الناس وشدوا الرنَّه

لتنزلنه أو لتكرهنه مالي أراك تكرهين الجنة

ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شُدَّ صلبك فقد لقيت ما لقيت فنهس منه نهسه ثم سمع جلبًا -أي صوتًا- فقال: وأنت في الدنيا يعني القتال دائر بين المسلمين والمشركين وأنت يا ابن رواحة في الدنيا ثم رمى بقطعة اللحم، وأخذ شيفه ودخل في صفوف المشركين فقاتل حتى قتل.

تقدم ثابت بن أرقم فرفع الراية وقال: يا قوم اصطلحوا على امير منكم قالوا: أنت قال ما أنا بفاعل لست لها فاصطلح الناس على خالد بن الوليد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٠).

وكانت هذه الغزوة أول غزوة يشهدها خالد في صفوف المسلمين لأنه أسلم بعد صلح الحديبية.

أخذ خالد الراية وقاتل قتالاً مريراً يقول خالد: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة لي يمانية»[١]، ولذلك سماه رسول الله ﷺ يومها سيف الله، قال ﷺ: «فأخذها سيف من سيوف الله ففتح الله له»[٢].

خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقي الرعب في قلوب الرومان حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

ولما كان الليل أعاد خالد بن الوليد تنظيم الجيش وغير فيه وبدل فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، والمقدمة ساقة والساقة مقدمة ووضع خطة للانسحاب بالجيش في صباح اليوم التالي في عزة وكرامة دون أن يُشعر العدو أنه منسحب فلما طلع النهار وتراءى الجمعان رأى العدو أن الجيش قد تغير وتبدل فقذف الله الخوف في قلوب الكفار فظنوا أن خالداً قد أُمِّد بمدد من المدينة لأن صورة الجيش قد تغيرت، وأخذ خالد يقاتل وهو يرجع إلى الوراء بالجيش قليلاً قليلاً قليلاً، فألقى الله الرعب في قلوب الكفار وظنوا أن خالداً يريد استدراجهم ليبيدهم فانسحبوا قبل المسلمين وقتل المسلمون من المشركين كثيراً وأوقع جيش الإسلام بالعدو خسائر كبيرة وولى العدو مهزوماً واكتفى خالد بهذه النتيجة وآثر الانصراف بمن معه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٢).

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

والنبي ﷺ ينقل للمسلمين بالمدينة أحداث المعركة، فعَنْ أَنَسٍ رضى الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ -وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ- حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ»[1].

رابعـًا: أثر المعركة.

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معني جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظِّلْف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير ثلاثة آلاف مقاتل مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير مائتا ألف مقاتل ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر. كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقـًا. ولذلك نري القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سُلَيْم وأَشْجَع وغَطَفَان وذُبْيَان وفَزَارَة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٧).

إكرام النبي ﷺ لآل جعفر: لما أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس فقال: «ائتيني ببني جعفر» فأتت بهم فشمهم وقبلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول، فقال النبي ﷺ: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم».

وتلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

أ- جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى: أُخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما نعى النبي ﷺ زوجها ومن معه، فبكت، فلم ينكر عليها النبي ﷺ ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعًا لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائدًا عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سببًا في معصية الخالق سبحانه.

ب- استحباب صنع الطعام لأهل الميت: وقد ندب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعامًا لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم وهذه السنة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية، وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون.

هذا وقد نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاث، فقد دخل على أسماء وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب،

وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي»، ثم أخذ بيمين عبدالله وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثا. ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة». وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكي تسير الأمة على نهجه الميمون.

ج- زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس: وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصديق فتزوجها، وولدت له محمد بن أبي بكر، وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب، وولدت له أولادًا وعنها وعنهم أجمعين.

القطفة السابعة والخمسون: سرية الخبط

سبب الغزوة:

وكان أميرها أبا عبيدة بن الجراح، وكانت في رجب سنة: فعن جابر t قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة.

قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط، ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر.

قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاث مائة حتى سمنا. قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا، فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له.

فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[1].

ما يستفاد منها:

ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام، إن كان ذكر التاريخ فيها برجب محفوظا، والظاهر والله أعلم أنه وهم غير محفوظ، إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ أنه غزا في الشهر

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥).

الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية، وقد عير المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام.

وأنزل الله في ذلك: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾[١]، ولم يثبت نسخ هذا بنص يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه، وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[٢]، ولا حجة في هذا؛ لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير الأربعة التي سير الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها، وكان أولها يوم الحج الأكبر عاشر ذي الحجة، وآخرها عاشر ربيع الآخر، هذا هو الصحيح في الآية لوجوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهي الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم وإن احتاجوا إليه خشية أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم، ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

وفيها: جواز أكل ميتة البحر وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾[٣]، وقد قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ ﴾[٤]، وقد صح عن أبي بكر الصديق، وعبدالله بن عباس، وجماعة من الصحابة، أن صيد البحر ما صيد منه وطعامه ما مات فيه[٥].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢١٧).
(٢) سورة التوبة: آية (٥).
(٣) سورة المائدة: آية (٣).
(٤) سورة المائدة: آية (٩٦).
(٥) تفسير الطبري (٨/ ٧٢٢).

وفي السنن عن ابن عمر مرفوعـًا وموقوفـًا: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[(١)]، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: أحل لنا كذا، وحرم علينا، ينصرف إلى إحلال النبي ﷺ وتحريمه.

فإن قيل فالصحابة في هذه الواقعة كانوا مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله ﷺ ونحن مضطرون، فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مستغنين عنها لما أكلوا منها.

قيل: لا ريب أنهم كانوا مضطرين ولكن هيأ الله لهم من الرزق أطيبه وأحله، وقد قال النبي ﷺ لهم بعد أن قدموا: «هل بقي معكم من لحمه شيء؟» قالوا: نعم، فأكل منه النبي ﷺ وقال: «إنما هو رزق ساقه الله لكم» ولو كان هذا رزق مضطر لم يأكل منه رسول الله ﷺ في حال الاختيار.

ثم لو كان أكلهم منها للضرورة، فكيف ساغ لهم أن يدهنوا من ودكها، وينجسوا به ثيابهم وأبدانهم؟ وأيضـًا: فكثير من الفقهاء لا يجوز الشبع من الميتة، إنما يجوزون منها سد الرمق، والسرية أكلت منها حتى ثابت إليهم أجسامهم، وسمنوا، وتزودوا منها.

فإن قيل: إنما يتم لكم الاستدلال بهذه القصة إذا كانت تلك الدابة قد ماتت في البحر، ثم ألقاها ميتة، ومن المعلوم أنه كما يحتمل ذلك يحتمل أن يكون البحر قد جزر عنها وهي حية فماتت بمفارقة الماء، وذلك ذكاتها وذكاة حيوان البحر، ولا سبيل إلى دفع هذا الاحتمال، كيف وفي بعض طرق الحديث: «فجزر البحر عن حوت كالظرب».

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣)، والحديث صححه الألباني.

قيل: هذا الاحتمال مع بعده جدا فإنه يكاد يكون خرقا للعادة، فإن مثل هذه الدابة إذا كانت حية إنما تكون في لجة البحر وثبجه دون ساحله وما رق منه ودنا من البر.

وأيضـًا: فإنه لا يكفي ذلك في الحل؛ لأنه إذا شك في السبب الذي مات به الحيوان، هل هو سبب مبيح له أو غير مبيح؟ لم يحل الحيوان، كما قال النبي ﷺ في الصيد يرمى بالسهم، ثم يوجد في الماء: «وإن وجدته غريقا في الماء فلا تأكله فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك»[1]؛ فلو كان الحيوان البحري حراما إذا مات في البحر لم يبح. وهذا مما لا يعلم فيه خلاف بين الأئمة.

وأيضـًا: فلو لم تكن هذه النصوص مع المبيحين، لكان القياس الصحيح معهم، فإن الميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات، كانت سبب الحل، وإلا فالموت لا يقتضي التحريم، فإنه حاصل بالذكاة كما يحصل بغيرها، وإذا لم يكن في الحيوان دم وفضلات تزيلها الذكاة لم يحرم بالموت ولم يشترط لحله ذكاة كالجراد، ولهذا لا ينجس بالموت ما لا نفس له سائلة كالذباب، والنحلة، ونحوهما، والسمك، من هذا الضرب، فإنه لو كان له دم وفضلات تحتقن بموته لم يحل لموته بغير ذكاة، ولم يكن فرق بين موته في الماء، وموته خارجه، إذ من المعلوم أن موته في البر لا يذهب تلك الفضلات التي تحرمه عند المحرمين إذا مات في البحر، ولو لم يكن في المسألة نصوص لكان هذا القياس كافيـًا.

وفيها: دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ﷺ وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الاجتهاد، وعدم تمكنهم من مراجعة

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٩).

النص وقد اجتهد أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين يدي رسول الله ﷺ في عدة من الوقائع، وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة لا في أحكام عامة وشرائع كلية، فإن هذا لم يقع من أحد من الصحابة في حضوره ﷺ البتة[1].

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٧٣-٤٧٧).

القطفة الثامنة والخمسون: فتح مكة

أولاً: سبب فتح مكة.

صالح النبي ﷺ قريشاً صلح الحديبية، وأعطاهم فيه كل ما سألوه مما يعظم حرمات الله، وكان فيها: أن توضع الحرب عشر سنين، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريقين، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق، وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

وظل رسول الله ﷺ وفياً لقريش بعهدها، ملتزماً بكل شروط الصلح، حتى إذا كانت السنة الثامنة للهجرة عَدَتْ بنو بكر حليفة قريش على خزاعة حليفة رسول الله ﷺ وقتلت منهم رجلاً وعاونتهم قريش على هذا الاعتداء فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ وتعرف قريش أن هذا نقض صريح لصلح الحديبية وعدوان سافرٌ على حلفاء المسلمين.

وكان هديه ﷺ أنه إذا صالح قوماً وعاهدهم فانضاف إليهم عدو له سواهم فدخلوا معهم في عقدهم، وانضاف إليه قوم آخرون فدخلوا معه في عقده صار حكمُ من حارب من دخل معه في عقده من الكفار حكم من حاربه[1].

(١) زاد المعاد (٣/ ١٦٣).

ثانيـًا: الاستعداد بالخروج إلى مكة.

فقد أمَرَ رسول الله ﷺ أمره للجيش بالتجهيز والاستعداد للخروج للغزو، ولم يُعلمهم بوجهته، وحرص ﷺ على السرية التامة لئلا تستعد قريش للقتال، وقد استنفر رسول الله ﷺ القبائل التي حول المدينة: أسلم وغفار وجهينة وأشجع وسليم، وخرج المهاجرون والأنصار فلم يتخلف منهم أحد، وقد بلغ عدد الجيش الإسلامي عشرة آلاف مقاتل، فقد دلَّ هذا العدد على تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة.

ولما أراد رسولنا ﷺ المسير إلى مكة كتب أحد الصحابة كتاباً إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ فنزل الوحي يخبر رسول الله ﷺ.

فعن عبيدالله بن أبي رافع وهو كاتب علي قال: سمعت علياً رضي الله عنه وهو يقول بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «ائتوا روضة خَاخٍ[١] فإن بها ظَعِينَةً[٢] معها كتابٌ فخذُوهُ منها»، فانطلقنا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا فإذا نحن بالمرأةِ فقلنا أَخْرِجِي الكتاب، فقالتْ ما معِي كتابٌ، فقُلْنَا لَتُخرجِنَّ الكتابَ أو لَتُلْقِينَّ الثِّيَابَ، فأَخْرَجَتْهُ من عِقَاصِهَا[٣]، فأَتَيْنَا به رسول الله ﷺ فإذا فيهِ من حاطبِ بن أبي بَلْتَعَةَ إلى نَاسٍ من المشركين من أهل مكةَ يُخْبِرُهُم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟».

قال: لا تعجل عليَّ يا رسولَ اللهِ إنِّي كُنْتُ امرأً مُلصقاً في قريش[٤]، وكان ممَّنْ كان مَعَكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ يَحْمُونَ بها أَهْلِيهِمْ فَأَحْبَبْتُ إذ فَاتَنِي

(١) موضع بطريق مكة بقرب حمراء الأسد.
(٢) وقيل سميت ظعينة لأنها تركب الظعين التي تظعن براكبها، وقال الخطابي: سميت ظعينة لأنها تظعن مع زوجها ولا يقال لها ظعينة إلا إذا كانت في الهودج.
(٣) عقاصها، وهي ذوائبها المضفورة.
(٤) قال سفيان: كان حليفا لهم ولم يكن من أنفسها.

ذلك من النَّسبِ فيهم أَنْ أَتَّخِذَ فيهم يداً يَحْمُونَ بها قَرابَتِي ولم أَفْعَلْهُ كُفْراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكُفْرِ بَعْدَ الإسلامِ.

فقال النبي ﷺ: «**صدق**»، فقال عمر دَعْنِي يا رسول الله أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافقِ.

فقال: «إنَّه قد شهد بدراً وما يدرِيكَ لعلَّ اللهَ اطَّلعَ على أهلِ بدرٍ فقال اعملوا ما شئتُم فقد غَفَرْتُ لكم»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾[1].

الموالاة؛ موالاة المشركين والكفار محرمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشرك، ولهذا ضبطها العلماء بأن قالوا تنقسم المولاة إلى قسمين: الأول التولِّي. والثاني المولاة. الموالاة باسمها العام تنقسم: إلى التولي وإلى موالاة.

أما التولِّي: فهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾، تولاه توليا؛ التولي معناه محبة الشرك وأهل الشرك، محبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان، قاصداً ظهور الكفر على الإسلام.

القسم الثاني الموالاة: وهي محرّمة من جنس محبة المشركين والكفار، لأجل دنياهم، أو لأجل قراباتهم، أو لنحو ذلك، وضابطه أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا يكون معها نصرة؛ لأنه إذا كان معها نصرة على مسلم

(١) سورة الممتحنة: آية (١).
أخرجه البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤).

بقصد ظهور الشرك على الإسلام صار توليا، وهو في القسم المُكَفِّر، فإن أحب المشرك والكافر لدنيا، وصار معه نوع موالاة، معه لأجل الدنيا، فهذا محرم ومعصية، وليس كفراً؛ دليل ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾، قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: أثبت الله جل وعلا في هذه الآية أنه حصل ممن ناداهم باسم الإيمان اتخاذ المشركين والكفار أولياء بإلقاء المودة لهم.

فكما تقدم من حادثة حاطب دلَّ على اعتبار القصد؛ لأنه إن كان قصد ظهور الشرك على الإسلام، وظهور المشركين على المسلمين، فهذا يكون نفاقا وكفرا، وإن كان له مقصد آخر فله حكمه. قال ﷺ مستبينا الأمر: «ما حملك يا حاطب على هذا؟»، قال: يا رسول الله والله ما حملني على هذا محبة الشرك وكراهة الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يد يحمي بها ماله في مكة، وليس لي يدٌ أحمي بها مالي في مكة، فأردتُ أن يكون لي بذلك يد أحمي بها مالي في مكة.

فقال النبي ﷺ: «صدقكم».

الله جل وعلا قال في بيان ما فعل حاطب: ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾، يعني حاطبا، ففِعْلُه ضلال. وما منع النبي ﷺ من إرسال عمر أو ترك عمر إلا أن حاطبا لم يخرج من الإسلام بما فعل، ولهذا جاء في رواية أخرى قال: إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم لقد غفَرْتُ لكم، قال العلماء: لعلمه جل وعلا بأنهم يموتون ويبقون على الإسلام. دلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾، مع بيان سبب نزولها من قصة حاطب، أن إلقاء المودة للكافر لا يسلب اسم الإيمان؛ لأن الله ناداهم باسم الإيمان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مع إثباته جل وعلا أنهم ألقَوا المودة.

والواجب أن يكون المؤمن محبًا لله جل وعلا ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، إذا عَامَلَ المشركين أو عَامَلَ الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل القلب، ولا محبة القلب لما؟ لأن المشرك حمل قلبًا في مسبَّة الله جل وعلا، لأن المشرك سابٌّ لله جل وعلا بفعله، إذ اتخذ مع الله جل وعلا إلها آخر، والمؤمن متولٍّ لله جل وعلا ولرسوله وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لمشرك حمل الشرك والعياذ بالله.

وثبت عنه ﷺ أنه قتل جاسوسًا، كما ثبت عن سلمة بن الأكوع، قال: أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر، فجلس عند أصحابه يتحدث، ثم انفتل، فقال النبي ﷺ: «**اطلبوه، واقتلوه**». فقتله، فنفله سلبه[١].

ثالثًا: المسير إلى مكة.

وأراد الله سبحانه أن يخفي عن قريش مسير رسول الله ﷺ أليهم، فخرج رسول الله ﷺ بالجيش الإسلامي من المدينة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة في عشرة آلاف مقاتل.

عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ قَالَ الْعَبَّاسُ: وَاللهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَنْوَةً قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ إِنَّهُ لَهَلاكُ قُرَيْشٍ.

فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَعَلِّى أَجِدُ ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي أَهْلَ مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ فَإِنِّي لأَسِيرُ إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ فَقُلْتُ يَا أَبَا حَنْظَلَةَ فَعَرَفَ صَوْتِي فَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ مَا لَكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي قُلْتُ هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥١)، ومسلم (١٧٥٤).

قَالَ فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا.

قَالَ: «نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِى سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ»[1].

فلما ذهب لينصرف أبو سفيان قال رسول الله ﷺ «يا عباس أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».

قال العباس رضي الله عنه: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، قال ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول سليم فيقول مالي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته قال مالي ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والانصار. لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والانصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال قلت النجاء إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلا صوته يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٢٤)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٦١١).

فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[١].

رابعـًا: دخول مكة.

دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحـًا منتصراً، مؤيداً من الله تبارك وتعالى وكان خاشعـًا لله شاكراً لأنعمه يقرأ سورة الفتح ويرجِّع في قراءتها وهو على راحلته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ألا أعلمكم بحديث من حديثكم؟ يا معشر الأنصار ثم ذكر فتح مكة فقال أقبل رسول الله ﷺ حتى قدم مكة فبعث الزبير على إحدى المجنبتين وبعث خالداً على المجنبة الأخرى وبعث أبا عبيدة على الحسر فأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبة قال فنظر فرآني فقال: «أبو هريرة» قلت لبيك يا رسول الله فقال: «لا يأتيني إلا أنصاري».

قال: فأطافوا به ووبشت قريش أوباشـًا لها وأتباعـًا فقالوا نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا فقال رسول الله ﷺ: «**ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم**»، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى[٢] ثم قال: «**حتى توافوني بالصفا**».

قال: فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل أحداً إلا قتله وما أحد منهم يوجه إلينا شيئا قال فجاء أبو سفيان فقال يا رسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم ثم قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ٣٣٢).
(٢) فيه إطلاق القول على الفعل أي أشار إلى هيئتهم المجتمعة

فقالت الأنصار بعضهم لبعض[1] أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته قال أبو هريرة وجاء الوحي وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا لبيك يا رسول الله قال: «قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته» قالوا قد كان ذاك قال: «كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنّ[2] بالله وبرسوله فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم**».

قال: فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق الناس أبوابهم قال وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل الحجر فاستلمه ثم طاف بالبيت قال فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه قال وفي يد رسول الله ﷺ قوس وهو آخذ بِسِيَةِ القَوْسِ فلمَّا أَتَى على الصَّنَمِ جعل يطعُنُهُ في عينِهِ ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾، فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو[3].

بعد أن خرج رسول الله ﷺ من مكة وقريش تحاول قتله، فإذا به يكرمه الله بعد ثمان سنين فاتحـًا لمكة المكرمة ومعه عشرة آلاف مقاتل.

وَكَانَ طَوَافُهُ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُحْرِمًا يَوْمَئِذٍ فَاقْتَصَرَ عَلَى الطَّوَافِ فَلَمّا أَكْمَلَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ فَأَمَرَ بِهَا فَفُتِحَتْ فَدَخَلَهَا

---

(١) معنى هذا أنهم رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة وكف القتل عنهم فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائما ويرحل عنهم ويهجر المدينة فشق ذلك عليهم فأوحى الله تعالى إليه ﷺ فأعلمهم بذلك فقال لهم رسول الله ﷺ قلتم كذا وكذا قالوا نعم قد قلنا هذا

(٢) وهو الشح.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

فَرَأَى فِيهَا الصّوَرَ وَرَأَى فِيهَا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يَسْتَقْسِمَانِ بِالْأَزْلَامِ فَقَالَ قَاتَلَهُمْ اللّهُ وَاَللّهِ إنْ اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطّ وَرَأَى فِي الْكَعْبَةِ حَمَامَةً مِنْ عِيدَانٍ فَكَسَرَهَا بِيَدِهِ وَأَمَرَ بِالصّوَرِ فَمُحِيَتْ[1].

ثُمّ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ وَعَلَى أُسَامَةَ وَبِلَالٍ فَاسْتَقْبَلَ الْجِدَارَ الّذِي يُقَابِلُ الْبَابَ حَتّى إذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَدْرُ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ وَقَفَ وَصَلّى هُنَاكَ ثُمّ دَارَ فِي الْبَيْتِ وَكَبّرَ فِي نَوَاحِيهِ وَوَحّدَ اللّهَ ثُمّ فَتَحَ الْبَابَ وَقُرَيْشٌ قَدْ مَلَأَتْ الْمَسْجِدَ صُفُوفًا يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ الْبَابِ وَهُمْ تَحْتَهُ فَقَالَ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ أَلَا كُلّ مَأْثُرَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ دَمٍ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ إلّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجّ أَلَا وَقَتْلُ الْخَطَإِ شِبْهُ الْعَمْدِ السّوْطُ وَالْعَصَا فَفِيهِ الدّيَةُ مُغَلّظَةً مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَظّمَهَا بِالْآبَاءِ النّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ «ثُمّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ ثُمّ قَالَ «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ « قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ « فَإِنّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٢).

القطفة التاسعة والخمسون: ما جاء في خطبة يوم الفتح

جاء في خطبة النبي ﷺ أنواع العلوم:

فمنها: قوله ﷺ: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس**»، فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما في الصحيح عنه، أنه ﷺ قال: «**اللهم إن إبراهيم خليلك حرم مكة، وإني أحرم المدينة**»[1]، فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السماوات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعوا في تحريم المدينة، والصواب المقطوع به تحريمها، إذ قد صح فيه بضعة وعشرون حديثا عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه.

ومنها: قوله «**فلا يحل لأحد أن يسفك بها دما**» هذا التحريم لسفك الدم المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرما، كما أن تحريم عضد الشجر بها، واختلاء خلائها، والتقاط لقطتها، هو أمر مختص بها، وهو مباح في غيرها.

ومنها: قوله ﷺ: «**ولا يعضد بها شجر**»، وفي اللفظ الآخر: «**ولا يعضد شوكها**»، وفي لفظ في صحيح مسلم: «ولا يخبط شوكها» لا خلاف بينهم أن الشجر البري الذي لم ينبته الآدمي على اختلاف أنواعه مراد من هذا اللفظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٦٠).

وقوله ﷺ «**لا يعضد شوكها**» وفي اللفظ الآخر: «**لا يختلى شوكها**»[١] صريح في المنع، ولا يصح قياسه على السباع العادية، فإن تلك تقصد بطبعها الأذى، وهذا لا يؤذي من لم يدن منه.

والحديث لم يفرق بين الأخضر واليابس، ولكن قد جوزوا قطع اليابس، قالوا: لأنه بمنزلة الميت، ولا يعرف فيه خلاف، وعلى هذا فسياق الحديث يدل على أنه إنما أراد الأخضر، فإنه جعله بمنزلة تنفير الصيد، وليس في أخذ اليابس انتهاك حرمة الشجرة الخضراء التي تسبح بحمد ربها، ولهذا غرس النبي ﷺ على القبرين غصنين أخضرين، وقال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[٢]. وفي الحديث دليل على أنه إذا انقلعت الشجرة بنفسها، أو انكسر الغصن جاز الانتفاع به؛ لأنه لم يعضده هو، وهذا لا نزاع فيه.

فإن قيل: فما تقولون فيما إذا قلعها قالع ثم تركها، فهل يجوز له أو لغيره أن ينتفع بها؟ قيل: قد سئل الإمام أحمد عن هذه المسألة فقال: من شبهه بالصيد لم ينتفع بحطبها، وقال لم أسمع إذا قطعه ينتفع به.

وقوله ﷺ: «**ولا يختلى خلاها**» لا خلاف أن المراد من ذلك ما ينبت بنفسه دون ما أنبته الآدميون، ولا يدخل اليابس في الحديث، بل هو للرطب خاصة، فإن الخلا بالقصر الحشيش الرطب ما دام رطبا، فإذا يبس فهو حشيش، وأخلت الأرض كثر خلاها، واختلاء الخلى: قطعه، ومنه الحديث كان ابن عمر يختلي لفرسه[٣]، أي يقطع لها الخلى، ومنه سميت المخلاة، وهي وعاء الخلى، والإذخر مستثنى بالنص، وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة العموم فيما سواه.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه أحمد (٤٦٠٠)، وابن سعد (٤/ ١٦٠).

وقوله ﷺ: «**ولا ينفر صيدها**» صريح في تحريم التسبب إلى قتل الصيد واصطياده بكل سبب، حتى إنه لا ينفره عن مكانه، لأنه حيوان محترم في هذا المكان، قد سبق إلى مكان، فهو أحق به، ففي هذا أن الحيوان المحترم إذا سبق إلى مكان، لم يزعج عنه.

وقوله ﷺ: «**ولا يلتقط ساقطتها إلا من عرفها**»، **وفي لفظ**: «**ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد**»[1]، فيه دليل على أن لقطة الحرم لا تملك بحال، وأنها لا تلتقط إلا للتعريف لا للتمليك، وإلا لم يكن لتخصيص مكة بذلك فائدة أصلا.

وقوله ﷺ في الخطبة: «**ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يقتل وإما أن يأخذ الدية**»[2]، فيه دليل على أن الواجب بقتل العمد لا يتعين في القصاص، بل هو أحد شيئين، إما القصاص وإما الدية.

وقوله ﷺ في الخطبة «**إلا الإذخر**»، بعد قول العباس له: إلا الإذخر. يدل على مسألتين:

احداهما: إباحة قطع الإذخر.

والثانية: أنه لا يشترط في الاستثناء أن ينويه من أول الكلام، ولا قبل فراغه؛ لأن النبي ﷺ لو كان ناويا لاستثناء الإذخر من أول كلامه، أو قبل تمامه، لم يتوقف استثناؤه له على سؤال العباس له ذلك، وإعلامه أنهم لا بد لهم منه لقينهم وبيوتهم.

ونظير هذا استثناؤه ﷺ لسهيل بن بيضاء من أسارى بدر، بعد أن ذكره به ابن مسعود، فقال: «لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق»، فقال ابن مسعود:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥).

إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام فقال: «إلا سهيل بن بيضاء»[١]، ومن المعلوم أنه لم يكن قد نوى الاستثناء في الصورتين من أول كلامه.

وفي قصة الفتح من الفقه جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لحمويها.

وفيها من الفقه: جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإن عبدالله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه فأمسك عنه طويلا، ثم بايعه وقال: «إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه». فقال له رجل: هلا أومأت إليَّ يا رسول الله؟ فقال: «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[٢]. فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه وهجرته وكتابة الوحي ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه، وكان رسول الله ﷺ يريد قتله، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياء من عثمان، ولم يبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله.

فهابوا رسول الله ﷺ أن يقدموا على قتله بغير إذنه، واستحيى رسول الله ﷺ من عثمان، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح، فبايعه وكان ممن استثنى الله بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٨٤)، وأحمد (٣٦٣٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (٤٠٦٧).

أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]، وقوله ﷺ «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»، أي: أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه، ولا سره علانيته، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يوم به، بل صرح به، وأعلنه، وأظهره[2].

(١) سورة آل عمران: آية (٨٦-٨٩).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٤٤-٥٧٤).

القطفة الستون: ما بعد فتح مكة

بعد أن جاء نصر الله وفتحت مكة المكرمة، ودخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، مؤيداً من الله تبارك وتعالى وكان خاشعاً لله شاكراً لأنعمه يقرأ سورة الفتح ويرجِّع في قراءتها وهو على راحلته.

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**»[1].

والمعنى لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام وإنما تكون الهجرة من دار الحرب (ولكن جهاد ونية) معناه لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة وذلك بالجهاد ونية الخير في كل شيء (وإذا استنفرتم فانفروا) معناه إذا دعاكم السلطان إلى غزو فاذهبوا، فالواجب الهجرة ممن بلاد الكفر والشرك إلى بلاد الإسلام والتوحيد.

أولاً: إِبْقَاءُ مِفْتَاحِ الْكَعْبَةِ فِي آلِ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ.

ثُمّ جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامَ إلَيْهِ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السّقَايَةِ صَلّى اللّهُ عَلَيْك فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «**أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ**»؟ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ لَهُ: «هَاكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ الْيَوْمَ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ.

وعن عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ قَالَ: كُنّا نَفْتَحُ الْكَعْبَةَ فِي الْجَاهِلِيّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَوْمًا يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الْكَعْبَةَ مَعَ النّاسِ فَأَغْلَظْتُ لَهُ وَنِلْتُ مِنْهُ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣).

فَحلُمَ عَنّي ثُمّ قَالَ: «يَا عُثْمَانُ لَعَلّك سَتَرَى هَذَا الْمِفْتَاحَ يَوْمًا بِيَدِي أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْت فَقُلْتُ لَقَدْ هَلَكَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَئِذٍ وَذَلّتْ فَقَالَ: بَلْ عَمَرَتْ وَعَزّتْ يَوْمَئِذٍ وَدَخَلَ الْكَعْبَةَ فَوَقَعَتْ كَلِمَتُهُ مِنّي مَوْقِعًا ظَنَنْتُ يَوْمَئِذٍ أَنّ الْأَمْرَ سَيَصِيرُ إلَى مَا قَالَ فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ.

قَالَ: يَا عُثْمَانُ ائْتِنِي بِالْمِفْتَاحِ فَأَتَيْتُهُ بِهِ فَأَخَذَهُ مِنّي ثُمّ دَفَعَهُ إلَيّ، وَقَالَ: خُذُوهَا خَالِدَةً تَالِدَةً لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إلّا ظَالِمٌ يَا عُثْمَانُ إنّ اللّهَ اسْتَأْمَنَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ فَكُلُوا مِمّا يَصِلُ إلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ بِالْمَعْرُوفِ.

قَالَ فَلَمّا وَلّيت نَادَانِي فَرَجَعْتُ إلَيْهِ فَقَالَ: «أَلَمْ يَكُنْ الّذِي قُلْتُ لَكَ؟» قَالَ: فَذَكَرْت قَوْلَهُ لِي بِمَكّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ لَعَلّك سَتَرَى هَذَا الْمِفْتَاحَ بِيَدِي أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْت فَقُلْتُ: بَلَى أَشْهَدُ أَنّكَ رَسُولُ اللّهِ.

فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾[1].

ثانيـًا: الأمانة ثقيلة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾[2].

عرض الله الأمانة التي هي طاعته وفرائضه وحدوده على أعظم مخلوقاته السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها لا عصيان لربها ولكن إشفاقـًا من العجز عن القيام بها ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ الأمانة مسئولية

(١) سورة النساء: آية (٥٨).
(٢) سورة الأحزاب: آية (٧٢).

عظيمة وحمل ثقيل إلا من أمنه الله على ذلك، وحقيقتها: أداء حق الله بعبادته وإخلاص الدين له والقيام بحقوق الخلق من غير تقصير ولها أمر عظيم ولها شأن في حياة المسلم كبير لاشتمالها على جوانب ما ينفع الفرد والمجتمع.

ثالثـاً: الأمانة من صفات الأنبياء والمؤمنين.

فهذا نوح، وهود، وصالح، وشعيب قالوا لأقوامهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[1]، وكان ﷺ يلقب بالصادق الأمين. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧﴾، فقد ذكر الله سبحانه هذه الآية في سورتي المؤمنون، والمعارج.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ ائْتِنِى بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا. قَالَ فَأْتِنِى بِالْكَفِيلِ. قَالَ كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً.

قَالَ صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِى أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ.

ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّى جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِى لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ.

---

(١) سورة الشعراء: آية (١٠٧).

ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِى طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى أَتَيْتُ فِيهِ.

قَالَ هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَىَّ بِشَىْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّى لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى جِئْتُ فِيهِ. قَالَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِى بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[١].

رابعـًا: الأمر بوفاء العقود.

ومن مجالات الأمانة العقود والعهود بأن تؤدي العقود كاملة من غير هش ولا تقصير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يعني بالعهود: يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حَد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

خامسـًا: تضييع الأمانة من صفات المنافقين.

إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ما خطبنا نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**»[٢].

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩١).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٨٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٠٤).

وعن عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[1].

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «**أَيْنَ -أُرَاهُ- السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ**». قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ «**فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[2].

ومعنى الضياع: أن لا يبقى اعتمادٌ لأحد على أحد، لا في الدِّين ولا في الدنيا. وأن الأمانة صفةٌ متقدمة على الإيمان، فيجيء أولاً لون الأمانة ثم يجيء عليه لون الإيمان. ولذا اشتق منها الإيمان. قوله: إذا وسد: أي أسند، وأصله من الوسادة، وأن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم.

سادسًا: أطب مطعمك.

عن أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٤٦).

سابعـًا: العدل ولو على حساب نفسك ووالديك وأقربائك.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[2].

وقوله: ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ أي: اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سُئِلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مَضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه. وقوله: ﴿ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تُراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد.

ثامنـًا: لا تأمن مكر الله.

يا عبدالله لا تأمن مكر الله فإن عذبه شديد فإن الله تعالى رؤف رحيم وشديد العقاب، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بينهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥ ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: آية (٨).
(٢) سورة النساء: آية (١٣٥).
(٣) سورة الأنعام: آية (١٦٥).

وقال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

تاسعاً: مبايعة الناس لرسول الله ﷺ.

ثم أخذ رسول الله ﷺ يبايع الناس على الإسلام، فبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا؛ بايعهم رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً وما مست يدُ رسول الله ﷺ يد امرأة قط، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ**»، لاَ وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ ، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلاَمِ ، وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلاَّ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ «**قَدْ بَايَعْتُكُنَّ**». كَلاَمًا[2].

فلما استقر الأمن خرج ﷺ فدخل بيت أمِّ هانئ بنت أبي طالب بنت عمه، فاغتسل ﷺ ثم صلى ثماني ركعات شكراً لله تعالى على هذا الفتح.

وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أمِّ هانئ»[3].

فلما مكن الله رسوله ﷺ من أهل مكة، واستقر الفتح أمَّنَ رسول الله ﷺ الناس جميعـًا، وعفا عنهم كلهم ولم يأخذهم بجريرتهم السابقة، إلا أربعة رجال وامرأتين كانوا قد آذوه إيذاءً شديداً.

---

(١) سورة الحجر: آية (٤٩-٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٨)، ومسلم (١٨٦٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).

فقال ﷺ: «**اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة**»[١].

فلما كان من الغد من يوم الفتح قام النبي ﷺ خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّده بما هو أهله، ثم قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لاِمْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[٢].

وفي فتح مكة نزل على رسول الله ﷺ سورة النصر، وهي علامة على قرب أجل رسول الله ﷺ.

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه.

قالت: فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[٣].

وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِى مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٧٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٤).

يَوْمٍ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّي فَقَالَ مَا تَقُولُونَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نَدْرِي. أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا. فَقَالَ لِي يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَمَا تَقُولُ قُلْتُ هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٤).

القطفة الحادية والستون: غزوة حنين

فبعد فتح مكة المكرمة وتمت نعمة الله على الناس، وكانت ضربة قاضية للشرك وأهله في مكة ومن حولها من قبائل العرب، خافت هوازن وثقيف، وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا وولوا عليهم مالك بن عوف سيد هوازن، وأمرهم أن يخرجوا معهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم معهم، ظناً منه أن هذه الأموال وتلك الأولاد؛ تحمل الرجال على الثبات عند اللقاء دفاعاً عنها.

فوضع مالك بن عوف قائد المشركين خطته، وهي حشر نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، ورتب قومه بشكل صفوف قدم الخيل ثم المقاتلة ثم النساء ثم الغنم ثم الإبل، ورفع الروح المعنوية لدى جنوده فحثهم على الثبات والاستبسال، ووضع الكمائن لمباغتة المسلمين والانقضاض عليهم، وأمرهم بالمبادرة بالهجوم.

ولما وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن مالك بن عوف خرج بجيش قوامه عشرين ألفاً، فجهز ﷺ جيشاً قوامه اثني عشر ألفاً، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ أَقْبَلَتْ هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ وَغَيْرُهُمْ بِنَعَمِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَشَرَةُ آلَافٍ وَمِنَ الطُّلَقَاءِ[1]. والطلقاء ألفا رجل.

خرج رسول الله ﷺ بالجيش وفي الطريق عيون رسول الله ﷺ تتقدم الجيش لتأتي بأخبار العدو، وجاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوزان على بكرة أبيهم

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٧)، ومسلم (١٠٥٩).

بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله**»[١].

وفي الطريق وقعت مخالفة من الطلقاء حديثو العهد بالإسلام، فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[٢].

ومن المسلمين اليوم من يعبد القبر من دون الله وتبرك بالشجر والحجر ويذبح لها من دون الله ويستغيثون بها من دون الله.

وفي الطريق المسلمون يسيرون بهذا العدد الكبير قد امتلأت بهم، فقال: لن نُغلب اليوم من قلة، ولذلك عاتبهم الله في كتابه، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠١)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٩٠٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في المشكاة (٥٣٦٩).
(٣) سورة التوبة: آية (٢٥).

أولاً: أحداث المعركة.

الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله، فحجب هذا الإعجاب النصر في بداية المعركة، قال تعالى: ﴿ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾[1]، فالمسلمون لا ينتصرون على أعدائهم بالعدد والعُدة، إنما ينتصرون بهذا الدين العظيم، بالإسلام وهذا ما قاله عبدالله بن رواحة في غزوة مؤتة، قال: «يا معشر الناس إن الذي تخافون منه هو الذي خرجتم له الشهادة والله ما نقاتلهم بقوة ولا بكثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به».

وصل المسلمون إلى وادي حنين، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وصنع كميناً للمسلمين في الطرق والمداخل والشعاب والمضايق، وأصدر أمره للجيش بأن يرشقوا المسلمين إذا طلعوا عليهم ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وبدأوا ينحطون بالوادي وهم لا يعلمون بكمائن العدو، فبينما هم كذلك تمطر عليهم النبال، وكتائب العدو قد شدَّت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحدٌ على أحد، وظن المشركون أنهم هزموا المسلمين، وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين وأخذ ينادي: أين أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله فلا يرد عليه أحد وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي موليةٌ بأصحابها، ولم يبق حول النبي ﷺ إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار، ورسول الله ﷺ تركض بغلته قبل الكفار ويقول:

أنا النبي لا كذب ‍ ‍ ‍ ‍ أنا ابن عبدالمطلب

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٢٦).

يقول العباس: وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفها إرادة أن لا تسرع، وأمر النبي ﷺ العباس -وكان جهير الصوت- أن ينادي: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأجابوا لبيك لبيك حتى إذا اجتمع إلى رسول الله ﷺ نفرٌ منهم، استقبلوا العدو واقتتلوا وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر النبي ﷺ إلى ساحة القتال، وقد احتدم القتال فقال: «الآن حمي الوطيس»، وتوجه النبي ﷺ إلى ربه بالدعاء فقال ﷺ: «اللهم نزل نصرك»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، وقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله إنساناً من الكفار إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة.

لماذا لم يدعو ﷺ لما ولى عنه المسلمون؟ لكي يعلمنا أن الله تبارك وتعالى ولا ينصر من يولي هارباً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[1]، فعندما رجعوا ونصروا الله دعا رسول الله ﷺ ربه، فنصره الله تعالى.

يقول العباس: فو الله ما هو إلا أن رماهم حتى رأيت حدهم كليلاً، وأمرهم مدبراً، وفي غزوة حنين نزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾[2].

---

(١) سورة محمد: آية (٧).

(٢) سورة التوبة: آية (٢٥-٢٦).

ولىّ المشركون الأدبار، واعتصموا بناحية يقال لها: أوطاس فأرسل النبي ﷺ في أعقابهم أبا عامر الأشعري فقاتلهم حتى قُتِلَ فأخذ الراية منه ابن أخيه أبو موسى الأشعري فما زال يقاتل العدو حتى بدَّد شملهم وهزموا شر هزيمة.

ومالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه قرروا أن يمضوا في الفرار حتى يصلوا إلى الطائف فيتحصنوا بحصنها تاركين في هذا الفرار مغانم هائلة، فخلف العدو في أرض المعركة أربعة وعشرين ألفـًا من الإبل، وأكثر من أربعين ألفـًا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي.

وكره رسول الله ﷺ أن يُقسم على الناس هذه الغنائم، وتأنى يبتغي أن يرجع القوم إليه تآئبين فيأخذ ما فقدوا، ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة فلم يجئه أحد، فجمع النبي ﷺ هذه الغنائم في الجِعْرَانَةِ وعين عليها حارسًا، ثم خرج ﷺ بنفسه حتى أتى حصن الطائف الذي تحصن به مالك بن عوف ومن معه، وحاصرهم النبي ﷺ وطال الحصار فلما طال الحصار ولم ينزلوا رجع رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين.

بهذا يعلمنا رسول الله ﷺ أن الدين لم يقم على الشهوات، وإنما قائمٌ على الطاعات، فلم يقم الجهاد من أجل طلب السبايا واستعباد الناس كما يفعل من يدعي الخلافة على المسلمين، وإنما قائم على الرحمة حتى بالحيوان، وهذا ما تعلمه الصحابة الكرام من رسول الله ﷺ، فعن معاوية بن قرة قال: كان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون فكانوا إذا استعاروه منه قال: لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا فإنه لا يطيق أكثر من ذلك فلما حضرته الوفاة قال: يادمون لا تخاصمني غدا عند ربي فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق.

ثانيـًا: تقسيم الغنائم.

عاد رسول الله ﷺ من الطائف بجيش المسلمين إلى الجعرانة وفي الجعرانة كانت غنائم حنين الجليلة، وبدأ رسول الله ﷺ في تقسيم الغنائم، فأعطي أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطي حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخري، فأعطاه إياها.

وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة ثم مائة، وكذلك أعطي رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل وأعطي آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين، حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاءً، ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: «أيها الناس، ردوا علي ردائي، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي عدد شجر تهامة نعمـًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جبانـًا ولا كذابـًا».

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول اللّه ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل إما أربعـًا من الإبل، وإما أربعين شاة، فإن كان فارسـًا أخذ اثني عشر بعيراً أو عشرين ومائة شاة.

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهَم أول الأمر، فأُطْلِقتْ ألسنة شتي بالاعتراض.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما أعطي رسول اللّه ﷺ ما أعطي من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ

هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القَالَةُ، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا.

وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثني عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا : بلي، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَلُ.

ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسَيْنَاك».

«أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدنيا تَألَّفْتُ بها قوماً ليُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت

الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكي القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُم وقالوا: رضينا برسول اللّه ﷺ قَسْمًا وحظًا، ثم انصرف رسول اللّه ﷺ، وتفرقوا.

فبعد أن قسم النبي ﷺ الغنائم جاءته هوازن وثقيف مسلمين فأطلق النبي ﷺ جميع من كان تحت يديه وتحت يد بني عبدالمطلب، وعندما رأى الصحابة ذلك أطلقوا ما في أيديهم من السبايا.

القطفة الثانية والستون: ثمرات غزوة حنين

من ثمرات غزوة حنين:

أن النصر ليس بالعدد والعُدد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ﷺ وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

أيضًا من ثمرات معركة حنين تنبيه النبي ﷺ عن أمر مهم ألا وهو الخوارج.

فالخوارج: هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو غيرهم من التابعين لهم بإحسان[2].

---

(١) سورة التوبة: آية (٢٥).
(٢) الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ١١٣).

وكان بعض السلف يسمي كل أصحاب الأهواء خوارج، وعلى هذا يدخل فيهم كل الفرق الضالة كالرافضة وغيرها، والخوارج من أوائل الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام.

إن الخوارج ليسوا حقبة من التاريخ مضت وانقضت وإنما هو منهج متجدد باق، وأصل مذهبهم التكفير بالذنب فهم يكفرون بمجرد الحكم بغير ما أنزل الله سبحانه، عن طاوس قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، قال: «هِيَ كَبِيرَةٌ»، قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: «وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ». وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ، أَنَّهُ قَالَ: «كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ»[(١)].

فقد ذكر النبي ﷺ صفاتهم وعلاماتهم:

١- الخروج على الحكام، وهو أصل مذهبهم، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ بَيْنَا النَّبِي ﷺ يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُاللهِ بْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِي فَقَالَ اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «**وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ**».

فالخروج يكون بالقول والفعل.

٢- من علاماتهم: كثرة العبادة.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه في تتمة الحديث المتقدم: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

قَالَ ﷺ: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ»، وهذا الكلام موجهٌ إلى الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٣٨٥).

٣- مع كثرة عبادتهم ألا أنهم يخرجون من الإسلام بسرعة.

قال ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[١].

٤- حدثاء الإسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية.

عن عَلِي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حُدَّاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

حداث الأسنان أي: صغار السن شباب، سفهاء الأحلام أي: عقولهم رديئة، يقولون من خير قول البرية أي: وهو القرآن، ولكنهم عندهم انحراف بالاستدلال بهما.

٥- يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان.

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي t قَالَ بَعَثَ عَلِيٌّ وَهْوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِي ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِى مُجَاشِعٍ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِىِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ الْعَامِرِي ثُمَّ أَحَدِ بَنِى كِلاَبٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِى نَبْهَانَ، فَتَغَضَّبَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا قَالَ: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ». فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللهَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٠).

فَقَالَ النَّبي ﷺ: «**فَمَنْ يُطِيعُ اللهَ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنِّي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَلاَ تَأْمَنُونِي**». فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ -قَتْلَهُ أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ- فَمَنَعَهُ النَّبي ﷺ فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(١).

وكان ابن عمر رضي الله عنه يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللهِ وَقَالَ إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٢).

٦- الخوارج شرار الخلق.

قال أبو أمامة: شر قتلى قتلوا تحت أديم السماء وخير قتيل من قتلوا كلاب أهل النار. قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفارا. قلت يا أبا أمامة هذا شيء تقوله؟ قال بل سمعته من رسول الله ﷺ(٣).

٧- استمرار خروجهم.

عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ينشأ نشء يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم. كلما خرج قرن قُطِعَ**».

قال ابن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلما خرج قرن قطع**» أكثر من عشرين مرة. «**حتى يخرج في عِراضِهمُ الدجال**»(٤). وعراضهم: في خداعهم، والقطع بسنة الله تعالى، وهي تدبيره سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) أخرجه البخاري معلقاً فتح الباري (١٢/ ٢٤٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٦)، وحسنه الشيخ الألباني في المشكاة (٣٥٥٤).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٧٤)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٥٥).

وقد حذر السلف من الخروج على الحكام، قال الإمام أحمد بن حنبل: ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق[(١)]، وقد أُثر في معناه عن علي بن المديني[(٢)].

كيف تعامل الصحابة مع الخوارج؟

وأذكر على ذلك موقفين لصحابة النبي ﷺ:

الموقف الأول: عن يزيد بن صهيب الفقير قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نُريد أن نحجَّ، ثم نخرج على الناس.

قال فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يحدِّث القوم، جالس إلى ساريةٍ عن رسول الله ﷺ قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين. قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله! ما هذا الذي تحدِّثون؟

والله يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ و ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فما هذا الذي تقولون؟ قال: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ -يعني: الذي يبعثُهُ الله فيه؟- قلت: نعم.

قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرج الله به من يُخرج، قال: ثمَّ نَعَتَ وضْعَ الصراط ومرَّ النَّاس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم.

---

(١) انظر: شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي (١/ ١٦١).
(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ١٦٨).

قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس، فرجعنا قلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟ فرجعنا، فلا والله ما خرج منا غير رجلٍ واحدٍ[1].

الموقف الثاني: مناظرة عبدالله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للخوارج.

لما راح الآلاف من المسلمين في معركة صفين، وهو ما وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتصالحا بعد التحكيم، رجع معاوية t إلى دمشق، وعليٌ إلى الكوفة، اعتزل من جيش علي بعد رجوعه من الصلح قريب ما بين اثني عشر إلى ستة آلاف وهؤلاء هم: الخوارج وأبوا أن يساكنوه في بلدة ونزلوا بمكان يقال له حروراء، فخرج إليهم ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مناظراً لهم، فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، فما جاء بك؟

قلت لهم: أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عمِّ النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحدٌ، لأُبلغكم ما يقولون، وأُبلغهم ما تقولون، فانتحى لي نفرٌ منهم، قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ، وابن عمِّه، قالوا: ثلاثٌ. قلت: ما هنَّ؟.

قال: أمَّا إحداهنَّ، فإنه حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما شأن الرجال والحكم؟

قلت: هذه واحدةٌ. قالوا: وأما الثانية، فإنه قاتل، ولم يَسبِ، ولم يَغنم، إن كانوا كفَّاراً، لقد حلَّ سبيهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ سبيهم ولا قتالُهم، قلت:

(١) أخرجه مسلم (١٩١).

هذه ثنتان، فما الثالثة؟ وذكر كلمةً معناها قالوا محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين، قلت: هل عندكم شيءٌ غير هذا؟ قالوا: حسبُنا هذا، قلت لهم: أرأيتُكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جلَّ ثناؤه وسنة نبيِّه ﷺ ما يردُّ قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم.

قلت: أمَّا قولكم: حكَّم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صير حُكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ وكان من حُكم الله أنه صيَّره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز فيه حُكمُ الرجال، أنشدكم بالله، أحُكمُ الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، هذا أفضل. وفي المرأة وزوجها: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ فنشدتكم بالله، حُكم الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم، أفضل من حُكمِهِم في بُضع امرأةٍ، خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأمَّا قولكم: قاتل ولم يسبِ ولم يغنم، أفتسبون أمَّكم عائشة، تستحلُّون منها ما تستحلُّون من غيرها، وهي أمُّكم؟! فإن قلتم: إنا نستحلُّ منها ما نستحلُّ من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمِّنا، فقد كفرتم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أفخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

وأما مَحْيُ نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، إن نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعليٍّ: «اكتب يا عليُّ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «امحُ يا عليُّ، اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امحُ يا عليَّ، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ، وقد مَحَى نفسه، ولم يكن محوهُ نفسه ذلك محاهُ من النبوة، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم، فقتِلُوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار»[1].

فقبل أن يقاتلوهم ناظروهم بالحجة واللسان.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٥٢٢).

القطفة الثالثة والستون: غزوة تبوك

غزوة تبوك وتسمى غزوة العُسرة، وذلك لأن الصحابة خرجوا إليها في قلة من الظهر، وفي حرّ شديد، حتى كانوا ينحرون الإبل لكي يشربون ما في كرشها من الماء.

غزوة تبوك وكانت في السنة التاسعة للهجرة، وهي الفاضحة لأنها كشفت المنافقين وفضحت أساليبهم وحقدهم ونفوسهم الخبيثة.

أولاً: سبب الغزوة.

فقد تقدم أن بداية المواجهة بين المسلمين والروم هو مقتل سفير رسول اللّه ﷺ الحارث بن عمير الأزدي على يدي شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بُصْرَي، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالروم اصطداماً عنيفاً في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين، فبعد معركة مؤتة سنة كاملة حتى أخذ هرقل يجمع جموعاً من الروم وقبائل العرب الموالية لها[1]، فجاء الأمر من الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾[2].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢/ ١٦٥).
(٢) سورة التوبة: آية (١٢٣).

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[١].

فستجاب ﷺ لأمر الله تعالى وعزم رسول الله على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله.

يَقُولُ كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تبُوكَ، فَغزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِى يُرِيدُ[٢].

ثانيـًا: التجهيز للغزوة.

فقد حثَّ ﷺ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش المسلمين، فجاء عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بألف دينار، فنثرها في حجر رسول الله ﷺ، فسرَّ بذلك وجعل يقبلها في حجره وهو يقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[٣].

وجعل المسلمون يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيراً، والمنافقون يسخرون منهم: فيتهمون أهل الغنى بالرياء والسمعة، والفقراء بأن الله غني عن صدقتهم، ففضحهم الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾[٤].

(١) سورة التوبة: آية (٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٨)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في المشكاة (٦٠٦٤).
(٤) سورة التوبة: آية (٧٩).

وحاول بعض المنافقين أن يتستر خلف نفقته، فرد عليهم نفقاتهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[١].

فأعلن رسول الله ﷺ النفير العام فحشد ثلاثون ألف مقاتل، وحزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فكانوا يبكون تشوقًا للخروج للجهاد، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٢].

فقال ﷺ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[٣].

وأما المنافقون فأخذ يسلكون مسالك شتى: فمنهم من اعتذر قبل الخروج، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٤]، فأذن لهم رسول الله ﷺ فعاتبه الله، قال تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة: آية (٥٣-٥٤).
(٢) سورة التوبة: آية (٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٣).
(٤) سورة التوبة: آية (٤٩).
(٥) سورة التوبة: آية (٤٣).

ومنهم من أخذ يثبط، قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[١].

ثالثاً: الخروج من المدينة باتجاه تبوك.

خرج رسول الله ﷺ بجيشه قاصداً غزو الروم، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة t وخلَّف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أهله فناله المنافقون بألسنتهم، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه فسمع علي كلامهم، فأخذ سلاحه وانطلق يعدو خلف رسول الله ﷺ حتى أتاه فأخبره الخبر، فقال ﷺ: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي**»[٢].

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ «**افعلوا**»، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم.

قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال: ويجيء الآخر بكف تمر قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير قال فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى

---

(١) سورة التوبة: آية (٨١-٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة**»[1].

وفي الطريق أصاب الجيش عطشٌ شديد، فعن ابن عباس رضي الله عنه: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن غزوة العُسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديد، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويضعه على بطنه.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع فقال النبي ﷺ: «**أتحب ذلك يا أبا بكر؟**» قال: نعم.

فرفع رسول الله ﷺ يديه فلم يرجعهما حتى قَالَتْ السماء ثم سكبت الماء عليهم، فاستقوا وملأوا أوعيتهم قال عمر: ثم ذهبنا ننظر حدود المطر فرأينا أن المطر لم يتجاوز مكان الجيش[2].

يقول: معاذ بن جبل رضي الله عنه خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعـًا والمغرب والعشاء جميعـًا حتى إذا كان يوما أخر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعا ثم قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي».

(١) أخرجه مسلم (٢٧).
(٢) أخرجه البزار (٢١٤)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة، ص (٤٠٧).

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء قال فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئا؟**».

قالا: نعم فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول قال ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء قال وغسل رسول الله ﷺ فيه يده ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو قال غزير - شك أبو علي أيهما قال - حتى استقى الناس.

فقال رسول الله ﷺ: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا**»[1].

وفي الطريق مر رسول الله ﷺ بجيش المسلمين على الحجر وهي ديار ثمود، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لاَ يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»[2].

رابعًا: الوصول إلى تبوك.

وصل رسول الله ﷺ بجيش المسلمين إلى تبوك، وأخبر الجيش بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم، فلا يخرجوا حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر رسول الله ﷺ فهبت الريح الشديدة، وحملت من قام فيها إلى مكان بعيدة، فقال رسول الله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقيم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله»، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طئ[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٩٢).

في تبوك لم يلق النبي ﷺ وجيش المسلمين أي جندي من جنود العدو، وألقى الله الرعب في قلوب الروم على كثرتهم وقوة عدتهم، فآثروا السلامة على الفناء فجلسوا في أرضهم بالشام ولم يتحركوا، فقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشر ليلة لم يجد أدنى مقاومة وجاءت القبائل العربية المتنصرة حلفاء الروم، فصالحت رسول الله ﷺ على الجزية، وكتب لها كتاب صلح، ثم عاد رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة سالماً غانماً.

فغزوة تبوك أولها شدة وبلاءٌ وعُسرة في الظَهر والمال والماء، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[1].

خامساً: العودة إلى المدينة.

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي الطريق حاول مجموعة من المنافقين أن يغتالوا رسول الله ﷺ وآذوا رسول الله والمؤمنين بألسنتهم، قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[2]، فقد همّ نفرٌ من المنافقين بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية.

(١) سورة التوبة: آية (١١٧).
(٢) سورة التوبة: آية (٧٤).

وقبل أن يصل النبي ﷺ جاءه خبر مسجد ضرار الذي بناه المنافقون بالمدينة وكانوا قد طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[١]، فأمر النبي ﷺ أصحابه بهدم هذا المسجد.

---

(١) سورة التوبة: آية (٧٩).

القطفة الرابعة والستون: نتائج غزوة تبوك

فقد اشتملت غزوة تبوك على فوائد وحكم كثيرة:

فمنها: جواز القتال في الشهر الحرام إن كان خروجه في رجب محفوظا على ما قاله ابن إسحاق، ولكن هاهنا أمر آخر، وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهر الحرام، بخلاف العرب، فإنها كانت تحرمه.

ومنها: تصريح الإمام للرعية وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه؛ ليتأهبوا له ويعدوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه.

ومنها: وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن، وقرينه بل جاء مقدما على الجهاد بالنفس في كل موضع إلا موضعا واحدا، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس، ولا ريب أنه أحد الجهادين، كما قال النبي ﷺ: «من جهز غازيا فقد غزا»[1]، فيجب على القادر عليه كما يجب على القادر بالبدن، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد، فإن لم يقدر أن يكثر العدد وجب عليه أن يمد بالمال والعدة، وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥).

ومنها: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[1]، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

ومنها: استخلاف الإمام إذا سافر رجلا من الرعية على الضعفاء والمعذورين والنساء والذرية، ويكون نائبه من المجاهدين ; لأنه من أكبر العون لهم، وكان رسول الله ﷺ يستخلف ابن أم مكتوم فاستخلفه بضع عشرة مرة.

وأما في غزوة تبوك فالمعروف عند أهل الأثر أنه استخلف علي بن أبي طالب كما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: خلف رسول الله ﷺ علياً t في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»[2].

ومنها: جواز الخرص للرطب على رءوس النخل، وأنه من الشرع، والعمل بقول الخارص، وقد تقدم في غزاة خيبر، وأن الإمام يجوز أن يخرص بنفسه كما خرص رسول الله ﷺ حديقة المرأة.

ومنها: أن الماء الذي بآبار ثمود لا يجوز شربه، ولا الطبخ منه، ولا العجين به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة، وكانت معلومة باقية إلى زمن رسول الله ﷺ، ثم استمر علم الناس بها قرنا بعد قرن إلى وقتنا هذا، فلا يرد الركوب بئرا غيرها، وهي مطوية محكمة البناء واسعة الأرجاء، آثار العتق عليها بادية، لا تشتبه بغيرها.

---

(١) سورة التوبة: آية (٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

ومنها: أن من مر بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يقيم بها، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيا معتبرا ومن هذا إسراع النبي ﷺ السير في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ كان يجمع بين الصلاتين في السفر.

ومنها: جواز التيمم بالرمل، فإن النبي ﷺ وأصحابه قطعوا الرمال التي بين المدينة وتبوك ولم يحملوا معهم ترابا بلا شك، وتلك مفاوز معطشة شكوا فيها العطش إلى رسول الله ﷺ، وقطعا كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها نازلون، هذا كله مما لا شك فيه، مع قوله ﷺ: «فحيثما أدركت رجلا من أمتي الصلاة فعنده مسجده وطهوره»[1].

ومنها: أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفقت إقامته هذه المدة وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

ومنها: جواز -بل استحباب- حنث الحالف في يمينه إذا رأى غيرها خيرا منها، فيكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير، وإن شاء قدم الكفارة على الحنث، وإن شاء أخرها. وقد روي حديث أبي موسى هذا: «إلا أتيت الذي هو أخير وتحللتها»، وفي لفظ: «إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو أخير»، وفي لفظ: «إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»، وكل هذه الألفاظ في الصحيحين، وهي تقتضي عدم الترتيب.

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٣٧).

وفي السنن من حديث عبدالرحمن بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك ثم ائت الذي هو خير»[١]، وأصله في «الصحيحين»، فذهب أحمد ومالك والشافعي إلى جواز تقديم الكفارة على الحنث، واستثنى الشافعي التكفير بالصوم فقال: لا يجوز التقديم، ومنع أبو حنيفة تقديم الكفارة مطلقـًا.

ومنها: قوله ﷺ: «**ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم**» قد يتعلق به الجبري، ولا متعلق له به، وإنما هذا مثل قوله: «**والله لا أعطي أحدا شيئا ولا أمنع، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت**»[٢]، فإنه عبد الله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أمره ربه بشيء نفذه، فالله هو المعطي والمانع والحامل، والرسول منفذ لما أمر به.

ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة؛ لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارا فهو توبة وإقلاع، وقد قال أصحابنا وغيرهم: ومن شهد عليه بالردة فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لم يكشف عن شيء عنه بعد، وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الردة كفاه جحدها.

وكان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة الناس عليه، وكان في قتلهم تنفير، والإسلام بعد في غربة، ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٧٨).
(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٥٧).

وهذا أمر كان يختص بحال حياته ﷺ، وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه: أن كان ابن عمتك وفي قسمه بقوله: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقول الآخر له: إنك لم تعدل، فإن هذا محض حقه، له أن يستوفيه، وله أن يتركه، وليس للأمة بعده ترك استيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه، ولا بد ولتقرير هذه المسائل موضع آخر، والغرض التنبيه والإشارة[1].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٧٠١-٧١٠).

القطفة الخامسة والستون: قصة كعب بن مالك وصاحبيه

بعد أن رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك جاء المخلفون يعتذرون للنبي ﷺ ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، ومن هؤلاء المتخلفون ثلاثة من الصحابة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أُمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، فكعب بن مالك شهد بيعة العقبة الثانية وجميع الغزوات مع رسول الله ﷺ قبل غزوة تبوك سوى بدر، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع شهدا بدراً.

عن عبدالله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب بن مالك: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنه إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها».

يقول كعب: «وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطُ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُ، حتى جمعتُهُما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبُوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتاب حافظ[1].

---

(١) يريد بذلك الديوان.

قال كعب: «فقلَ رجلٌ يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعَرُ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئـًا، وأقول في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك، إذا أردتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمر بالناس الجدُ، فأصبح رسولُ الله ﷺ غاديـًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئـًا.

ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئـًا، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى أسرعُوا وتفارط الغزو، فهممتُ أن أرتحل فأُدركهُم، فياليتني فعلتُ.

ثم لم يقدرْ ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في الناس، بعدَ خُرُوج رسول الله ﷺ يحزُنُني أني لا أَرَى لي أُسوةً، إلا رجلاً مغموصـًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذرَ الله من الضعفاء، ولم يذكُرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكـًا، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعلَ كعبُ بنُ مالك؟».

قال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله حَبَسَهُ بُرْاَدهُ والنَظر في عطْفَيْه[1]، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكتَ رسولُ الله ﷺ».

وفي هذا دليل على رد غيبة المسلم الذي ليس بمتهتك بالباطل.

قال كعب: «فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبيضـًا يَزُولُ به السرابُ، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

(١) إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسولَ الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقتُ أتذكرُ الكذبَ وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟

وأستعينُ على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا، زاح عني الباطل حتى عرفتُ أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتُ صدقهُ، وصبَح رسولُ الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتَهُم، وبايَعَهُم، واستغفر لهم، وَوَكَلَ سرائرَهُم إلى الله.

فرسولنا ﷺ كان يقضي بين الناس بالظاهر، ويكلُ السرائر إلى الله، فعن أم سلمة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»(١).

قال كعب: حتى جئتُ فلما سلمتُ، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَكَ؟».

قلت: يا رسول الله إني، والله لو جلستُ عندَ غيركَ من أهل الدنيا، لرأيتُ أني سأَخْرُجُ من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكني، والله لقد علمتُ لئن حدثْتُك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن اللهُ أن يُسخطَكَ علي، ولئن حدثْتُك حديثَ صدق تجدُ علي فيه، إني لأرجو فيه عُقبى الله، والله ما كان لي عُذْرٌ، والله ما كُنْتُ قطُ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك، قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي اللهُ فيك».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

فعلم كعب أن النجاة مع الصدق لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1].

لأن الصدق يهدي إلى البر وأن الكذب يهدي إلى الفجور، فيا عبدالله كن صادقًا مع الله كن صادقًا مع نفسك كن صادقًا مع أهلك كن صادقًا مع الناس لا ينفع أحد يوم القيامة ألا صدقك، فالصدق منجاة.

قال كعب: فقمتُ، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبتَ ذنْبًا قبل هذا، لقد عجزتَ في أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيَكَ ذَنْبَكَ، استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال كعب: فوالله ما زالوا يُؤنبونَني، حتى أردتُ أن أرجعَ إلى رسول الله ﷺ فأُكذبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لقيَهُ معك رجلان، قالا: مثلَ ما قلتَ، فقيل: لهما مثلُ ما قيل لك، قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، تغيرُوا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحبايَ فاستكانا وقعدَا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَ القوم وأجلدهم، فكنتُ أخرُجُ فأشهدُ الصلاة وأطوفُ في الأسواق ولا يُكلمُني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلمُ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيْه برد السلام

(١) سورة التوبة: آية (١١٩).

أم لا؟ ثم أُصلي قريباً منهُ وأُسارقُهُ النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نَظَرَ إلي، وإذا التفتُ نحوَهُ أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسورتُ جدارَ حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي، وأحبُ الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت له يا أبا قتادة أَنْشُدُك بالله هل تعلمن أني أُحب الله رسوله؟

فسكتَ، فعُدْتُ فناشدْتُهُ، فَسَكَتَ، فعُدْتُ فناشدْتُهُ، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضتْ عيناي، وتوليتُ، حتى تسورتُ الجدارَ.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَبطي من نَبَط أهل الشام، ممن قَدمَ بالطعام يبيعُهُ بالمدينة، يقول: من يدُلُ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنتُ كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغَنَا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللهُ بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نَوَاسك، فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء، فتيامم تُ بها التنورَ فسجرتُها بها».

ودل صنيع كعب بن مالك هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ورسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره.

قال كعب: «حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلْبَثَ الوحيُ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأْتيني، فقال إن رسول الله ﷺ يأْمُرُكَ أن تعتزلَ امرأتَكَ، فقلتُ: أُطلقُهَا: أم ماذا أفْعَلُ؟ قال: لا بل اعتزلْها، فلا تقْرَبَنَهَا، فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندَهُم حتى يقضيَ

اللهُ في هذا الأمر، فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت له يا رسول الله إن هلالَ بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدُمَهُ؟ قال: «لا ولكن لا يقربنك»، فقالت: إنه والله ما به حركةٌ إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لي بعض أهلي لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَهُ، فقلت: لا استأذنُ فيها رسول الله ﷺ وما يُدريني ماذا يقول: رسول الله ﷺ إذا استأذنْتُهُ فيها، وأنا رجلٌ شابٌ، فلبثتُ بذلك عَشْرَ ليال، فكمُلَ لنا خمسون ليلةً من حين نُهيَ عن كلامنا، ثم صليتُ صلاةَ الفجْر صباحَ خمسين ليلةً، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله عز وجل منا قد ضاقتْ علي نفسي وضاقتْ علي الأرض بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخ أوفَى على سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرجٌ.

فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا، حين صلى صلاةَ الفجر، فذهب الناسُ يبشرونَنَا، فذهب قبَلَ صاحبي مبشرون، وركض رجلٌ إلي فَرَسًا، وَسَعَى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَهُ يبشرُني، فَنَزَعْتُ له ثوبي فكسوتُهُما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهُما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهُما، فانطلقتُ أتأَممُ رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يُهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبةَ الله عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد، وحوله الناس فقام طلحة بن عبيدالله يُهرولُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجلٌ من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرُقُ وجهُهُ من السرور ويقول: «أبشر بخير يوم مر عليك مُنْذُ ولدتْكَ أُمُك»، فقلت أمن عندك؟ يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهُهُ، كأنَ وجهَهُ قطعةُ قمر، وكنا نعرف ذلك، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك، فهو خير لك»، فقلتُ: فإني أُمْسكُ سهمي الذي بخيبر، وقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدثَ إلا صدقًا ما بقيتُ».

وفيه استحباب الصدقة شكراً للنعم المجددة لا سيما ما عظم منها، وإنما أمره ﷺ بالاقتصار على الصدقة ببعضه خوفًا من تضرره بالفقر وخوفًا أن لا يصبر على الإضاقة.

قال كعب: :فوالله ما علمتُ أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدتُ كذبةً مُنْذُ قُلْتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني اللهُ فيما بقي، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: آية (١١٧-١١٩).

قال كعب: والله ما أنعم اللهُ علي من نعمة قطُّ، بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذَبْتَهَ فأهلكَ كما هَلَكَ الذين كذبوا، إن الله قال: للذين كذبوا، حين أَنْزَل الوحيَ، شر ما قال لأحد، وقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

قال كعب: كنا خُلفْنَا أَيُها الثلاثة، عن أمر أولئك الذين قَبلَ منهم رسول الله ﷺ حين حَلَفُوا له، فبايعهُم واستغفر لهم، وأَرْجَأ رسولُ الله ﷺ أمرَنَا حتى قَضَى اللهُ فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا، تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُهُ إيانا، وإرجاؤُهُ أمرنا، عمن حَلَفَ له واعتذر إليه فقبل منه»[2].

(١) سورة التوبة: آية (٩٥-٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

القطفة السادسة والستون: ما اشتملت عليه قصة كعب وصاحبيه من الفوائد

اشتملت قصة الثلاثة الذين خلفوا من الحكم والفوائد الكثيرة:

فمنها: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره، وفي ذلك من التحذير والنصيحة وبيان طرق الخير والشر وما يترتب عليها، ما هو من أهم الأمور.

ومنها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

ومنها: تسلية الإنسان نفسه عما لم يقدر له من الخير بما قدر له من نظيره أو خير منه.

ومنها: أن بيعة العقبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعبا كان لا يراها دون مشهد بدر.

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يستر عن رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو ويوري به عنه استحب له ذلك أو يتعين بحسب المصلحة.

ومنها: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة لم يجز.

ومنها: أن الجيش في حياة النبي ﷺ لم يكن لهم ديوان وأول من دون الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من سنته التي أمر النبي ﷺ باتباعها، وظهرت مصلحتها وحاجة المسلمين إليها.

ومنها: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له.

ومنها: أنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة; إما مغموص عليه في النفاق أو رجل من أهل الأعذار، أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة، أو خلفه لمصلحة.

ومنها: أن الإمام والمطاع لا ينبغي له أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، فإن النبي ﷺ قال بتبوك: ما فعل كعب؟ ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحا له ومراعاة، وإهمالا للقوم المنافقين.

ومنها: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية أو ذبا عن الله ورسوله، ومن هذا طعن أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواة، ومن هذا طعن ورثة الأنبياء وأهل السنة في أهل الأهواء والبدع لله لا لحظوظهم وأغراضهم.

ومنها: جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد أنه وهم وغلط، كما قال معاذ للذي طعن في كعب: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، ولم ينكر رسول الله ﷺ على واحد منهما.

ومنها: أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيصلي فيه ركعتين ثم يجلس للمسلمين عليه ثم ينصرف إلى أهله.

ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريرته إلى الله، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره.

ومنها: ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحدث حدثا؛ تأديبا له وزجرا لغيره، فإنه ﷺ لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المغضب.

ومنها: أن التبسم قد يكون عن الغضب كما يكون عن التعجب والسرور، فإن كلا منهما يوجب انبساط دم القلب وثورانه، ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه، فينشأ عن ذلك السرور، والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم، فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه في وجهه، ولا سيما عند المعتبة كما قيل:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث مبتسم.

ومنها: معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاذه والسرور به، فكيف بعتاب أحب الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب وما أعظم ثمرته وأجل فائدته، ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات وحلاوة الرضا وخلع القبول.

ومنها: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادي حلاوات في العواقب، وحلاوات المبادي مرارات في العواقب.

وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظا حذرا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد شرا أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فيرد يوم القيامة بذنوبه»[١].

وفيه دليل أيضـًا على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه.

وقوله: «حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرف»، هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض، وفي الشجر والنبات، حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس، ويجده أيضا المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلق زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويجده في نفسه أيضا، فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه، ومن يشفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراك هذا التنكر والوحشة.

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٠٦)، وابن حبان (٢٩١١).

ومنها: أن هلال بن أمية، ومرارة قعدا في بيوتهما، وكانا يصليان في بيوتهما، ولا يحضران الجماعة، وهذا يدل على أن هجران المسلمين للرجل عذر يبيح له التخلف عن الجماعة، أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين، لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبي ﷺ، ولا عتب عليهما على التخلف، وعلى هذا فيقال: لما أمر المسلمون بهجرهم تركوا: لم يؤمروا ولم ينهوا ولم يكلموا، فكان من حضر منهم الجماعة لم يمنع، ومن تركها لم يكلم، أو يقال: لعلهما ضعفا وعجزا عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنت أنا أجلد القوم وأشبهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.

في أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين:

أحدهما: كلامه لهم، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

الثاني: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد في العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذان بقرب الفرج، وأنه قد بقي من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة، أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام، فأراد النبي ﷺ أن يكون آخر هذه المدة في حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام في توفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمة بهم وشفقة عليهم، إذ لعلهم يضعف صبرهم عن نسائهم في جميعها، فكان من اللطف بهم والرحمة أن أمروا بذلك في آخر المدة، كما يؤمر به الحاج من حين يحرم، لا من حين يعزم على الحج.

وقول كعب لامرأته: الحقي بأهلك، دليل على أنه لم يقع بهذه اللفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه.

ومنها: عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾[١].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس. فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم؛ وجعل علم المنافقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع ما نعاه عليهم أصله الكذب في القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه، بل هو لبه وروحه. والكذب: بريد الكفر والنفاق ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان[٢].

---

(١) سورة التوبة: آية (١١٩).

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٧٢١-٧٤٣).

القطفة السابعة والستون: حجة الوداع

حجة الوداع كانت في السنة العاشرة للهجرة، فالنبي ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة، وهي حجة الوداع.

اجتمع في هذه الحجة أمران:

أولهما: الإشارة إلى دنو أجله، في هذا الحجة ودع النبي ﷺ أمته وأصحابه، فعن جابر بن عبدالله قال: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[١].

والأمر الآخر: وهو إتمام هذا الدين، قال الإمام مالك: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»[٢]، فقد اتفق العلماء على أن هذه الآية نزلت في حجة الوداع.

ويغيب على بعض عقول بني المسلمين حقيقة هذه الآية بقصد أو بغير قصد حتى لاكت ألسنتهم وخطت أقلامهم لوثات وشبهات جادلوا بها فلبسوا الحق بالباطل وغتر بهم من الناس تكلموا فيما لا يعلمون وقرروا ما يشتهون زاعمين أن الإسلام لا يستطيعوا ملائمة الواقع المتجدد، وأن الخطاب الإسلام يجب أن يتغير فهو غير صالح لكل زمان ومكان زعموا والواقع أنه لعيب كبير أن يكون غير المسلمين أعلم بمعنى تلكم الآية ممن ولد في الإسلام وترعرع في كنفه،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).
(٢) انظر: الاعتصام، الشاطبي ص (٣٣).

فعن عمر بن الخطاب أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: أي آية قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة[١].

فقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه حجة النبي ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاجٌّ هذا العام.

فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة أو أربع وساق الهدي، فخرجنا معه معنا النساء والولدان: حتى أتينا ذا الحُليفة ...

قال جابر: فنظرت إلى مدّ بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به.

فأهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[٢].

قال ﷺ: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة، لا بل لأبد أبد ثلاث مرات قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أو فيما نستقبل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل إذن؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خُلق له».

ثم أكد النبي ﷺ بتأكيد الفسخ، فقام فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، فقال: «أبالله تعلموني أيها الناس قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، افعلوا ما آمركم به فإني لولا هديي لحللت كما تحلون ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، فحلوا».

خطبة عرفات:

فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتي بطن الوادي فخطب الناس.

وقال ﷺ: «إن دماؤكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا

أضع ربانا: ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأديت ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد» ثلاث مرات، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً[1].

ففي هذه الخطبة ذكر ﷺ الضرورات الخمس التي أحاطتها الشريعة بحائط متين من الأوامر والنواهي، كل نص في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إنما تصب في ضرورة من هذه الخمس، وهي (الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال).

فكانت الدماء ليست محترمة في الجاهلية فنبه ﷺ على الدماء لأن أمرها عظيم فأول ديوان ينشر يوم القيامة هو ديوان الدماء، حق الدماء مسألة ضرورية، والمقتول يأتي يوم القيامة يجر قاتله، وهو يقول يا رب سل هذا فيما قتلني.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يُصب دماً حراماً**»[2].

ابن ربيعة بن الحارث، وكان هذا الابن المقتول طفلاً صغيراً يحبو بين البيوت فأصابه حجر في حرب كانت بين بنى سعد وبنى ليث بن بكر[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي (٨/ ١٨٣).

وذكر النبي ﷺ في خطبة يوم النحر قريبـاً مما قاله في يوم عرفة، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال خطبنا النبي ﷺ يوم النحر.

قال: «أتدرون أي يوم هذا». قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال «أليس يوم النحر». قلنا بلى.

قال: «أي شهر هذا». قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس ذو الحجة». قلنا بلى.

قال: «أي بلد هذا». قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليست بالبلدة الحرام». قلنا بلى.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت». قالوا نعم. قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

فقد أرشدنا رسولنا ﷺ على حرمة المال والدماء، والمسلمون اليوم يقتل بعضهم بعضـاً ويأخذ بعضهم مال بعض، فيقول ﷺ في حجة الوادع: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٢).

من كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمه ﷺ، وتحذيره من الربا الذي انتشر في عصرنا هذا انتشاراً كبيراً، وأصبح البعض يسميه بغير اسمه (قرض) تسمي الربا قرضـاً، فأياك يا عبدالله أن تستحل ما حرم الله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

فيجب على الأمة الإسلامية أن تبتعد عن أمور الجاهلية، لتعيش في ظل الإسلام كاملاً، والتبرج يا عباد الله من أمور الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(١)، والفخر في الأحساب والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة من أعمال الجاهلية، فعن أبي مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»(٢).

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه.

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة».

حتي أتى المزدلفة فصلى بها، فجمع بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسمح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر.

---

(١) سورة الأحزاب: آية (٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤).

القطفة الثامنة والستون: وفاة الرسول ﷺ

اليوم مع اللقاء الأخير من سيرته ﷺ ألا وهو وفاته، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[2]، فنشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في سبيل دينه حتى أتاه اليقين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك أو ضال.

فبعد أن فتح رسول الله ﷺ مكة وأرسل إلى ملوك ورؤساء الدول الكبرى يدعوهم إلى الإسلام، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أخذ رسول الله ﷺ يشير إلى اقتراب أجله، ويُعرض بقرب أجله.

فلما سأل عمر ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ ﴾ قال ابن عباس: هو أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾ قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ[3].

فقبل حجة الوداع خرج رسول الله ﷺ مع معاذ بن جبل رضي الله عنه يودعه ويوصيه عندما بعثه إلى اليمن، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ ﷺ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا أو لعلك أن تمرَّ بمسجدي هذا أو قبري»، فبكى معاذٌ جَشَعاً لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»[4].

---

(١) سورة الأحزاب: آية (٤٥).
(٢) سورة المائدة: آية (٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٩٤).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٤٩٧).

في حجة الوداع ودع النبي ﷺ أمته وأصحابه: «**لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**»[١].

وفي عرفة نزل على رسولنا ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فلما تلاها ﷺ على أصحابه بكى عمر رضي الله عنه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال رضي الله عنه: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[٢].

ودعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فلما سألتها عائشة رضي الله عنها قالت: سارني في الأول فقال لي: «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي فاتقي الله واصبري، فأني نعم السلف أنا لك»، فبكت. ثم سارني فقال: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟»، فضحكت[٣].

هكذا أخذ رسول الله ﷺ يشير ويعرض باقتراب أجله، والناس يشعرون أن رسول الله ﷺ يودعهم.

فبعد أن رجع النبي ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة، وهناك في المدينة بدأ النبي ﷺ يشتكي من صداع شديد في رأسه.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رجع النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدني، وأنا أجد صداعـًا وأنا أقول، وارأساه، فقال: «بل أنا يا عائشة وارأساه».

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٥/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠).

ثم قال ﷺ لها: «وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك».

فقالت: كأني بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك.

فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه[١].

اشتد الوجع برسول الله ﷺ، فطلب من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين فأذن له، فخرج بين رجلين من أهل بيته حتى دخل بيت عائشة[٢].

عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ أَلاَ تُحَدِّثِينِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ بَلَى، ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ». قُلْنَا لاَ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ. قَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ». قَالَتْ فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ ﷺ: «أَصَلَّى النَّاسُ». قُلْنَا لاَ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «ضَعُوا لي مَاءً في الْمِخْضَبِ». قَالَتْ فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ». قُلْنَا لاَ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ»، فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ».

فَقُلْنَا لاَ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ -وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِصَلاَةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ- فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِى بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّىَ بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّىَ بِالنَّاسِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٦٥)، وأحمد (٢٥٩٠٨)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٧٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٨).

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا- يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ. فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلاَةِ الظُّهْرِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لاَ يَتَأَخَّرَ.

قَالَ: «أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ». فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ. قَالَ فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهْوَ يَأْتَمُّ بِصَلاَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّاسُ بِصَلاَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ. قَالَ عُبَيْدُ اللهِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ أَلاَ أَعْرِضُ عَلَيْكَ مَا حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ عَنْ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ هَاتِ.

فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَدِيثَهَا، فَمَا أَنْكَرَ مِنْهُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ أَسَمَّتْ لَكَ الرَّجُلَ الَّذِى كَانَ مَعَ الْعَبَّاسِ قُلْتُ لاَ. قَالَ هُوَ عَلِيٌّ[(١)].

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت إن رسول الله ﷺ قال في مرضه «مروا أبا بكر يصلى بالناس».

قالت عائشة قلت إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس. فقالت عائشة فقلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس.

ففعلت حفصة. فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل للناس». فقالت حفصة لعائشة ما كنت لأصيب منك خيراً[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٩).

أبو بكر ﵁ يصلي بالناس، وفي يوم وجد النبي ﷺ في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثم أُتي به حتى جلس إلى جنبه فكان ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر[١].

والرجلان هم : العباس بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب ﵄.

فلما كان يوم الخميس قبل خمسة أيام من وفاته ﷺ؛ اشتد الوجع برسول الله ﷺ فقال للمسلمين حوله: «ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»، فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع.. فقال لهم: «دعوني فالذي أنا فيه خير»[٢].

ثم أراد النبي ﷺ أن يخرج للخطبة فقال لأهله: «أهريقوا علي من سبع قرب لم تُحل أوكيتها، لعلي أعهد إلى الناس».

تقول عائشة -رضي الله عنها-: «فأجلسناه في مخصب لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيد» أن قد فعلتن، تقول ﵄ ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم[٣].

يقول أبو سعيد الخدري ﵁: «خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»».

قال أبو سعيد: «فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير، فكان رسول الله ﷺ هو المخيرُ، وكان أبو بكر أعلمنا».

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨)، ومسلم (٦٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٢)، ومسلم (١٦٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٨).

فقال ﷺ: «إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب ألا سد ألا باب أبي بكر»[(١)].

اشتد الوجع برسول الله ﷺ، فأخذ يوصي أمته وأصحابه في الأيام الأخيرة من عمره، فقد أوصى أمته بعدة أمور:

١- إخراج المشركين من جزيرة العرب، فقال ﷺ قبل موته بخمس: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[(٢)].

٢- أوصى بالأنصار، يقول أنس: «مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: مايبكيكم؟ فقالوا ذكرنا مجلس النبي ﷺ فينا فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر -ولم يصعده بعد ذلك اليوم- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي -أي: موضع سري وأمانتي- وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»[(٣)].

٣- أوصى ﷺ أمته بالصلاة، عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه[(٤)].

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٨)، ومسلم (١٦٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٩).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٥)، وأحمد (٢٦٤٨٣)، والحديث صحيحه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٨٦).

٤- ووصى أمته -ﷺ أمته أن تحسن الظن بالله، يقول جابر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «**لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»(١).

٥- نهى ﷺ أمته عن بناء المساجد على القبور، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢).

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها تَقُولُ إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُالرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ فَقُلْتُ آخُذُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَقُلْتُ أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى». حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ(٣).

اشتد الوجع برسول الله ﷺ، وانقطع عن أصحابه بقية يوم الخميس، والجمعة والسبت والأحد، وبينما هم في صلاة الفجر من يوم الأثنين، وأبو بكر يصلي بالناس، لم يفجأهم إلا ورسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة؛ فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة ثم ابتسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

يقول أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل ﷺ الحجرة وأرخى الستر، ثم مات ﷺ ضحى ذلك اليوم الاثنين[1].

عن أنس قال لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة رضي الله عنها واكرب أباه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات قالت يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[2].

فعائشة تبكي وفاطمة تبكي، والكل يبكي على فراق رسول الله ﷺ، والخبر ينتشر هنا وهناك فمن المسلمين من يقول: مات رسول الله ﷺ ومنهم من يقول: لا ما مات رسول الله ﷺ، وهذا الفاروق عمر يتوعد من قال مات رسول الله ﷺ بالقتل والقطع.

وصل الخبر إلى أبي بكر فجاء على فرسه ثم دخل فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يُذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فقال اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

(١) أخرجه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).
(٣) سورة الزمر: آية (٣٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

فنشج الناس يبكون وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعُقِرتُ حتى ما تُقِلُّني رجلاي، وهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات[2].

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله لا ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره.

ثم كلمهم مُكلِّمٌ من ناحية البيت -لا يدرون من هو- أن غسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون القميص دون أيديهم وكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه[3].

كُفن رسول الله ﷺ، ثم أخذوا في الصلاة عليه فرادى لم مؤمهم أحد دخل الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

فلما أرادوا دفنه ﷺ اختلفوا أين يدفنونه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته قال ﷺ: «ما قبض الله نبياً إلا في موضع الذي يحب أن يدفن فيه فدفنوه في موضع فراشه»[4].

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٤١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٣/ ١٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي (١٠١٨)، والحديث صححه الشيخ الألباني في أحكام الجنائز ص (١٣٧).

وعن أم سلمة قالت بينا نحن مجتمعون نبكي لم ننم ورسول الله ﷺ في بيوتنا ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذا سمعنا صوت الكرازين في السحر.

فصحنا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي ﷺ وبكى وانتحب، فزادنا حزن، وعالج الناس الدخول إلى قبره فغلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ.

إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا على فراقك يا رسول الله لمحزونون ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون.

بكى الناس بكى المنبر على رسول الله بكت السماء على رسول الله بكت الأرض على رسول الله بكى كل شيء على فقد رسول الله نعم مات رسول الله لكن بقي هديه بقيت سنته بقي ذكره إلى أن يشاء الله.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- أحكام الجنائز، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٢- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٤- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٥- الاعتصام، الشاطبي، تحقيق: د. محمد بن عبدالرحمن الشقير، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٦- أعلام الحديث شرح صحيح البخاري، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: د. محمد بن سعد آل سعود، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٧- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٩هـ.

٨- إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٠- الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين علي بن سليمان المرداوي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.

١١- بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق: علي العمران، إشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.

١٢- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٣- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

١٤- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٦- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

١٧- تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، أحمد بن حليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية.

١٨- تنبيه كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

١٩- تهذيب الأسماء واللغات، النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ نشر.

٢٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، مكتبة فياض، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٢١- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٢- جامع الترمذي، الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبدالباقي وكمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٣- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢٥- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى ١٢٧١هـ-١٩٥٢م.

٢٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن، وعبدالعزيز بن إبراهيم، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٢٧- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٢٨- جوامع السيرة، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى ١٩٠٠م.

٢٩- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.

٣٠- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣١- الرد على الأخنائي، ابن تيمية، تحقيق: الداني بن منير، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٣٢- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: نبيل بن نصار السندي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.

٣٣- دلائل النبوة، أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصبهاني، تحقيق: د. محمد رواس، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣٤- دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق الدكتور عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، المجلد الأول والثاني والمجلد الثالث والمجلد الرابع

والمجلد السادس والمجلد السابع، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣٦- سنن ابن ماجه، ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٣٧- سنن أبي داود، أبو داود، تعليق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ.

٣٨- سنن الدارمي، الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المغني، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

٣٩- السنن الكبرى، النسائي، تحقيق: حسن عبدالمنعم شلبي، أشرف عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٤٠- السنن الكبير، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٤١- سنن النسائي، النسائي، تحقيق مكتب التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٤٢- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٤٣- السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، مركز بحوث السيرة والسنة، جامعة قطر ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٤- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٤٥- الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري البغدادي، د. عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٤٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، السعودية، الطبعة الثامنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٧- شرح صحيح مسلم، النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٤٨- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤٩- شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٥٠- صحيح ابن حبان، ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥١- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الاعظمي، المكتب الاسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٥٢- صحيح أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٣- صحيح البخاري، البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٥٤- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٥- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٦- صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الطبعة الأولى.

٥٧- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة الحلبي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ.

٥٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، مكتبة الحياة، بيروت.

٥٩- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبدالوهاب السبكي، تحقيق: محمود الطناجي وعبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.

٦٠- الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر، تحقيق زياد منصور، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٦١- ظلال الجنة في تخريج السنة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٢- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الربعي، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٦٣- غريب القرآن، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٦٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.

٦٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب، تحقيق: أحمد فتحي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٦٦- فقه السيرة، محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق.

٦٧- القصيدة النونية، القحطاني، تحقيق: عبدالعزيز الجربوع، دار الذكرى، الطبعة الأولى.

٦٨- كشف الأستار عن زوائد البزار، الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٩- المبسوط، محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق: د. أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة ١٤١٤هـ-٢٠١٩م.

٧٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٧١- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: فريد الجندي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٧٢- محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٧٣- المحلى بالآثار، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي القرطبي، دار الفكر، بيروت.

٧٤- مختصر العلو للعلي العظيم، الذهبي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٧٥- مختصر الشمائل المحمدية، محمد بن سورة الترمذي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ.

٧٦- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٧٧- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.

٧٨- مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق حسين أسد، دار الثقافة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧٩- مسند أحمد، الإمام أحمد، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٨٠- مسند أحمد، الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٨١- مسند الحميدي، أبو بكر بكر الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، عالم الكتب، بيروت.

٨٢- مسند الشاميين، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٨٣- مسند البزار، البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٨٤- مسند الطيالسي، أبو داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

٨٥- مشكاة المصابيح، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٨٦- مصنف عبدالرزاق، عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمي، المجلس العلمي، الهند، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٨٧- المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله، دار الحرمين، بيروت ١٤١٥هـ.

٨٨- المعجم الصغير، للطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٨٩- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، الوطن العربي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٩٠- المدونة، مالك بن أنس الاصبحي المدني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٩١- المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثامنة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٩٢- مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون التونسي، مطبعة عبدالرحمن محمد، القاهرة.

٩٣- الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.

٩٤- موطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان، أبو ظبي، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٩٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير الجزري، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وطاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٦- هدي الساري، ابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.

فهرس الكتاب

المقدمة.. ٥

القطفة الأولى: مولده ﷺ.. ١٢

القطفة الثانية: الواجب اتجاه النبي ﷺ.. ١٩

القطفة الثالثة: النبي ﷺ قبل المبعث.. ٢٥

القطفة الرابعة: نبوته ﷺ.. ٣٣

القطفة الخامسة: صفة النبي ﷺ الخلقية والخُلُقية وروىته في المنام..... ٣٨

القطفة السادسة: البلد الحرام أسماءه وحدوده وفضائله.. ٤٤

القطفة لسابعة: المواقع المعظمة في البلد الحرام.. ٥٠

القطفة الثامنة: البعثة المحمدية.. ٥٧

القطفة التاسعة: مرحلة الدعوة إلى الله (١).. ٦٣

القطفة العاشرة: مرحلة الدعوة إلى الله (٢).. ٦٩

القطفة الحادية عشرة: إسلام ابي ذر والطفيل.. ٧٤

القطفة الثانية عشرة: أذى المشركين لرسول الله ﷺ.. ٨٠

القطفة الثالثة عشرة: اضطهاد قريش للمسلمين.. ٨٧

القطفة الرابعة عشرة: لجوء قريش إلى المفاوضات وطلب المعجزات.. ٩٣

القطفة الخامسة عشرة: مجادلة قريش لرسول الله ﷺ.. ٩٨

القطفة السادسة عشرة: الهجرة إلى الحبشة........................ ١٠٥

القطفة السابعة عشرة: نصرة أبي طالب للنبي ﷺ.................... ١١٢

القطفة الثامنة عشرة: إسلام حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه................ ١١٥

القطفة التاسعة عشرة: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه................... ١١٩

القطفة العشرون: المقاطعة العامة ورحلة النبي ﷺ إلى الطائف......... ١٢٦

القطفة الحادية والعشرون: الإسراء والمعراج........................ ١٣٤

القطفة الثانية والعشرون: أهمية المسجد الأقصى وفضله.............. ١٤٣

القطفة الثالثة والعشرون: بيعة العقبة................................ ١٤٩

القطفة الرابعة والعشرون: هجرة الصحابة إلى المدينة................. ١٥٧

القطفة الخامسة والعشرون: هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة....... ١٦٤

القطفة السادسة والعشرون: في الطريق إلى المدينة................... ١٧٢

القطفة السابعة والعشرون: ثمرات الهجرة............................ ١٨٠

القطفة الثامنة والعشرون: فضل المدينة وآداب سكناها................. ١٨٦

القطفة التاسعة والعشرون: مكانة المسجد في الإسلام.................. ١٩١

القطفة الثلاثون: الإخاء بين المهاجرين والأنصار...................... ١٩٨

القطفة الحادية والثلاثون: إسلام عبدالله بن سلام...................... ٢٠٦

القطفة الثانية والثلاثون: إسلام سلمان الفارسي......................... ٢١٤

القطفة الثالثة والثلاثون: تحويل القبلة........................ ٢٢٢

القطفة الرابعة والثلاثون: معرفة العقيدة الإسلامية (١)................ ٢٢٦

القطفة الخامسة والثلاثون: معرفة العقيدة الإسلامية (٢)............... ٢٣٣

القطفة السادسة والثلاثون: شروط القتال وأهدفه...................... ٢٤١

القطفة السابعة والثلاثون: غزوة بدر............................. ٢٤٨

القطفة الثامنة والثلاثون: ثمرات ونتائج غزوة بدر..................... ٢٥٦

القطفة التاسعة والثلاثون: غزوة بني قينقاع........................ ٢٦٠

القطفة الأربعون: غزوة بني النضير............................... ٢٦٧

القطفة الحادية والأريعون: غزوة أحد (ج١)......................... ٢٧٦

القطفة الثانية والأربعون: غزوة أحد (ج٢)......................... ٢٨٢

القطفة الثالثة والأربعون: ثمرات وفوائد غزوة أحد..................... ٢٨٩

القطفة الرابعة والأربعون: يوم الرجيع وبئر معونة..................... ٢٩٧

القطفة الخامسة والأربعون: غزوة بني المصطلق...................... ٣٠٥

القطفة السادسة والأربعون: حادثة الإفك.......................... ٣١١

القطفة السابعة والأربعون: غزوة الأحزاب (الخندق).................. ٣٢٠

القطفة الثامنة والأربعون: غزوة بني قريظة........................ ٣٣٠

القطفة التاسعة والأربعون: عمرة الحديبية......................... ٣٣٩

القطفة الخمسون: ثمرات ونتائج صلح الحديبية........................ ٣٥١
القطفة الحادية والخمسون: سحر النبي ﷺ........................ ٣٥٨
القطفة الثانية والخمسون: نهيه ﷺ عن الحسد........................ ٣٦٦
القطفة الثالثة والخمسون: غزوة خيبر........................ ٣٧٣
القطفة الرابعة والخمسون: نتائج وفوائد غزوة خيبر........................ ٣٨٠
القطفة الخامسة والخمسون: عمرة القضاء........................ ٣٨٦
القطفة السادسة والخمسون: غزوة مؤتة........................ ٣٩٣
القطفة السابعة والخمسون: سرية الخبط........................ ٤٠١
القطفة الثامنة والخمسون: فتح مكة........................ ٤٠٦
القطفة التاسعة والخمسون: ما جاء في خطبة يوم الفتح........................ ٤١٥
القطفة الستون: ما بعد فتح مكة........................ ٤٢٠
القطفة الحادية والستون: غزوة حنين........................ ٤٢٩
القطفة الثانية والستون: ثمرات غزوة حنين........................ ٤٣٧
القطفة الثالثة والستون: غزوة تبوك........................ ٤٤٥
القطفة الرابعة والستون: نتائج غزوة تبوك........................ ٤٥٣
القطفة الخامسة والستون: قصة كعب بن مالك وصاحبيه........................ ٤٥٨
القطفة السادسة والستون: ما اشتملت عليه قصة كعب........................ ٤٦٦

القطفة السابعة والستون: حجة الوداع........................... ٤٧٢

القطفة الثامنة والستون: وفاة الرسول ﷺ........................... ٤٧٨

المصادر والمراجع... ٤٨٨

فهرس الكتاب.. ٤٩٩

د. غسان إسماعيل طاهر

❋ ولد في بغداد عام ١٩٧٨م حصل على البكالوريوس من الجامعة الإسلامية في بغداد.

❋ وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة العلوم الإسلامية العالمية في الأردن.

❋ وكان عنوان رسالة الماجستير المنهج التعليلي عند ابن رجب الحنبلي من خلال كتابه فتح الباري.

❋ وعنوان رسالة الدكتوراه الأحاديث التي أعلها الرازيان وأخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما من خلال كتاب العلل لابن أبي حاتم.